أنور الجندي

قضايا العصر

ومشكلات الفكر

تحت ضوء الإسلام

ما يزال الفكر الاسلامي يقاوم دون أن يستسلم وهو آخر الحصون الصامدة في وجه الغزو إذا ضعفت حصون المجتمعات. وإن قيم الفكر الاسلامي ما تزال حية تناضل وتقاوم ولن تستسلم.

مؤسسة الرسالة


قضايا العصر
ومشكلات الفكر
تحت ضوء الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م



مؤسسة الرسالة – بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٩٥٥٠١ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران



إن الفكر الاسلامي لا يزال اقوى الحصون القادرة على المقاومة في وجه حملات التغرير والغزو الثقافي ، وإن اكبر الأخطار التي تواجه العالم الاسلامي والبلاد العربية إنما تخبيء من الغزو الثقافي والتغرير والحرب النفسية وإن اخطر الأخطار التي تواجه الفكر والثقافة هو محاولة فرض مفاهيم وافدة على القيم ، كبديل للمفاهيم الأصيلة المستمدة من جوهر شخصيتنا والصادرة عن عقائدنا ، والمنبعثة من مزاجنا النفسي وذاتيتنا، هذه هي أخطر الحروب التي تحتاج إلى وضع كل المصطلحات والمفاهيم تحت ضوء الاسلام لكشف الزيف ولتصحيح الأخطاء ومن حق الشباب المسلم أن يتعرف على وجهة نظر الاسلام في ابرز مشكلات الفكر وقضايا العصر وهذا ما حاولناه هنا ونسأل الله التوفيق.

أنور الجندي

أولاً :

قضايا العصر

قضايا : التغرير ، والعلم ، والدين ، والتوحيد ، والحضارة المعاصرة ، والنفس الانسانية ، والأخلاق والأدب ، والمجتمع ، والروحية الحديثة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى البحث

يواجه المجتمع الإسلامي اليوم قضايا متعددة ، فرضتها عليه تحديات العصر والحضارة ، وخاصة في مجال الإنسان والمجتمع ، وتتصل هذه التحديات بالعقائد من حيث الإيمان والإلحاد ، وتتصل بالنفس الإنسانية من حيث التقوى والإباحة .

وتمتد هذه القضايا إلى الفروق الواضحة بين الدين والعلم ، وبين العلم والفلسفة ، وبين علاقة الإنسان بالأخلاق والفنون والآداب .

وهناك قضايا الموت والبعث والجزاء والمسئولية الفردية .

ولقد ألقت إلينا الفلسفة المعاصرة وجهات نظر متعددة في هذه القضايا ، وحملت دعوات الغزو الثقافي والقوى الاستعمارية هذه الآراء والنظريات بهدف واضح .

ونحن إزاء هذه المحاولات على رأي واضح محدد . هو أن لكل معضلة من هذه المعضلات ، أو قضية من هذه القضايا ، حلولاً مختلفة ، ونظريات متعددة تختلف باختلاف الأمم والشعوب التي تستمد مفاهيمها من قيمها ، ومعتقداتها ، وتراثها الحي . ونحن إزاء هذه المعضلات أمام نظريتين .

نظرية غربية تمثل فكر الأمم التي واجهت هذه القضايا .

ونظرية ليست عالمة ولا عالمية ، ولا يمكن تطبيقها على النفس الإنسانية

بعامة ، ولا على المجتمعات المختلفة ، وتكاد تكون نظرية خاصة ، انبعثت من تحديات تلك المجتمعات ، وعقليات فلاسفتها .

وما من قضية من هذه القضايا (في الاجتماع والسياسة والأخلاق والاقتصاد والتربية) إلاّ ولنا نحن المسلمين فيها نظرية ومنهج ، نظرية أصيلة ، ومنهج شامل . يهدي إلى الحق فيها . هذا الحق المستمد من :

١ ـ أصول الإسلام الذي قدم للبشرية منذ خمسة عشر قرنا منهجاً متكاملاً للفكر والحياة والمجتمع والحضارة .

٢ ـ ومن منهج القرآن الذي أهدى للإنسانية حلول الفطرة البشرية والأصالة الربانية .

فنحن في كل مجال وموقف علينا أن نسأل عن نظريتنا ومنهجنا . إن النظرية الغربية الوافدة هي من صنع قوم آخرين ، أقاموها على مقياس مجتمعهم ، وابتدعوها في ظل تحدياتهم الواقعية والتاريخية جميعاً . هذه التحديات التي دفعتهم إلى الانفصال عن مناهج الأديان ، بل ومعارضتها .

لقد جاءت تبعية المسلمين والعرب للفكر الغربي في ظل تحديات واضحة ، ومن خلال الاستعمار والسيطرة التي فرضها النفوذ الأجنبي على التعليم والصحافة والثقافة . ومن خلال خلق أولياء لثقافته . هم عملاء له في نفس الوقت . ولم تكن هذه التبعية اتجاهاً طبيعياً من المسلمين والعرب ، ولا لرغبة أصيلة . وإنما كان ذلك قسراً وغصباً .

ولقد كان الفكر الإسلامي دائماً متفتحاً لثمرات الفكر البشري ، ولكنه كان قادراً حتى في أشد مراحل الضعف والتخلف على المدافعة عن ذاتيته ، والحيلولة دون انصهاره في الفكر العالمي . ذلك لأن مقوماته الأصيلة ، وقيامه أساساً على « التوحيد » حال دائماً دون هذا الانصهار . وهذا الإحتواء الذي فرضه الغزو الخارجي عليه . ومن خلال حملتين من أضخم حملات الغزو هما :

الحروب الصليبية ، والاستعمار الغربي ، والصهيوني الحديث . الذي وصل في السنوات الأخيرة إلى أقصى مراحله باحتلال الصهيونية بيت المقدس ،

وفرض وجودها على الأمة العربية من خلال هاتين الحملتين . كان الفكر الإسلامي قادراً على تصحيح مساره الفكري ، ورد عادية تزييف قيمه ومفاهيمه .

فعلى مفكري المسلمين والعرب اليوم أن يتنبهوا إلى هذه المخاطر التي تجتاح فكرهم ومجتمعهم ، من الاستسلام للمذاهب والفلسفات المادية التي هي في حقيقتها سلاح من أسلحة الصهيونية العالمية لهدم الأمم وتدمير مقومات الشعوب . وأهم هذه الأخطار ، أخطار الفلسفة اليونانية الوثنية التي تحاول الصهيونية اليوم إعادة صياغتها في نظريات متعددة حول العقيدة والنفس والأخلاق تستهدف بها إذاعة الإلحاد والإباحية ، وتحاول من خلالها تدمير مقومات المسلمين والعرب ، وتخريب مجتمعاتهم .

ونحن اليوم قد جاوزنا مرحلة الوصاية ، ومرحلة التبعية للنفوذ الاستعماري ، وأصبحنا قادرين على كشف الدخائل ، وتحرير القضايا ، وتجدنا على أبواب مرحلة الرشد الفكري القادر على اكتشاف الطريق ومعرفة الأخطار ، وتبيين الدوافع والخلفيات التي تحاول حجبنا عن جوهر فكرنا ، وأصالة مضامينه وقيمه .

ولنكن على ثقة بأننا لن نستطيع أن نحرر وجودنا إلاّ إذا حققنا وجودنا من خلال فكرنا وتحركنا من داخل قيمه ومفاهيمه ومقوماته ، لا من داخل قيم ومقومات متمثلة في الفلسفات المادية .

إن لكل نظرية عوامل ضعفها وقوتها ، والحقيقة لا بدّ أن تظهر ولو أخفاها بريق الصياغة ، وخداع الطابع العلمي الزائف .

ولا بدّ أن تواجه النفس الإسلامية العربية فطرتها وأصالتها ، وأن تلتقي مع المناهج والحلول التي قدمها إليها الإسلام في مختلف القضايا والمعضلات . هذه المناهج القادرة على إعطاء البشرية هداها ونورها ، وكشف ما تواجهه من قلق وضياع وغربة مما يردده دعاة الفلسفات المادية .

تلك هي غاية هذه المحاولة في إلقاء أضواء الإسلام على قضايا العصر والإنسان .

(١) حقائق أساسية .

هناك عدة حقائق أساسية لا بدّ من الإلمام بها عند مواجهة قضايا العصر في ضوء الإسلام .

(الحقيقة الأولى) أن لكل أمة مزاجها النفسي ، وذاتيتها الخاصة القائمة على أساس من عقائدها وقيمها وآدابها ومفاهيمها التي عاشت عليها منذ ألوف السنين ، وأن هذه الأمة حين تواجه أي قضية من القضايا ، أو حدث من الأحداث ، أو موقف من المواقف ، إنما تستمد استجابتها إزاءه من هذه المضامين .

(الحقيقة الثانية) إن العرب والمسلمين لهم أيدولوجيا أساسية في مجال النظرة إلى الكون والحياة . والله والإنسان والمجتمع . هذه النظرة مستمدة أساساً من القرآن الكريم ، ومن تطبيق نبي الإسلام ورسوله في حياته وبيانه ـ ومن منطلق واضح محدد قوامه .

١ ـ أن الإسلام هو خاتم لرسالات السماء ، جاء امتداداً لها ، وخاتماً وناسخاً لها . ورسالة إلى الإنسانية كافة .

٢ ـ إن القرآن الكريم هو النص الموثق الذي لم يصبه أي تحريف . كتاب الله المنزل بالحق . الذي أعطى البشرية منهجاً كاملاً للحياة والمجتمع والأخلاق ، وعقيدة ناصعة . قوامها التوحيد .

(الحقيقة الثالثة) إن الفكر الإسلامي إنما قام أساساً مستمداً من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وأنه استكمل نهجه قبل أن تنتقل مترجمات الفلسفات الشرقية والغربية ، وأنه في مواجهة هذه الفلسفات ظل قادراً على الاحتفاظ بذاتيته ومقوماته ، وأنه أنشأ منهجه في الفكر ونظامه في الحياة .

(الحقيقة الرابعة) إن الفكر الإسلامي قد أقام منهجاً فكرياً مستقلاً يختلف اختلافاً جذرياً عن مختلف مناهج أفكار الأمم وفلسفاتها وعقائدها .

وأنه أقام منهج المعرفة الإسلامي على أساس عقلي وروحي معاً . فجعل للعقل منطلقه في مجال العلوم والمحسوسات ، وجعل للروح منطلقها في مجال الغيبيات . وما وراء الطبيعة .

وأن الإسلام أقام مثيولوجيا خاصة به تختلف عن نظرية اليونان ، ومناهج الأديان القديمة وفلسفاتها .

(الحقيقة الخامسة) أن هناك مؤامرة دائبة مستمرة لغزو الفكر الإسلامي ، وإخراجه من قيمة ومناهجه ، ومحاولات لتدمير مقوماته ، وإدخال مفاهيم أخرى للقضاء على استقلاليته وذاتيته وإذابته في الأممية العالمية .

وأن المسلمين قد واجهوا مثل هذا الغزو على فترات متوالية من تاريخهم ، حين حاولت الفلسفة اليونانية الإلهية الوثنية ، وحين حاولت المجوسية الباطنية ، وفلسفات الغنوصية الشرقية إخراجه عن مقوماته .

وقد جاهد الفكر الإسلامي ذلك جهاداً صابراً تكلل بالظفر دائماً . واليوم يواجه الفكر الإسلامي غزواً شديداً أشد ضراوة في محاولة الفلسفات الغربية إخراجه من مقوماته وتدميره . وذلك بمحاولة فرض مذاهب فلسفية في مجال النفس الإنسانية والألوهية . والبعث ، ووجود الذات ، تعارض تماماً قيمه الأساسية ، وتشكل ببريقها الخادع ، وزيفها المسبوك أثراً في العقول الحدثة والأذهان المتطلعة .

(الحقيقة السادسة) الواقع أن هناك حرباً تشنها القوى الاستعمارية والإلحادية والصهيونية . على مقومات الفكر الإسلامي بإعتباره آخر الحصون التي تثبت للمقاومة في وجه الغزو السياسي . والاقتصادي والاجتماعي .

فإن هناك محاولة دائبة لإخراجه من مقوماته ، وتزييفه . بالإضافة إليه ، أو تحويره عن مناهجه ، أو التشكيك فيه ، وإثارة الشبهات حوله .

وهناك أدلة متعددة ، ووثائق أكيدة حول هذا الخطر ، والمخططات التي رسمت لهذا الغزو . وقد سجلت ذلك بروتوكولات حكماء صهيون في أكثر من موضع . كما ورد في عشرات من المؤلفات والتقارير والمخططات .

(الحقيقة السابعة) أن الاستعمار حين سيطر على العالم الإسلامي ، إنما كان يستهدف تفريغ الذات العربية الإسلامية من مقوماتها النفسية والروحية والاجتماعية المنبثقة عن الإسلام . وكانت أولى مخططات هذا التفريغ هي تزييف مناهج التاريخ والتراث واللغة العربية ، والفقه الإسلامي ، وطرح نظريات ومناهج ومفاهيم غربية عديدة في مجالات الأدب والاقتصاد والسياسة والاجتماع . وبالرغم من أن هذه النظريات لها جذورها في الفكر الإسلامي ، فإنها عرضت على أنها نتاج خالص للفكر الغربي . فضلاً عن أنها لم تعرض كوجهة نظر غربية . وإنما عرضت على أنها من ثمرات الفكر العالمي ، أو آخر مقررات العلم . والواقع أنها :

أولاً : ليست علماً . ولكنها فلسفة وفرق كبير بين العلم والفلسفة .

ثانياً : إن لنا نحن العرب والمسلمين نظرية . وللغرب نظرية في مختلف هذه القضايا سواء اتصلت بالنفس أم بالاجتماع أو سائر جوانب المعرفة الإنسانية .

ومعنى هذا أن الاستعمار كان يعمل أساساً على تفريغ الأمة العربية والعالم الإسلامي من محتواهما العقدى . وذلك حتى يجعلهما مؤهلين ليقتل مفاهيم أخرى ، تغطى الحاجة في دائرة النفس والعقائد والمجتمع ، فإذا جاء هذا الجديد لم يجد حصانة تحول دون تقبله ، ولم يجد معرفة تفهمه ، وتكشف زيفه أو تعطى القدرة على المقارنة بين تبعيته وأصالة المنهج العربي الإسلامي في الموضوع نفسه .

(الحقيقة الثامنة)ولذلك فإن أهم ما يجب علينا أن نعرفه . هو أن هناك نظريتين في مختلف هذه المجالات ـ مجالات النفس . والعقائد والاجتماع .

* نظرية عربية إسلامية أصيلة مستمدة من قيمنا ، وتتفق مع ذاتيتنا ومزاجنا النفسي ، وقائمة على طوابعنا الجامعة بين الروح والمادة . والعقل والقلب . والدنيا والآخرة .

* ونظرية غربية قامت في بلادها . واستمدت مقوماتها من قيم فكرها ، ووجودها الاجتماعي أو النفسي الخالص .

(الحقيقة التاسعة) أن الفكر العربي يرفض النظريات الوافدة في مجال

النفس والاجتماع والثقافة . ولكنه يقبلها في مجال العلوم والحضارة . ذلك لأسباب عميقة بعيدة المدى . أهمها : قيام المجتمعات العربية والإسلامية أساساً على الترابط بين الدين والمجتمع ، وقيام مناهجها على أساس أخلاقي ديني ، وكون الإسلام ديناً ومنهج حياة ، وكون نظرية المعرفة الإسلامية ذات جناحين مادي وروحي ، عقلي ووجداني ، بينما تصدر هذه النظريات من دائرة الغرب في مواجهة تحديات مجتمعاتها .

(الحقيقة العاشرة) أن استجابة المجتمعات العربية الإسلامية لهذه النظريات الوافدة ليست استجابة أصيلة ، وإنما هي تحدث تحت تأثير إغراء البريق ، وعقدة النقص ، وتقليد الغالب ، وفي ظل الفجوة الحادثة من نقص المعرفة الأصيلة ، وتقليد الغالب ، وفي ظل الفجوة الحادثة من نقص المعرفة الأصيلة بمناهج فكرنا ومقوماته .

(٢) أخطار تهدد النفس الإنسانية .

إن هناك ثلاثة أخطار تهدد النفس الإنسانية . قوامها الفلسفة المادية .

أولاً ـ الإلحاد في مواجهة الإيمان ، والهجوم العاصف على العقائد والأديان والنظرة المضطربة إزاء الألوهية والبعث ، ومحاولة إنكار الغيبيات إنكاراً تاماً . وقصر النظرة والمعرفة على المحسوسات .

ثانياً ـ إعلاء الغريزة واعتبارها مصدراً أساسياً لكل تصرفات الفرد الإنساني ، والدعوة إلى إطلاقها ، والتحذير من أخطار ما يسمى بالكبت والأمراض النفسية .

ثالثاً ـ تأكيد الذات وتحقيقها بحرية التصرف دون تقدير للضوابط التي تحفظ كيان الفرد ، أو الحد الذي تحفظ علاقات الأفراد . وذلك في مواجهة ما يسمى خطر الموت أو الحروب الذرية ، هذه أبرز مفاهيم النظريات العصرية التي تواجه مجتمعاتنا وفكرنا العربي الإسلامي ، والتي صدرت عن المجتمعات الغربية في ظل

التحديات المختلفة التي تواجهها تلك المجتمعات ، والتي تقوم أساساً من داخل الفكر الغربي ، وفي طريق تطوره وانطلاقه .

وهي نظريات طبيعية بالنسبة لها ، لأنها مرتبطة بتاريخه وعقائده ، وبالأرضية الإغريقية التي ابتعثتها الحضارة الحديثة ، والتي لا تجد في طوابع التحلل والإباحة أمراً غريباً عليها . بل إمتداداً طبيعياً للحضارتين الإغريقية والرومانية .

بل إن الأصول التي تقوم عليها هذه النظريات . إنما هي مستمدة أساساً من الأساطير اليونانية والإغريقية القديمة .

أما العقل العربي الإسلامي . وأما النفس العربية فإنها لا تقبل هذه النظريات ، وترفضها وتراها متعارضة تماماً مع مفاهيم الفطرة التي فطر الإنسان عليها .

فالإنسان بطبيعته متدين ، أخلاقي ، ولقد جاء الإسلام فأقام منهجاً فكرياً جامعاً بين العقل والقلب والروح والجسد ، موافقاً تمام الموافقة لطبيعة الإنسان ولفطرته .

فالإنسان أساساً روح وجسد . وكل منهج عقائدي ونفسي لا يقوم على الترابط والامتزاج بين الروحي والمادي في الإنسان بالوحي والبصيرة من ناحية . وبالعقل والعلم من ناحية أخرى .

أما الفلسفة المادية تضاد مفاهيم الفطرة والدين . وذلك لأنها تنتزع الجانب الروحي من قيم المعرفة ، وتقتصر على الجانب المادي .

أما نظرية المعرفة الإسلامية فهي لا تعلي جانباً على آخر ، ولكنها ترتبط بهما ، وتوازن مستمدة ذلك من تركيب الإنسان نفسه .

والفلسفة المادية تقدم للإنسان نظرية مخالفة للفطرة والمتنزلات السماوية ، ولا شك أن هدف هذه النظرية أساساً هو : هدم الشخصية الإنسانية وتحطيم مقوماتها . وبذلك تستطيع القوى التي تدفع هذه النظريات أن تسيطر على الأمم والمجتمعات .

وذلك هو الخطر الكامن وراء تضاد هذه النظريات للفطرة ، ولطبائع الأمور ، وللمفهوم الإنساني الأصيل الذي جاءت به الأديان وعرفته البشرية طويلاً ، وأقامت حياتها ومناهجها عليه .

إن هدف الفلسفات المادية أساساً هو هدم الإنسان من داخله وتفريغه من عقائده وإيمانه الراسخ عن طريق نظريات ذات طابع براق ، وقوالب علمية لا تثبت أمام الحقيقة . وليست نظرية المادية والحسية والوجودية جديدة .

وليست هي خلق قدمته عقول مستحدثة ، ولكنه إنبعاث لفلسفات قديمة عرفها اليونان والإغريق وعرفتهاالمجوسية الفارسية والقنوصية الشرقية .

وقد مضى وقت طويل على هذه الفلسفات . وقد ازدرتها البشرية بعد أن تقدمت خطوات واسعة في ضوء التوحد والعقل والإيمان . ولكن هذه القوى الضاغطة لم تلبث أن ابتعثتها من خلال الأساطير والوثنيات ، وجددتها وصاغتها في أسلوب العصر . وأحكمت إخراجها في جو علمي ، وحاولت أن تخدع الناس بأنها علم ، وبأنها حقائق .

ومع أن كل الحقائق العلمية والمختبرات المعملية ، والحقائق الجديدة التي كشفت عنها تفتت الذرة . هذه الحقائق العلمية التي أخذت تقرب من مفاهيم الأصالة ، وتكشف عن وجود الله ، وعن توازن الإنسان وعن وجود الغيب بالرغم من هذا . فإن الفلسفة المادية التي تحتضن دعوات الإلحاد والإباحة . إنما تسيرها قوى ضاغطة ونفوذ فكري خطير ، قادر على أن يدفع هذه النظريات ، ويذيعها ويؤكدها في النفوس ويدخلها في مناهج الدراسات والجامعات .

إذن فليس العلم هو الذي صدرت عنه تلك النظريات ، ولكنها الفلسفة التي تحاول أن تسمى نفسها علماً . إن العلم نفسه يقترب من الحقائق التي جاءت بها الأديان ، ويقر بوجود عالم الغيب ، ولكن الفلسفة المادية هي التي تعلى من نظريات إعلاء الغريزة ، وإنكار الغيبيات ، والهجوم العاصف على الألوهيات وتدفعها إلى الأمام في قوة ، وتمدها بالنفوذ والسلطان .

تلك هي القوة الاستعمارية التي تطمع في تدمير المجتمعات ، وإنسانية الإنسان لإتمام سيطرتها وإحكام نفوذها .

أضواء على التغريب

هناك أضواء لا بد من إلقائها على تيار التغريب والغزو الثقافي المتدفق في وجه الاسلام والفكر الإسلامي ، والثقافة العربية . هذه الأضواء قد تضع كثيرا من النقط على الحروف وتكشف الحقيقة الخفية وراء الدعوة الى اعتناق مفاهيم الغرب .

(الضوء الأول)

يرويه الدكتور مندور عن نتيجة دراساته في أوربا عن ماذا يقول الأساتذة الغربيون للطلاب من العرب والمسلمين .

يقول قال أستاذهم : « إن مبادىء الأخلاق إن هي إلا ظواهر اجتماعية تملي على الأفراد دون أن يكون لهم دخل في بنائها ، أو فضل في الإيمان بها ، إن إرادة الإنسان الحرة التي يعتز بها . ليست إلا وهما . لأن المرء لا يملك لنفسه شيئا ، وإنما هو مسير بغرائز وقوى » .

ورجع الدكتور مندور إلى الرجل العجوز صاحب المنزل الذي يقطن فيه ، ليعيد عليه ما سمعه وهو يستغربه .

قال له الرجل العجوز : « هل تظن أن هذه الآراء التي سمعتها من الاساتذة في علم الاجتماع وعلم النفس صحيحة ؟ أتظن أن حقائقنا البشرية من اليسير بحيث تصبح نظريات أو يكشف عنها التفكير المجرد ؟ . يا بني : إن التفكير الأوربي يمثله ذلك النفر من اليهود الذين يزعمون أنهم اكتشفوا قوانين

الإنسان عند ما زعم (دور كايم ، وليفى بريل ، وموسى ، وفوكيه ومن تبعهم) أن الإنسان حكمه حكم المادة ، وأن هناك ما يسميه هؤلاء وعيا اجتماعيا تتمخض عنه الحياة العامة ، كما يتمخض الناتج الكيماوي عن مزيج من العناصر . احذر يا بني أن توقن بما يقولون ، فليس صحيحا أن الرجل المهذب لا يستطيع أن يصل إلى قيادة شخصية يهتدي بها إلى مواضع الخير والشر والبطولة والخسة بنفسه ، كما تهتدي الطيور الى أوكارها .

وليس صحيحا أن قواعد الأخلاق ليست إلا ظواهر اجتماعية لا نستطيع في علاجها شيئا ، وكل ما يجب علينا عمله هو أن نرصدها كما يفعلون لنستخرج منها قواعد عامة .

هذا يا بني وهم ، بل خداع مبطلين .

ثم ذكر أننا في مجال المعرفة بالإنسان ، ليس الا هدف واحد هو : أن نصبح خيرا مما نحن. أنا أفهم أن نكشف عن قوانين المادة لنسيطر بها ونسخرها في مرافق حياتنا . ولكن الإنسان ما شأنه بالقوانين ، من قال إن الإنسان مادة فحسب ، وهب أنه مادة ، وأن الروح لم يكن لها وجود وأن تفنى بفناء المادة ، كما تنعدم النغمات ، أليس من الخير ، بل من الواجب على الانسانية أن ترفض علما كهذا . لن ينتهي الا بتحطيم حياتنا وشل إرادتنا .

هذا ما أورده الدكتور محمد مندور عن تجربته في التعليم الأوربي (راجعه بالنص في مجلة الرسالة ، مجلد ١٩٤٤ ص ٨٨٣)

(الضوء الثاني)

ما أورده الدكتور منصور فهمي عن تجربته في أثناء بعثته التعليمية في أوربا عند ما أغراه (ليفي بريل) الأستاذ اليهودي المشرف على الأطروحة في أن يكتب عن (حالة المرأة في الإسلام) ويعرض من وجهة نظر الغزو الثقافي عن زوجات الرسول .

يقول في اعترافه في أواخر حياته . « الشكوك الدينية قد عرضت لي في عهود الشباب . أثناء إقامتي في أوربا لطلب العلم ، وقد نشأت هذه الشكوك نتيجة التفكير وطلب الحقيقة ، ولم تكن ـ علم الله ـ عن تصنع أو هوى أو نزق ، ولم تكن على الطريقة التي يتظاهر بها بعض الأدعياء . حينا يريدون أن يتخذوا سمت الفلاسفة أو العباقرة من المفكرين والباحثين ، فيظنوا خطأ أن ذلك يستلزم الظهور بمظهر الشك والحيرة والطعن على المقررات والمعارضة للمألوف (يقصد بعض زملائه في البعثة التعليمية) . وأحمد الله . فإن هذه الشكوك التي حيرتني وأضنتني حينا من الزمان ـ حيث استمرت قرابة ثلاثة أعوام ـ كانت وسيلة إلى الاطمئنان ، ومفتاحا لقوة الإيمان ، وقنطرة إلى ثبات اليقين ، فقد انتهيت من شكي الديني ، وحيرتي الروحية إلى نتيجة حاسمة واضحة هي :

« أن القيم الرفيعة ، والأصول الأولى التي صقلتها الأزمان وارتقتها الأديان . هي أولى الأمور وأحقها بأن تكون الدعائم القوية التي نعتمد عليها في مسالكنا خلال الحياة .

هذه الأضواء تكشف مدى خطر التماس النظريات الغربية المادية دون أن يكون هناك سناد من التربية الدينية الحقة ، أو فهم الإسلام فهما صحيحا ، ليكون عاصما لنا من الخلط بين وجهة ووجهة ، وجهة قوامها الاسلام والتوحيد ، وهدى الوحي والنبوة ، وسلامة الإنسان ، وحماية نفسه وجسده وروحه من الانهيار . وبين وجهة أخرى تعتمد أساسا على نظرية يونانية إغريقية وثنية مضطربة . وهنا يجيء دور الضوء الثالث الذي نقدمه في ظل التأمل الواعي .

(الضوء الثالث)

الفيلسوف اليوناني (سقراط) هو الذي استطاع أن يترك ظله العميق العنيف على كل الحضارة الغربية . فقد كان سقراط رجلا دميا ، ولم يكن رجلا بالمعنى الحقيقي . وقد استولى الشذوذ الجنيسي على الحضارة الإغريقية كلها مئات السنين ، ولم يكن يستنكره أحد . واستطاع « سقراط » بذكاء وخبث أن يفرض

احتقار الجسد الإنساني ، سواء جسد الرجل أم جسد المرأة ، واحتقار كل ما هو حسي . ولأن سقراط كان يرى أن المرأة هي حس فقط . وجنس فقط . فقد استبعدها من دنيا الحياة العقلية . ورأى أن المرأة والجسد والحس شرور يجب أن يتخلص منها الإنسان ، ووراء (سقراط) . وتحت تأثيره الهائل سادت الفلسفة والآداب والمسيحية الغربية أيضا حتى يومنا هذا[1] .

هذه الأضواء الثلاثة تستطيع أن تكون خطا صريحا واضحا للباحث ، لكي يقف من قضايا العصر موقف اليقظة إزاء وجهتي النظر المختلفة والمتباينة بين رأي الإسلام ، ورأى الفلسفة الغربية في الإنسان والنفس والأخلاق جميعا .

---

(١) بالنص من كتابات الأستاذ أنيس منصور

قضايا العصر

القضية الأولى
الإسلام والعلم

إن أخطر ما توجهه النظريات الفلسفية إلى العصر : النظرة المادية ،وإلغاء ما غير المحسوس ، ومهاجمة الغيب ، ووصف النظرة الدينية عامة بأنها نظرة غيبية أو سلفية تتعارض مع التقدم والتحرر والحضارة . وتتشكل حول هذا المفهوم نظريات متعددة معروفة بأسمائها وأصحابها ، وكلها سواء أكانت نفسية أم اجتماعية تقيم أرضيتها على أساس :

١ ـ إنكار الدين بصفة عامة .

٢ ـ إنكار الغيب .

٣ ـ إنكار الله الحق .

٤ ـ اعتبار أن العالم مادي سرمدي . خلق نفسه .

والواقع أن هذه النظرية كانت أول الأمر من فرضيات العلم في القرن الثامن عشر ، والقرن التاسع عشر الميلاديين . وقد كانا كذلك نتيجة لتحد خطير واجه العلم في أوربا هو معارضة حملة الدين له ، والتعصب ضده ، وقتل أعلامه .

ومن هنا نشأ ذلك الخلاف الحاد بين العلم والدين ، أو في الحقيقة بين رجال العلم ورجال الدين .

وقد مضى العلم في طريقه فحقق كثيرا من النتائج ، ومـا يزال يمضي في

طريقه ، ونتائجه الأخيرة التي نراها الآن ، ونقرأها . وخاصة بعد انفلاق الذرة تكشف عن تحول خطير ، واختلاف واضح عن النظرة القديمة ، فقد تقارب العلم الآن مع مفاهيم الدين الصحيح ، وخاصة في الاعتراف .

١ ـ بعالم الغيب .

٢ ـ بوجود قوة مسيطرة تدير الكون .

٣ ـ بأولية ونهاية هذا العالم المادي .

ولا شك أن هذه النتائج التي وصل إليها العلم قد كسرت ذلك القيد الذي سيطر طويلا على العلاقة بين الدين الصحيح والعلم .

أما حملة ألوية النظرة المادية الآن ، فليسوا هم العلماء ، ولكنهم بعض الفلاسفة . ولم تعد النظرة المادية نظرة علمية . بل هي نظرية فلسفية ، تلبس ثوبا علميا . ومن ورائها قوى كثيرة تحركها وتدفعها . وأهداف بعيدة المدى ترمي من ورائها إلى السيطرة ، وتوطيد النفوذ الاستعماري والسياسي . وليس الخطر في النظرية الفلسفية نفسها . ولكن الخطر في النفوذ الاستعماري الذي يروج لها . ذلك لأن كل نظرية تستطيع أن تثبت بقدر ما تحمل من عناصر البقاء ، وهي تسقط إذا لم تكن مطابقة لأصول العلم والفطرة الإنسانية .

ولكن هذه النظريات التي تروج رواجا كبيرا حول العقائد والنفس الإنسانية ، والوجود الفردي . إنما هي نظريات سقطت في البيئات التي ظهرت فيها ، وهي منبثقة منها أساسا ، وفي ضوء تحديات تلك المجتمعات ، وكان سقوطها عن طريق العلماء والفلاسفة الذين صححوا اتجاهها ، وعدلوا من غلوائها .

ولكن القوى التي تحمل لواء التخريب والاستعمار قد حجبت تلك النظريات المصححة ، وأعلن هذه النظريات المضطربة ، ورتبت لها شهرة زائعة ، وانتشارا فائتا عن طريق قدراتها الإعلامية في ميادين النشر وقواها ودعاتها في كل مكان .

ونحن نعرف أن خطر نظرية (دارون) ليس فيما قاله (دارون) ولكن فيما

قاله (سبنسر) وغيره ممن حولوا نظريته التي قصرها على ميدان الأحياء والأجناس إلى نظرية اجتماعية وسياسية عامة . وكذلك ليس الخطر فيما قاله (فرويد) فإن زملاءه (أدلر - يونج) عارضوه في نظرية إلى الجنس ، وعدلوا نظرية التحليل النفسي تعديلا مقاربا لأصول الأشياء ولكن سقطت هذه الآراء وذاعت آراء (فرويد) وحدها ، وسيطرت على الأدب والاجتماع جميعا .

ويبدو ذلك واضحا من مراجعة سريعة لبروتوكولات حكماء صهيون حيث تقول الفقرة : « نحن الذين رتبنا»

إذن فهناك عوامل أخرى وراء النظرية الفلسفية المحضة التي قد تسقط علميا إذا ما انكشف أنها لم تحقق نتيجة صحيحة ، أو تصدر عن تقدير مضبوط .

وهذه النظريات الفلسفية هي أشبه بالأزياء في تحولها وتغيرها وتجددها خضوعا للعصور والبيئات واختلافا مع القائلين بها وتحدياتهم النفسية والاجتماعية .

ومن هنا وجبت ضرورة التفريق بين العلم والفلسفة . فالعلم هو الحقائق المعملية الثابتة ، والفلسفة هي الفرضيات العقلية في مجال النفس والمجتمع .

وقد تقرر في نظر العلماء والباحثين منذ وقت بعيد أن العلم هو مجموعة المعارف المتعلقة بالفيزياء والكيمياء والإحياء ، وهي العلوم الطبيعية .

أما الدراسات التي تجري في الحقول الإنسانية والبشرية كالاجتماع والسياسة والتاريخ والنفس والتربية ، فهي علوم فلسفية من حيث أنها تخضع لأسلوب علمي ، ولكنها وهي تتصل بالنفس الإنسانية التي لا تقاس بمقاييس المادة ، ولا تخضع للأنابيق وأنابيب الاختبار . ذلك أن النفس الإنسانية شيء قائم بذاته لا يدرس دراسة معملية ، ولكنه يدرس من نواحي أخرى تكشف عن ظواهره في بيئته وفي عصره ، ولا تستطيع هذه الدراسة أن تنطبق على بيئة أخرى أو عصر آخر ، وأن الإنسان ليس كالحيوان الذي تجرى عليه التجارب . وأن هذه التجارب لا تنطبق تماما على الإنسان الذي يمتاز بين الكائنات البشرية بالعقل والإرادة .

وأن وضع الإنسان تحت مختبرات معملية محددة ، هي مسألة عسيرة كل

العسر ، ولا تستطيع أن تحقق نتائج مضبوطة أو صحيحة .

ولذلك فقد أكد العلماء بأن دراسة سلوك الإنسان ونشاطه . هي من الأمور العسيرة التي لا تخضع للمختبرات العلمية ، وأن ما يمكن الوصول إليه منها سيظل عاملا مساعدا لإلقاء الضوء أو التوضيح . ولكنه لا يستطيع بالحق أن يقرر حقيقة ما تقريرا علميا ، كما تقرره الأنابيق بالنسبة للمختبرات المادية . وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان والمادة .

أجمع العلماء في شبه رأي موحد على أن العالم لا يستطيع أن يقوم بمهمة تفسير ظواهر الأشياء وتعليلها . ولكنه يقتصر على وصفها وتقريرها ، فمهمة العلم قاصرة حتى الآن على وصف ظواهر الأشياء . وقد كان العلم في أذهان الأوائل ، إنما يراد به تفسير الوجود .وكان العلماء في أول النهضة يهتمون بمعرفة (لماذا) . ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تين لهم عبث هذه المحاولات ، وعقم نتائجها ، فقد ترك العلم للفلسفة مهمة بحث العلل النهائية للوجود . بعد أن عجز في هذا المضمار، ولم يسفر بحثه عن شيء . والعلم لا يفسر شيئا ، وإنما يربط وينسق ويلاحظ ملاحظة منهجية . وبالتالي يضف ويقرر . وليس هذا فهما للأشياء ، ولكنه تعرف عليها ، ويقرر العلماء أن المعرفة العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة وأعمال البشر وعلاقاتهم التي يمكن استخدام المشاهدة ، والتجربة لاكتشاف قوانينها . والعلم يعترف بأن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك شيئا إلا عن طريق الحواس . ولذلك فكل ما يقع وراء الحس أو العقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه ، أو يعرف عنه شيئا .

وليست حقائق العلم مطلقة وأبدية . بل هي تقرر الحقيقة النسبية ، والبحث العلمي صراع لا ينتهي بين الإنسان والطبيعة ، فكلما ازداد الإنسان معرفة لقوانين الطبيعة ازدادت سيطرته عليها وما يزال العلما يتساءلون : هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة . لقد قطع أشواطا طويلة خلال ثلاثمائة سنة ، فهل استطاع التوصل إلى الحقيقة ؟

ويكون الجواب : أن العلم حتى الآن رغم تقدمه في ميادين مختلفة قد عجز عن حل المشاكل الكبرى المتمثلة في أصل الكون ونهايته وطبيعة المادة ، ومنشأ

الحياة وخلود الروح .

يقول : (ماتين ستانلي كونجدن) : إن نتائج العلوم تبدأ بالاحتمالات ، وتنتهي بالاحتمالات ، وليس باليقين ، ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، عرضة للأخطاء في القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل بالاضافة والحذف ، وليست نهائية . وقد اضطر العلم منذ أجيال أن يترك البحث في كنه الأشياء بعد أن تبين له أنه لا سبيل إلى معرفة الكنه المغيب عن الحواس ، واكتفى بدراسة ظواهرها .

ولا شك أن اتخاذ المادية الصرفة أساسا للعلم وانفصالها عن عالم الغيب قد كشف عن عجز العلم عن فهم كنه الأشياء .

ويقول (رسل تشالز أرنست) : إن كل الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية . قد باءت بفشل وخذلان ذريعين ، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية .

غير أن انفلاق الذرة قد خلق عصرا جديدا في العلوم لا شك أنه مؤشر واضح إلى اتجاه جديد . يقول العلامة هايدين في كتابه « المادية » : « ماتت النظرية المادية بالنظرية القائلة بأن الذرات مركبة من الكهرباء وبروتونات موجبة ، وألكترونات سالبه ، وطغت عليه نظرية (الكوانتوم) التي تقول : إن الكهربائية تجيء شحناتها من المجهول ، وتذهب إلى المجهول . ومن هنا لم يستطيع المذهب المادي الإجابة على هذا السؤال ؟ .

قال هايدين معلقا : « إن الحقيقة التي طفق الإنسان يبحث عنها دهورا عديدة . هي روحانية في وجودها . والروح لا يدركها العقل » .

وتحد آخر واجه « العلم » : هو غلبة تيار التكنيك - والتكنيك هو المنطق الآلي للعلوم - هذا التحدي هو أن يصبح التكنيك سيد العلم وسيد العقل البشري . ويكون الإنسان عبده الخاضع له بدلا من أن يكون سيده المسيطر عليه .

ويقول الباحثون : « إن العلم قد انحرف عن سبيله . فقد أصبح سيد الإنسان بعد أن كان الإنسان صانعه وخالقه ، فكما أن جسم الإنسان يفقد خصائصه كإنسان حي . إذا فقد الحياة النابعة من عقله ، وقلبه . كذلك التكنيك يفقد خصائصه المنتجة إذا أضحى هو سيد العلم بدلا من أن يكون العلم سيده .

(٣)

ونسمع اليوم أصوات العلماء تتعالى بما يدحض النظرية المادية ، أو على الأقل يثير الشبهات القوية حولها كمقدمة لانهيارها في المستقبل القريب .

فهؤلاء العلماء يكشفون اليوم حقائق جديدة ، ويعلنون أن قوانين (الديناميكا الحرارية) قد أخذت تدلهم على أن لهذا الكون بداية ، وأنه إذا كان للكون بداية ، فلا بد له من مبدىء من صفاته العقل والإرادة واللانهاية .

ويقولون : إن هذا الخالق لا بد أن يكون من طبيعة تخالف طبيعة المادة التي تتكون من ذرات تتآلف بدورها في شحنات أو طاقات لا يمكن بحكم العلم أن تكون أبدية أو أزلية[1] .

وعلى ذلك فلا بد أن يكون هذا الخالق غير مادي ، وغير كثيف . ولا بد أن يكون لطيفا متناهيا في اللطف ، خبيرا لا نهاية لخبرته . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار .

ويقول هؤلاء العلماء : فإذا كنا نريد أن نصل إليه (أي إلى الله) فسبيلنا إلى ذلك لا يكون بحواسنا التي لا تستطيع أن ترى إلا الماديات الكثيفة ، وإذا كنا نريد أن نلمس وجوده . فإن ذلك لا يمكن نأن يتم داخل المعامل أو أنابيب الاختبار ، أو باستعمال المناظير المقربة أو المكبرة ، وإنما باستخدام العنصر غير المادي فينا ، كالعقل والبصيرة .

إن فروع العلم كافة تثبت أن هناك نظاما معجزا يسود هذا الكون ، أساسه القوانين والسنن الكونية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ، والتي يعمل العلماء

(١) راجع كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) وكتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) .

جاهدين على كشفها . والإحاطة بها . وقد بلغت كشوفنا من الدقة قدرا يمكننا من التنبؤ بالكسوف والخسوف وغيرها من الظواهر قبل وقوعها بمئات السنين .

والسؤال هو : من الذي وضع هذا النظام ، وسن هذه القوانين ، وأقام هذه السنن الكونية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل .

ويوجه العلماء هذا السؤال ، ويجيبون عليه !

هل نشأ الكون مصادفة ؟

إن العلماء يشرحون معنى المصادفة ويشيرون إلى استخدام الرياضة وقوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر . لقد حسب العلماء احتمال اجتماع الذرات التي يتكون منها جزيء واحد من الاحماض الأمينية (وهي المادة الأولية التي تدخل في بناء البروتينات واللحوم) فوجدوا أن ذلك يحتاج إلى بلايين عديدة من السنين ، وإلى مادة لا يتسع لها هذا الكون المترامي الأطراف ، هذا لتركيب (جزيء واحد) على ضآلته . فما بالك بأجسام الكائنات الحية جميعا من نبات وحيوان . وما بالك بما لا يحصى من المركبات المعقدة الأخرى . وما بالك بنشأة الحياة وبملكوت السموات والأرض . وكانت الإجابة هي : أنه يستحيل عقلا أن يكون ذلك قد تم عن طريق المصادفة العمياء أو الخطبة العشواء . لا بد لكل ذلك من خالق مبدع خبير ، أحاط بكل شيء علما ، وقدر كل شيء ثم هدى ويقول العلماء : إن الإنسان لا يستطيع أن يدرس أعمال أي صانع من الصناع دون أن يحيط بقدر من المعلومات عن الصانع الذي أبدع تلك الأعمال .

وكذلك نجد أننا كلما تعمقنا في دراسة أسرار هذا الكون وسكانه ازددنا معرفة بطبيعة الخالق الأعلى الذي أبدعه .

ويقول العلماء : إن الأرض والسموات بسائر تعقيداتها ، والحياة في شتى صورها . وأخيرا الإنسان بكل قدراته العليا . كل ذلك أشد تعقيدا من أن يتصور الانسان أنه حدث هذا وبمحض الصدفة ، فلا بد إذن من عقل مسيطر ، ومن إله خالق وراء كل ذلك[1] .

---

(١) مالكولم دنكان وينتر .

ويؤكد العلماء نظرية الإسلام في أن المعرفة تتم بواسطة العقل والقلب يقول : (روبرت هورتون كاميرون) : إن الإنسان يحصل على العلم بطريقين : البصر والبصيرة .

أما البصر : فهو ما نتعلمه في حياتنا ، وما نكتبه عن طريق حواسنا من الخبرة بأمور الحياة .

وأما البصيرة : فهي ذلك النور الذي يفرغه الله في قلوبنا ، فيكشف لنا ما لا نعلم .

وكذلك الحال فيما يتصل بالإيمان بوجود الله ، إذ لا بد أن يقوم أولا على البصر وملاحظة ظواهر الحياة : الفكر والانفعالات ، والتمييز الخلقي ، وحرية الإرادة ، ثم تلتجىء بعد ذلك إلى الله لكي يكمل إيماننا ويدعمه .

ويقول العالم الكيمائي (واين أولت) : إن الله كما نعرفه ليس « مادة » أو طاقة كما أنه ليس محدودا حتى نستطيع أن نخضعه لحكم التجربة والعقل المحدود . بل على نقيض ذلك نجد التصديق بوجود الله يقوم على أساس (الإيمان » وهو إيمان يستمد تأييدا علميا من الدلائل غير المباشرة التي تشير إلى وجود (سبب أول) أو إلى «دافع مستمر» منذ القدم.

« إن الايمان بالله يعد لازما لاكتمال وجود الإنسان وتمام فلسفته في الحياة » ولا شك أن الاعتقاد بوجود إله خالق لكل الأشياء يعطينا تفسيرا بسيطا سليما واضحا في النشأة والإبداع والغرض والحكمة ، ويساعدنا على تفسير جميع ما يحدث من الظواهر .

« أما النظريات » التي ترمي إلى تفسير الكون تفسيرا آليا فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ، ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض « المصادفة » .

فالمصادفة هنا فكرة يستعان بها عن فكرة « وجود الله » بقصد إكمال الصورة ، والبعد بها عن التشويه . ولكن فكرة (وجود الله) أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة الصدفة . ولا شك . بل إن ذلك النظام البديع الذي يسود

الكون يدل دلالة حتمية على وجود « إله » منظم . وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط .

وعلى ذلك فالمشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه أن يسلم تسليما منطقيا بوجود عقل مبدع لا حدود لعلمه ولا لقدرته ، موجود في كل مكان ، يحيط مخلوقاته برعايته سواء في ذلك الكون المتسع ، أو كل ذرة أو جزئية من جزئيات هذا الكون اللانهائية في تفاصيلها الدقيقة .

هناك ظواهر عديدة لا يمكن تفسيرها أو إدراك معناها . إلا إذا سلمنا بوجود الله . ومن ذلك مثلا : « الفراغ اللانهائي » وما يسبح فيه من النجوم والكواكب التي لا يحصيها عد ولا حصر . ومن ذلك أيضا : « قابلية المادة » للانقسام إلى جزئيات أساسية بالغة الصغر مهما كانت طبيعتها . ومن ذلك : التشابه الذي نشاهده بين جميع الكائنات الحية التي نعرفها مع اتصاف كل فرد . بل كل نبات . بل كل ورقة من أوراق الأشجار ، وقطرة من قطرات الماء بصفات تميزها عن غيرها .

وهناك أيضا تلك الهوة العميقة التي تفصل بين الإنسان وبين سائر الكائنات الأرضية الأخرى ، وتجعله ممتازا عليها بعقله ومهارتها اليدوية . وذلك هو الإيمان البصير الذي يقوم على العقل والتدبر .

***

وفي موضوع « الإله » يقول العلماء التجريبيون القادمون من داخل المعامل وأنابيب الاختبار : « إن الإله الذي نسلم بوجوده لا ينتمي إلى عالم الماديات ، ولا تستطيع حواسنا المحدودة أن تدركه ، وعلى ذلك فمن العبث أن نحاول إثبات وجوده باستخدام العلوم الطبيعية ، لأنه يشغل دائرة غير دائرتها المحدودة الضيقة .

لا بد لنا أن نسلم هذا الكون المادي الذي يخضع لقيود الزمان والمكان ليس إلا جزءا يسيرا من الحقيقة الكبرى التي ينطوي عليها هذا الوجود[1] .

(١) روبرت موريس برج .

وإذا كان هذا العالم المادي عاجزا عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التي يخضع لها . فلا بد أن يكون الخلق قديم بقدرة كائن غير مادي .

وعلى ذلك فالنتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل لا بد أن يكون هذا الخالق عليما حكيما ، قادرا على كل شيء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته في كل مكان[1] .

***

هذه الآراء التي يقدمها العلماء لا نثبتها هنا لنؤكد حقيقة غائبة ، ولكن لكي نفهم كيف يتطور العلم اليوم ، فيصل إلى الحقائق الأصيلة التي جاء بها الإسلام من عند الله ، ولنؤكد أن النظرية المادية التي تحاول اليوم أن تنشر سمومها في كل مكان لا صلة لها بالعلم ، ولكنها فلسفة وهي أيضا نظرية ، وليست حقيقة علمية .

يقول (ادوار لوثركيل) وهو من الباحثين اللياويين الأعمدة : إن العلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا ، فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة ، فترتد في الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة . ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام ، وينضب فيها معين «الطاقة» ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيموية أو طبيعية ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون . ولما كانت الحياة لا تزال قائمة، ولا تزال العمليات الكيموية الطبيعية تسير في طريقها. فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون «أزليا» وإلا استهلكت طاقته منذ زمن بعيد، وتوقف كل نشاط في الوجود.

هكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية . وهي بذلك تثبت وجود الله . لأن ماله بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ، ولا بد له من مبدىء ، أو من محرك ، أو من خالق ، وهو الإله .

---

(١) جون كليفلان كوثران

« والواقع أن هذا الكون لا يزال في عملية انتشار مستمر » تبدأ من مركز نشأته ، واليوم لا بد لمن يؤمنون بنتائج العلوم أن يؤمنوا بفكرة « الخلق » وهي فكرة تستشرف على سنن الطبيعة . لأن هذه السنن إنما هي ثمرة الخلق ، ولا بد لهم أن يسلموا بفكرة (الخالق) الذي وضع قوانين هذا الكون . لأن هذه القوانين ذاتها مخلوقة ، وليس من المعقول أن يكون هناك خلق دون خالق هو « الله » . وما أن أوجد الله مادة هذا الكون والقوانين التي يخضع لها حتى سخرها جميعا لاستمرار عملية الخلق عن طريق التطور « التطور المادي » .

***

ويقول كريستي موريسون مؤلف كتاب « العلم يدعو للإيمان » . إن العلماء لا يقدرون أن ينفوا وجود الله . فكل واحد منهم في قرارة نفسه يشعر بقوة الإحساس أو الفكر أو الذاكرة . والآراء التي تصدر كلها عن ذلك الكيان الذي نسميه بالروح وهم جميعا يعلمون أن الإلهام لا يأتي من « المادة » وأنه ليس من حق (العلم) أن تكون له الكلمة الأخيرة بشأن وجود الخالق .

إن كون الإنسان في كل مكان . ومنذ بدء الخليقة حتى الآن قد شعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم ، يدل على أن (الدين) فطرى فيه . ويجب أن يقر العلم ذلك . ويتساءل : ما هو الكائن الحي . هل هو عبارة عن ذرات وجزئيات ؟ . ويجيب : نعم . وماذا أيضا : شيء غير ملموس ، أعلى كثيرا من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شيء ، ومختلف جدا عن كل ما هو مادي . مما صنع منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه ، وهو فيما نعلم ليست له قوانين تحكمه : إن روح الإنسان هو سيد مصيره ، ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها ، وقد أوجدت للإنسان قانونا للأخلاق لا يملكه أي حيوان آخر ، ولا يحتاج إليه .

***

من خلال هذه المقررات العلمية التجريبية يكشف العلم عن حقيقة واضحة جلية ، ويتحول عن غروره وصلفه ، ويتنكر للدعاوى التي طالما حمل لواءها

خصوم الأديان وخصوم الأمم الناهضة من أجل إثارة الشبهات في نفوس بنيها ، وتحطيم معنوياتها ، وتدمير مقومات فكرها وقيمها . إن الحقيقة التي لا شك فيها اليوم أن العلم قد تحول عن المفاهيم المادية الإلحادية ، وأن الفلسفة هي التي تحمل لواء هذه المفاهيم .

فلقد وصل العلم إلى أن الإنسان مركب من بدن ونفس ، ومن جسم وروح : البدن من عالم المادة لأنه يمتاز بالخصائص المعروفة للأجسام . أما النفس أو الروح فإنها من عالم آخر يختلف في خصائصه عن المادة .

-(٤)-

كما تحول العلم من مفهومه عن عالم الغيب ، أو الميتافيزيقا . « فقد كان الظن إلى عهد قريب أن « المادة » لا تنقسم إلى ما لانهاية . بل تقف عند حد لا يتجزأ ، هو الذي سموه (الذرة) أو (الجوهر الفرد) . ثم أثبت العلماء أخيرا : أن الذرة قابلة للتجزئة ، فبعض الذرات يتفجر من تلقاء ذاته ، مثل ذرات الراديوم واليورانيوم وغيرها . واتضح أن الذرة تتحلل إلى ثلاثة أجزاء ، أو أشعة . وبذلك انطلقت المادة الذرية وأصبحت طاقة يمكن استخدامها في أغراض الحرب والسلم[1] » هذه هي الحقيقة التي قلبت موازين الفلسفة المادية رأسا على عقب :

« إن مفهوم المادة القديم قد تغير ، وأصبحت المادة طاقة » . وبذلك سقطت تلك الحتمية التي ذهب إليها غلاة المادية في القول بأن المادة هي كل شيء ، وهي أصل العقل والشعور . وأن العقل ليس إلا إفرازا من إفرازات المخ .

لقد أصبح هناك عالم خطير غيبي لا يعرف كنهه ، ولكنهم يشيرون إليه .

ليست هناك طاقة ومادة ، وإنما هناك طاقة مجمدة تأخذ صورة المادة ، أو مادة مشعة تأخذ صورة الطاقة والانتقال من إحدى الصورتين إلى الأخرى مستمر ومتواصل ويخضع لقانون ثابت .

يقول الاستاذ أحمد حسين : « لقد مضى العلم التجريبي في سيره نحو

(١) الدكتور أحمد فؤاد الأهواني : (المذهب المادي في العصر الحاضر)

الأصول الأولى للمادة ، أو الطاقة ، فإذا هي الإشعاع . والإشعاع أحد عناصر الضوء ، فالضوء هو الأصل ، وهو نقطة ابتداء . وهكذا انتهى العلم التجريبي إلى ما انتهى إليه العلم النظري من قبله ، وإلى ما انتهى إليه الوجدان الإنساني قبلهما من وحدة القوة الكونية الخالقة .

وقد أثبت العلم أن كل ماكنا نتصوره ضدين متقابلين ليس إلا أمور نسبية بحتة بالقياس إلى الإنسان : البرودة والحرارة . اختلاف الألوان . الأشعة : الحمراء والصفراء والخضراء . دل ذلك على أن الأمر كله هو إشعاعات تدرك العين الإنسانية بعضها ، ولا تدرك البعض الآخر ، فترى ظلاماً مالا يعد في دنيا الطبيعة بظلام .

فالوجود كله مشتق من الضوء أو كما يقول القرآن : (الله نور السموات والأرض) . وهكذا تؤدي بنا الطرق إلى قيام الطبيعة على جوهر واحد ، وقوة واحدة[1] .

***

ويقول الدكتور « عماد الدين خليل » : إن « المادة » التي يرتكز عليها القانون الطبيعي قد حطمها اليوم العلم نفسه ، لم تعد العينه الصلبة من المادة هي أساس الطبيعة . لقد كشف العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي ، وعلمنا أن أساس الطبيعة هي الحركة ، وليست المادة الذرات بأشكالها المتناهية في الصفر تتحرك فتضفى الشكل المادي للأشياء . وهذه الذرات هي التي تتشكل وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي ، وهو إيماء عجيب للإنسان المعاصر يزيف هذه الثنائية التي قسمت خلق الله إلى قسمين ، وأقامت بينهما جدارا من التباعد والصمت .

إن « الحركة » بهذا المعنى الكبير ، هي أساس الوجود المادي تماما . كما هو أساس الوجود المعنوي .

***

---

(١) كتاب « الأمة الإنسانية »

وعندما يتقرر هذا المفهوم علميا . وقد تقرر . فإن ضربة قاتلة تصيب الفلسفة المادية . كما تصيب « العلمانية » وهي نصر مبين للميتافيزيقا وللغيب ولعالم ما وراء المادة .

ومن هنا تسقط الكلمة الساخرة حول « الغيبيات » وهي التي تقال في مجال اتهام الدين أو رفض مقرراته ، وخاصة فيما يتعلق بالألوهية والوحي ، وإعادة الله للخلق وللبعث والجزاء .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : « إن الغيب الذي تؤ من الأديان بوجوده من وراء الطبيعة ليس من جنس هذه المادة المادية المنفعلة . بل هو شيء ذو قوة فعالة مؤ ثرة ، وله أسلوب في تصرفاته مباين للطرائق التي تؤ ثر بها المادة فيما حولها .

القوة التي يخضع لها المتدين فإنه يفهمها على أنها قوة عاقلة تقصد ما تفعل ، وتتصرف بمحض إرادتها ومشيئتها . وهي ليست قوة منطوية على نفسها ، منعزلة عنه وعن العالم بل يرى أن لها اتصالها معنويا به وبالناس تسمع نجواهم ، وتعنى بآلامهم وآمالهم ، وتكشف عنهم الضر .

القوة التي يقدسها المتدين ليست فكرة مجردة ، وصورة عقلية محضة . بل هي حقيقة خارجية ، هذه الحقيقة ليست مادة يقوم عليها الحس ، بل هي سر غيبي لا تدركه الأبصار .

هذه القوة الغيبية : قوة عاملة تتصرف بالإرادة لا بالضرورة كالمغناطيس والكهرباء ، ولها عناية مستمرة بشؤ ون العالم الذي تدبره ، وأن لها تجاوبا نفسيا مع نفوسه .

والمتدين يرى وراء كل حس معنى ، ويلتمس تحت كل ظاهر باطنا . ويضع في مبدأ كل فعل فاعلا ، معتقدا أنه لا يقع في الكون شيء من دقيق الحوادث وجليلها إلا والله فيه قضاء وتدبير . والدين هو الاعتقاد بوجود « ذات غيبية علوية » لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير ، للشؤ ون التي تعنى الإنسان ، وهو اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية رغبة ورهبة في خضوع وتمجيد وهو الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة .

ويقـول : إن مطلـب الألـوهية مطلـب توافـرت عليه الفلسفـات والنبوات . وإن دلائله البرهانية ماثلة في الأنفس وفي الآفاق . وإن بواعثه النفسية مركوزة في العقول وفي الوجدانات . وإنما اختلف الناس في الاستنباط والاقتناع ، فهناك من استمد إيمانه من مشاهد الطبيعية ، وتجارب عالـم الـروح . إن آيات الألوهية مبثوثة في كل مكان . وإن وسائل الناس إلى معرفتها مختلفة[1] .

***

ومن الحق أن يلتمس النـاس مفهـوم « الله » سبحانـه وتعـالى من القـرآن الكريم ، بعيدا عن الخوض في النظريات الفلسفية والأساليب المنـطقية ، ومـن خلال نظرة عميقة نجد أن العقيدة في « الله » سبحانه وتعالى في الاسلام .

١ ـ الاعتقاد بوجوده الواجب لذاته غير المستمد من سواه ووصفه ـ جـل وعـلا ـ بصفات الكمال كلها نتيجة للنظر في هذا الكون .

٢ ـ نفى صفات المشابهة والنقص عن الخالق ـ سبحانه ـ فالتجسم منفى عنه . لأن المادة تتحول ، والخالق بعيد عن وصف التحـول والتعـدد منفـى عنـه لأنـه تركيب . والإله ، لا بد أن يكون واحدا ، والأبوة والبنوة بعيدان عن صفاته ، لأنهما تجزئة وانفصال . والخالق لا يتجزأ .

٣ ـ عدم التعرض للحقيقـة والماهية في الـذات أو الصفـات من حيث هما ، مع الاحتراس الدقيق بتقرير المخالفة التامة بين ماهية ذات الإله وصفاته ، وما هية المخلوقات وصفاتهم . يقول القرآن الكريم في سورة الأنعام : « ذلـكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير[2] » .

وفي الحديث : « تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا[3] » .

---

(١) « الدين » كتاب بقلم الدكتور محمد عبد الله دراز .

(٢) سورة الأنعام آية (١٠٢ و ١٠٣) .

(٣) أبو نعيم في « الحلية » والأصبهاني في « الترغيب والترهيب »

ومن البديهي أن هذا الموقف لا يؤخذ على الاسلام في شيء ، ولا يقال إنه حجر على العقول أو انتقص من حرية الفكر ، فالعقل البشري وهو عماد العقيدة في الإسلام يقف إلى الآن موقف العجز المطلق أمام حقائق الأشياء جميعا . وكل الذي وصل إليه ، إنما هو الخواص وبعض الصفات والآثار .

أما البسائط المجردة فلم يصل إلى حقيقتها بعد .

وما كان الإسلام ليكلف الناس ما لا تستطيع أن تدركه العقول والأفهام .

٤ ـ رسم الطريق الى معرفة صفات الخالق ، وإدراك كمالات الألوهية ، ومميزاتها وآثارها ؟ . والوصول إلى ذلك عن طريق النظر في الكون نظرا صحيحا ، وتحرير العقول والأفكار من الموروثات والأهواء والأغراض حتى تصل إلى الحكم الصائب .

والقرآن الكريم بحث دائما على النظر في المكونات والتأمل في المخلوقات ، ويرفع من قيمة العقل ، ويعلي من قدر الفكر حتى لقد ذكر العقل في أكثر من أربعين موضعا في القرآن الكريم مقرونا بالتبجيل والتكريم . والحث على الجد إلى إدراك الحقائق وكشف مستورات الوجود .

٥ ـ تقوية الصلة بين الوجداني الإنساني ، والخالق جل وعلا حتى يصل الإنسان بذلك إلى نوع من المعرفة الروحية هو أعذب وأصدق أنواع المعرفة جميعا . وذلك أن الوجدان الإنساني أقدم على كشف المستورات غير المادية من الفكر المحدود بقيود المادة ، ونتائج الأقيسة الحية .

٦ ـ مطالبة المؤمنين بأن تظهر في أقوالهم وأفعالهم آثار هذه العناصر العقدية . فالمؤمن متى اعتقد أن خالقه قادر كانت النتيجة العملية لهذه العقيدة أن يتوكل عليه ، وأن يلجأ اليه . إذا اعتقد أنه عالم راقبه واستولت عليه خشيته ، وإذا اعتقد أنه واحد لم يدع سواه . ولم يسأل غيره ، ولم يعرف وجهة إلا إليه[1] .

---

(١) عن إمام كبير .

لقد حرص الإسلام أن يؤكد هذا المنهج الذي يقوم على « التفكير في خلق الله لا في ذات الله » . فقد رسم القرآن الكريم : ميتافيزيقا كاملة للمسلمين لم يعودوا بعدها في حاجة إلى شيء في هذا المجال . فقد قررت هذه الميتافيزيقا القرآنية : أن الله ذات وصفات ، وأنه خلق هذا العالم من لا شيء ، وبعد أن لم يكن خلقه من العدم ، والله هو الخالق لكل ما يجري في العالم من تغييرات . ويمكنه أن يعدمه كليا أو جزئيا . وهو مصدر النعم وهو الرحمن الرحيم ، وأن البعث حق ، والبعث هو بعث الأجساد ، والأرواح معا . وأن الأحجار والنباتات والكواكب والحيوانات والإنسان لا تستحق العبادة . وما من إنسان يصح أن يعبد . (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) .

ويؤكد النبي محمد نفسه وهو خاتم المرسلين أنه ليس إلا بشر مثلكم ، وإنما الإله الحق هو خالق الإنسان وخالق العالم كله ، وإن الله بهذا المعنى ، معنى أنه مؤلف هذا الكون وحافظه ومدبر شؤونه ، وأنه مستغن بذاته عن كل ما عداه ، هو أرقى مفهوم عرفته البشرية للإله الواحد .

وهذه النظرة القرآنية الانسانية تدحض كل النظريات الفلسفية الوثنية واليونانية والمجوسية والمحدثة التي تحاول أن تصور الله في صور مضطربة بعيدة عن الحق ، وبهذا يدحض المفهوم الإسلامي نظريات : التعدد ، وإله الخير وإله الشر ، وعبادة الأبطال وأنصاف الآلهة ، وعبادة العقل ، وعبادة القوة ، وعبادة الجمال ، ونظرية الإله اليوناني الجبار المرعب ، والإله الذي توهمه « أرسطو[١] » الذي لا يعلم الجزئيات ، ونظرية وحدة الخالق بالوجود ، ونظرية قدم العالم ، وعشرات من النظريات الفلسفية الضالة التي عرفتها الأمم والشعوب .

فالله هو خالق الأسباب والعلل ، ومقدر سنن الكون والطبيعة وقوانينها : « فهو القوة الخالقة المبدعة ، القوة الخالقة للأشياء والأسباب ، والمقدرة لهذه الأسباب ، أو لهذه السنن المطردة ، والقوانين المنتظمة » فالسبب أو القانون نفسه

(١) الله عند أرسطو هو المحرك الذي لا يتحرك . عقل محض (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)

ليس قوة عاقلة مدركة خالقة مبدعة ، بل هو نفسه جزء من نظام شامل لعدد لا يحصى من الأسباب والسنن والقوانين .

ولذلك لم يكن في العقلية الإسلامية تعارض بين العلم المبنى على البحث في سنن الكون وأسبابه . والإيمان بالله . بل هناك ارتباط وثيق بين الكون وما فيه من سنن منتظمة من جهة ، والله المحيط بها كلها ، والخالق لها من جهة أخرى .

والله في العقيدة الإسلامية يتصف بالقدرة والحياة والعلم . لأن نتائج خلقه وصنعه تدل على أنه خلق يصدر عن عالم بما يخلق (ألا يعلم من خلق) محيط بالكون الذي خلقه ، مدرك لما فيه من سنن .

أما إله الفلاسفة فهو علة نهائية (أو قوة كامنة) غير عاقلة ، ولا مدركة افترضوا وجودها في الأشياء وهي نفسها في حاجة إلى تفسير وتعليل ما دامت غير محيطة ولا مدركة ولا واعية . والله في العقيدة الإسلامية بالنسبة إلى الكون (خالق) لأصل وجوده ومقدر لسننه ونظامه (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) وما دام هو الخالق له ، فهو المالك له ، والمتصرف به ، والقادر على توسيعه وزيادته ، وعلى إبادته وإفنائه ، وما دام هو الموجد لسننه وقوانينه فهو كذلك الحاكم ببقائه كذلك ، واستمراره ، والقادر على إلغائه وتبديله (له الخلق والأمر) .

فكل خصائص الكائنات وجميع سنن الكون ونواميه وقانينه ليست إلا مخلوقة مقدرة . والله مسيطر عليها . وليس هو جزءا منها ، وليس هو سببا من جملة الأسباب ، ولا علة من العلل . فالأسباب والعلل ، والقوانين والنواميس كلها مخلوقة خاضعة ، فهي من خلقه وتقديره .

والكون منتظم لا فوضى ، ولكن انتظامه مرتبط بإرادة الله وقدرته ، واستمرار هذا النظام منوط كذلك بمشيئته العليا .

إن كل تعليل لحوادث الطبيعة بقانونها تعليل ناقص . لأن القانون واقع يحتاج الى تعليل ، وليس القانون موجدا للحادثة من العدم . وكل افتراض لقوة كامنة أو خفية إن صح فهو ناقص يحتاج إلى تعليل هذه القوة الكامنة غير الواعية ولا العاقلة .

ولذلك كان الإيمان بالله الخالق متمما ومكملا لنظرتنا إلى الكون والطبيعة وما فيها من حركة وتطور . ومن سنن وقوانين ، فهي محتاجة إلى وجوده ، مفتقرة إلى استمرار إمداده وعنايته مؤتمرة في مسيرها وكيانها بأمره . فالكون كله بمادته وسننه منقاد لمشيئته وهو ملك له ، وعليه انبسط سلطانه[1] .

***

ومن هنا يتبين أن « التوحيد » حقيقة فطرية لا سبيل إلى تجاوزها بالتعدد أو بالإنكار .

والعقيدة في الله عنصر ثابت في النفس البشرية ، قائم في صميم الفطرة يهدي البشرية إلى خالقها . هذه العقيدة لم تتطور كما يزعم أصحاب المذاهب الفلسفية من عبادة الآب وعبادة الطوطم وعبادة الوثن إلى التوحيد . وإنما العكس هو الذي كان في الحقيقة . فقد بدأ العالم موحدا . وبدأ الإنسان موحدا ثم انحرف عن العقيدة الصحيحة وليس صحيحا في وقائع التاريخ أنه مرت على البشرية مجموعة من العقائد الوثنية انتهت الى التوحيد . وإنما الثابت من التاريخ أن البشرية مرت في دورات متوالية من الأيمان والإلحاد والتوحيد ، والتعدد والتجريد والتجسيم .

أما نزعة الإلحاد التي يشهدها العصر فإنها تطور طبيعي بالنسبة للتحديات التي واجهت الحضارة والنهضة نتيجة مفاهيم مضطربة عن مضمون الدين الصحيح . هذه المفاهيم هي التي خلقت ذلك التناقض بين العلم والدين ، وبين التوحيد والوثنية .

وقد جاءت الدعوة الحادة إلى انكار الدين وعزله عن الفكر الغربي نتيجة هذه الخصومة العنيفة التي وقعت بين العلماء التجريبيين ، وبين الكنيسة الغربية ، وكان من نتيجتها ظهور الفلسفة في محاولة وضع منهج عقائدي يغنى عن الدين في البيئة الغربية .

---

(١) عن كتاب نظام الإسلام (العقيدة والعبادة) للدكتور محمد المبارك .

ومن هنا نجد ذلك التحدي الواضح في مختلف النظريات التي راجت في السنوات المائة الأخيرة ، فهي جميعا تشجب الدين سواء أكانت نظرية في الاقتصاد أو في النفس أو في الاجتماع أو في السياسة . وهي لا تعنى بالطبع (الدين) بمفهومه العام أو مفهومه الأصيل ، ولكنها تعنى « الدين » بمفهومه الذي واجهته .

ومن هنا فإن انسحاب هذه النظريات على الدين بعامة ، وعلى الإسلام بخاصة فيه تجوز كبير ، وفيه مغالطة وتمويه بالغان ، وإنما يراد بذلك استخدام هذه المادة لإثارة الشبهات .

ومن الحق أن يقال إن الغرور قد ركب الكثيرين على أثر الكشوف العلمية مما سوغ لهم تأليه العقل ، أو إنكار كل ما لم يصل العلم فيه إلى رأي وكان من أخطر السهوم المسمومة التي رمى بها البعض : إنكار العالم الغيبي « الميتافيزيقا » .

ولكن العلم لم يلبث أن تنازل عن غلوائه ، وخفض من كبريائه ، وعاد ليؤمن بالقوة الخفية على النحو الذي سجله العلماء في السنوات الأخيرة ، وخاصة بعد انفلاق الذرة ، وما تقرر من أن العالم كله مشتق من النور . والنور حقيقة غيبية لا سبيل إلى اخضاعها للمختبرات والمجاهر والأنابيق .

غير أن الفلسفة لم تلبث أن حلت محل العلم في دراسة الغيبيات، وأنها قامت أساسا على الأساس المادي الذي لا يعترف إلا بالمحسوس والمرئى . وبذلك عجزت عن أن تقول كلمة نهائية وبقي من وراء الفلسفة أصحاب القوى الهدامة الداعون الى تدمير العالم والسيطر عليه .

إن هدف النزعة المادية الفلسفية التي هي ليست في الحق علما ، إنما يستغلها اليوم أعداء الانسانية في دعواتهم الهدامة المدمرة ، وذلك لإخراج أجيال منهارة مستسلمة مستعبدة للأوهام ، فاقدة لشخصيتها ووجودها ومقدساتها .

ومن هنا يجيء الخطر في القول بأنه لا يوجد عالم وراء هذا العالم . ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى إنكار الله والوحي والنبوة والقرآن والبعث بعد الموت والجزاء الآخر .

ومن هنا فإن المعرفة الأصيلة إنما تقوم على أساس تكوين الإنسان نفسه

(روحا ومادة) : وهي المعرفة العقلية والمعرفة المستمدة من الوحي والبصيرة .

ولا شك أن العلم سلاح من أسلحة المعرفة . ولكنه ليس سلاحها الوحيد . ومن الخطأ القول بأنه الوسيلة الوحيدة للمعرفة ، وأن ما عداه ليس شيئا .

يقول جيمس جنتر (العالم الفلكي الكبير) بعد دراسة علمية استمرت خمسين عاما : « إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود الله » .

ويقول سومرست موم : إن الغرب قد نبذ اليوم إلهه وآمن بإله جديد هو العلم . ولكن العلم كائن متقلب فهو ينفي اليوم ما أثبته بالأمس ؛ ويثبت غدا ما نفاه اليوم . لذلك نجد عباده في قلق دائم لا يستقرون.

***

ولا شك أن القول بأن الدين يلغى العلم أو العكس إنما هو خطأ . ويرى الدكتور عماد الدين خليل : أن هذا هو الشرك الذي تنصبه القوى الاستعمارية . فالخطر في قبول دين يرفض العلم أو قبول علم يرفض الدين .

أما العلم فهو طاقة من طاقات الإنسان .

وأما الدين فهو منهج ، منهج كامل للحياة البشرية يسعى إلى تنظيم علاقات الإنسان ، ليس بالطبيعة فحسب . بل كل ماله علاقة به . (النفس . الأسرة . المجتمع . الأمم والشعوب . الطبيعة . الأشياء) .

والعلاقة تنبثق من إيمان وإدراك بالله سبحانه وتعالى ، والتزام مسؤول لمنهجه تعالى . العلم علاقة واحدة من مجموع علاقات جاء الإسلام لكي ينظمها ضمن نظام كامل قوامه تصور كامل لوضع الإنسان في الكون . ومن ثم فليس للعلم أن يكون منهجا أو دينا للإنسان لأن الجزء لا يستشرف الكل . وأن علاقة واحدة لا تستطيع أن تحدد شكل ومصير علائق أخرى .

يستطيع العلم أن يضع منهجا في التعامل مع الطبيعة والأشياء . ولكن ليس مع الناس والغيب والأمم والشعوب .

إن العلم لم يستطع حتى الآن أن يضع منهجا للتعامل مع الطبيعة نفسها . وإنه لم يستطع السيطرة على معطياته ، وإلزامها باسعاد الناس فحسب .

إن العلم إذا لم تحده أخلاقيات ومثل ومعالم توجه العاملين في حقله ، والساعين الى اكتشاف عوالمه سيغدوا طريقا إلى ب برية العصور الأولى .

إن نتائج العلم تخضع اليوم لسيطرة الساسة والقادة العسكريين الذين تحكمهم الميكافيلية وهذا التطور العلمي ليست له علاقة البتة بتطور عقل الإنسان وروحه .

(٦)

وما يقوله العلامة كرسى موريسون رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك ، قد يلقى أضواء كاشفة على موقف العلم من الدين :

إن تحطيم ذرة (التون) التي كانت أصغر قالب في بناء الكون إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب والكترونات طائرة . قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا في الكون والحقيقة تبديلا جوهريا . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي . وأن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالا لوجود « مدبر جبار » وراء ظواهر الطبيعة .

***

إن الاكتشافات الحديثة قد بعثت النتائج التي وصل إليها الفلاسفة . والتي كانت قد حجبتها تماما نظريات (دارون) إن وجود الخالق تدل عليه منظمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة . إن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه . إنما هي جزء من برنامج ينفذه باریء الكون .

إن العقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله ، ولا أن يهتدي إليه إلا إذا صحبه في تلك الغاية قلب . اهـ .

***

ونحن حين نورد هذه الآراء أ نحاول أن نستشهد بها على وجود الله تبارك وتعالى ، ولكننا نقدمها تكذيبا للقائلين بأن العلم ما زال ماديا . ينكر الغيب . ونقول : إن العلم قد تحول عن نظرته القديمة .

أما دعاة المادية والإلحاد ، وإنكار الغيب . وما وراء الغيب من بعث وجزاء . فإنما هم الفلاسفة أصحاب المذاهب الهدامة التي ترمي الى تدمير مقومات الأمم .

ونستطيع أن نقول في هذا المجال الذي فتحه رجال العلم نحو الغيب : إن الإسلام هو دين الفطرة ، والفطرة ليست عقلا صرفا ولا عاطفة محضا . وإنما هي مزيج من العقل والعاطفة . إذا التقيا . تلك هي الفطرة مركوزة في النفس البشرية (فطرت الله التي فطر الناس عليها) .

القضية الثانية

الإسلام والدين

إن الهجوم على الأديان بصفة عامة ، والإسلام بصفة خاصة . هي ظاهرة واضحة من ظواهر التحديات العصرية التي تواجه الأمم والشعوب . إن هناك اتهامات خطيرة توجه إلى الدين ، فهو في شبهاتهم لم ينزل من السماء ، وإنما أوجده الإنسان نفسه ، أو هو مخدر خادع لإرضاء الضعفاء بسيطرة الأقوياء . أو أنه بدأ وثنياً ، ثم تحول إلى التوحيد ، أو قولهم إن هناك شعوباً لم تعرف التدين .

والحق أن الاتهامات الموجهة إلى الدين . إنما جاءت في ظل تحديات نفسية وإجتماعية ، واجهت المجتمعات الغربية ، ولم تكن خالصة أو محررة في تقدير هذه الحقيقة التاريخية والإنسانية الخطيرة . فمنذ فجر البشرية تطلع الإنسان إلى الله الخالق . يلتمس تلك الرابطة بين صانع الأكوان والخلائق .

بين الواحد الأحد وبين الإنسان : سيد الموجودات ، خليفة الله في الأرض ، ومنفذ إرادته ، وحامل أمانة المسئولية .

ومنذ خلق الله آدم (قبضة من التراب ، ونفخة من الروح) وعلمه الأسماء كلها ، أصبح هذا الإنسان والنبي في نفس الوقت . حامل رسالة التوحيد إلى البشرية .

وكذلك كان « الدين ظاهرة اجتماعية » أصيلة رافقت البشرية منذ أول نشأتها . فلم تخل جماعة من دين ، وكان التوحيد هو منطلق العقيدة ، ثم لم يلبث

الإنسان أن انحرف عنه ، وعبد الأوثان ، وتوالت الرسالات السماوية . لتخرجه من الظلمات إلى النور .

فالحقيقة الأولى هي التوحيد وليس الوثنية . والتوحيد هو عبارة الله الحق ، وليس عبادة الأصنام . وقد تأكدت هذه الحقيقة في آيات القرآن الكريم ، وكشفت عنها كثير من الحفريات والأبحاث الأنتروبولوجية . بحيث لم تعد لتلك الآراء التي رددها بعض خصوم الأديان نصيب من حق أو صدق .

فقد بطل ما ادعاه هؤلاء بتدرج البشر من معتقد قوامه السحر والكهانة والتنجيم والتمائم والطقوس إلى عقيدة التوحيد . ذلك أن الإنسان بدأ موحداً ، وآدم عليه السلام أول من حمل رسالة التوحيد إلى الناس . أما السحر والكهانة والتنجيم والتمائم . فتلك إنما تمثل تحولات الإنسان من التوحيد إلى الوثنية تحت تأثير الانحراف عن الدين الحق .

(٢)

لا شك أن الدين هو إحدى ضرورات الإنسانية ، حتى ليقول « بلوتارك » المؤرخ الروماني : من الممكن أن تجد مدناً بلا أسوار ، وبلا ملوك ، وبلا ثروة ، وبلا آداب ، وبلا مسارح .

ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا دين ، أو لا تمارس العبادة . فالدين طابع الإنسان .

«Man is incurably religionsa

ويقول اللواء طه الهاشمي : « الدين مؤسسة إجتماعية لا تستغني عنها أية جماعة بشرية مهما كانت بدائية ، وفكرة الدين مندمجة بالإنسان منذ أول نشأته . وليس بين المؤسسات الاجتماعية مؤسسة تضاهي سلطان الدين في سيطرته على الأفراد ، وزجرهم ، وكبح جماح غرائزهم سواء أكان الفرد بدائياً أو متمدناً » .

وقد أقرت الأديان السماوية المنزلة ثلاث قواعد أساسية : التوحيد : (وحدة

الله) (إلغاء عبادة الأصنام)،(الاهتداء إلى حقيقة وجود الله عن طريق التأمل والبصيرة) .

ويقول الدكتور « عمر فروخ » : إن الأديان السماوية قد جاءت لترقية الإنسان من التجسيد المادي للقوى الطبيعية إلى التجريد الروحي للمدارك الإنسانية).

فقد كان إهتمام الإنسان القديم يكاد يقتصر في الحياة الدينية إلى التطلع إلى الغيب . وقد وجهت الأديان السماوية اهتمام الإنسان المؤ من إلى الجانب الاجتماعي الذي يدور على نفع الناس بعضهم لبعض . والتأكيد على الجانب الأخلاقي ، لأنه أساس الصلة بين الأفراد ، وأساس المجتمع السليم ، والسلوك العاقل في الحياة لاستقرار الصلات بن الجماعات ، وتنشئة أجيال صالحة للعيش في مجتمعات متجاورة على الألفة والمحبة ، والتأكيد على نظام متماسك من العبادات والمعاملات يكون نطاقاً حول المجتمع ، وزاجراً عن الهجوم على المجتمع .

فقد حاولت الأديان السماوية أن تنقل الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه من الفوضى إلى النظام ، ومن الاضطراب إلى الاستقرار ، ومن التغالب إلى التعاون ، ومن الخيال النظري إلى الواقع العملي ، ومن الخرافة إلى الحقيقة .

وليس كتاب العرب والمسلمين وحدهم ، هم الذين يعترفون بالحقيقة الدينية ، ولكن كثيراً من منصفي كتاب الغرب يرون ذلك .

يقول (أرنولدتوينبي) في كتابه : « العادة والتغيير » : التدين جزء من الطبيعة البشرية ، والإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير دين من نوع ما . فقد استطاعت الأديان أن تعلم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية ، ولكنه إنسان ذو كرامة ، وإدراك واختيار .

أما الأيدلوجيات الجديدة فإنها لا تستطيع أن تعطيه هذه الحقيقة ، لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحي الذي منحته إياه الأديان .

لقد وجدت الأديان لتحرر الإنسان من آسار المجتمع ، وتضعه مباشرة أمام مسئولياته ، وقد استطاعت أن تمنح معتنقيها هداية لا تستطيع أن تجاريها فيها

الأيدلوجيات الحديثة .

لقد منحته الاطمئنان والمساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح ، ومنحته الراحة النفسية ، وحررته من سجون المجتمع .

ومن الحق أنه لا غنى للإنسان عن الدين ، ولن تستطيع الأيدلوجيات أن تحل محل الدين ، لأنها تمنحنا التعصب والتباغض بدلا من المحبة والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز ، ولكنها تسلبنا الطمأنينة والتحرر الروحي .

إن نقطة ضعف الأيدلوجيات هي منافستها للأديان العليا على إكتساب ولاء الجماهير . وهذا معناه العودة إلى « عبادة الإنسان » فبعد أن حررته الأديان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه إلى الله وحده ، عاد الإنسان إلى سجن المجتمع ، وبعد أن كان في علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة ، فتتضاءل ليصبح نملة اجتماعية في مجتمع النمل .

ويرى كثيرون مثل ما يرى (توينبي) : « يرون حاجة البشرية دائماً إلى دين ، وأن الدين مؤسسة اجتماعية لا يستغني عنها أي مجتمع بشري ، وأن فكرة الدين متأصلة في نفوس البشر بحيث لم يقم مجتمع بشري في العالم ، إلاّ وهو مشبع بفكرة الدين » .

يقول (ماكس موللر) : « إن الدين قوة من قوى النفس ، وخاصة من خواصها . وأن فكرة التعبد من الغرائز البشرية التي فطر عليها الإنسان منذ نشأته الأولى . وقد بدأ للمؤرخين المحققين أن جميع الأقوام المتحضرة والبدوية كانت تؤمن بقوة عليا وتعبدها » .

ويقول (بنيامين كونستان) : « إن الدين من العوامل التي سيطرت على الشر ، وإن التجسس الديني من الخواص اللازمة لطبائعنا الراسخة . ومن المستحيل أن نتصور ماهية الإنسان دون أن تتبادر إلى ذهننا فكرة (الدين) » .

وعلماء الاجتماع يؤمنون بأن الدين من أهم القواعد التي قام عليها بنيان المجتمع البشري .

ويقول « تايلور »[1] : إن الشعوب البدائية مهما انحط إدراكها . فإن لها شكلاً من دين ،وقصداً بالدين : (الاعتقاد بإله أعلى ، وبالحساب بعد الموت) .

ويقول « سؤ ندر بلوم[2] » : لم نعثر في أي مكان على قبيلة أو شعب ليس له طقوس مقدسة ، أو أنه لم يؤ من بكائنات عليا ، إن الذين ادعوا بوجود شعوب وقبائل لا تدين بدين ، إنما استندوا في دعواهم إلى ملاحظات غير صحيحة .

ويقرر علماء الاجتماع المحدثون : عدم جواز وجود مؤسسة تستند إلى الكذب ، والزيف . وأن تستمر وتدوم وقتاً طويلاً ، وأن تظل على حيوية عظمى ، وعندهم أن الأديان تستند إلى الطبيعة حتماً . ولولا ذلك لا اعترضت سبيلها مقاومة قاهرة يتعذر التغلب عليها .

وقالوا إن الدين استجابة لبعض الحاجات الإنسانية الثابتة ، وأن في العقل البشري ميلا إلى التوحيد فهو يطلب دائماً الوحدة وراء التنوع[3] .

ويقول « أرنست رينان » في كتابه « تاريخ الأديان » : « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه ، وكل شيء نعده من ملاذ الحياة نعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى . بل سيبقى أبد الآباد حجة قاطعة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدينية للحياة الطبيعية » .

ويقول (ت . س . اليوت) في كتابه (آراء وملاحظات عن الثقافة) : إن الأديان أساس الثقافة وإن كل ثقافة مشتركة بين الناس تنبع من عقائدهم الدينية . فالمسيحية هي الأساس الأول للثقافة الأوروبية بقدر ما كان تغلب الهندوسية على الهند ، العامل الأول الذي أضفى على الثقافة الهندية خصائصها التي تمتاز بها . ويقول : وكذلك الإسلام بالنسبة للعرب والمسلمين .

وليس الدين هو الإيمان الفردي والعلاقة الخاصة بين الله والإنسان ، ولكن

---

(١) كتابه : الحضارة البدائيه

(٢) كتابه : مختصر تاريخ الأديان

(٣) هاملتون جب .

هذا جانب منه . أما الجانب الآخر فهو جانب العلاقة بين الإنسان والناس . ويتصل بالخلق والتربية والمعاملات والشريعة .

ومن هنا تعرف أن كل ما يوجه إلى الدين من اتهامات وشبهات إنما هو :

أولاً ـ موجه إلى تصور الدين في بيئة ما . وليس إلى الدين الحق المنزل ، ولا إلى كل الأديان السماوية .

ثانياً ـ إن هذه الحملة لها هدف بعيد المدى ، هو إزاحة الدين من أجل إذاعة الإباحة والإلحاد ، والقضاء على مؤسسة الدين في الغرب من أجل تغليب الامبراطورية الصهيونية الإسرائيلية على المسيحية على السواء .

(٣)

يقول الدكتور « محمد عبد الله دراز » : إنه من المفارقات العجيبة أن يكون ازدياد العلم ، ونمو المعرفة سبباً في نمو غريزية التدين المبنية على طلب الغيب المجهول . وكلنا لو تأملنا لتحققنا صحة هذه المفارقة ، ولعرفنا أن تقدمنا الحديث في العلوم يقربنا حقيقة من الاعتراف بجهالتنا . والإقرار بأن مثل ما نعلمه من الكون من جانب ما نجهله منه كمثل قطرة واحدة في محيط خضم عميق .

ذلك أن كل باب جديد يفتحه العلم من دلائل عظمة الكون ، وامتداده ينفتح معه أفق أوسع للسؤال عما يتصل بهذا الميدان الجديد من المشاكل الكثيرة الغامضة .

كان اتساع نطاق المعلومات هو نفسه اتساعاً لنطاق المجهولات ، لأن محيط كل دائرة جديدة يماس الحديث بباطنه وظاهره ، فلا يسع العقل إلا التسليم بأن وراء كل مرحلة يقطعها في عالم الشهادة مراحل أخرى في عالم الغيب . وصدق القرآن (وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً) .

وبعد أن وقف التحليل دهراً طويلاً عند الذرة «Atome» على أنها الحد الأدنى الذي لا يقبل الانقسام أو الفناء ، والذي يحتفظ بكليته وخصائصه تحت تأثير كل القوى الطبيعية ، وفي أثناء جميع التفاعلات الكيائية أصبحت اليوم هذه الذرة

نفسها عالماً معقداً . مركبا من نواة جامدة ، وغلاف يدور كما تدور السيارات حول الشمس ، وتبين أن هذا الغـلاف الـذي هو جزء من تركيبهـا ما هو إلاّ شحنـة كهربائية سالبة مجردة من كل حامل مادي ، وأنه يمكن فصله عنها بقوة إشعاعية ، أو بتشحين هائل .

« النواة نفسها » التي كانت تعد إلى عهد قريب متماثلة الأجزاء . أعني ذات قوة إيجابية فحسب ، قد ظهرت الآن مركبة بدورها من نوعـين من الكهربـاء : موجب وسالب .

وثبت أنه من الممكن تحطيمها ، وفصل أجزائهـا . وأن القـوة الإشعـاعية الهائلة التي تستنبط من هذا التحطيم يمكن استخدامها في إصلاح الكون وتعميره أو في إفساده وتدميره .

وهكذا تخلع الطبيعة ثوبها المستعار ، وتنكشف المادة عن أصلها الأصيل ، فإذا هي (طاقة) أي قوة مجردة ، يلزم البحث عن مصدرهـا خارج ذلك الهيكل المادي المحطم .

وهكذا يقرب عالم المادة رويداً رويداً من عالم المجردات . ويكاد يتصل عالم الشهادة بعالم الغيب من جهة حده الأدنى ، كما يتصـل به من جهـة حدة الأعلى ، وهو غيب يؤمن به العلم وإن لم يره ، لأنه يحس أثره ويلمس خطره .

أجل أصبح العلم يؤمن اليوم بأن في الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد ، ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر المزود بأدق المقاييس والموازين . أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ، ليست هي المعيار الوحيد للتوحيد . وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى في القاعدة التي تقوم عليها (الأديان) .

ويقول « سينسر » عن المجهول : إنه تلك القوة التي لا تخضـع لشيء من العقول ، بل هي مبدأ كل معقول . وهي المنبع الـذي يفيض عنـه كل شيء في الوجود . أليس هذا المجهول هو بعينه موضع الديانات ؟ . وقال ليتريه : إنه حين بحثه في العلوم الواقعة رأى نفسه محوطاً من كل جانب ببحـر لجـى من الأسرار الغامضة ، وهو لا يملك سفينة يخوض بها لجته ، وليس معه إبرة يتعرف بها وجهه سفره .

ومن هنا فالدين هو قوة الفطرة الغلابة ، القائمة على نزعة الإيمان بالغيب ، والتطلع إليه من ناحية طرفيه : الماضي والآتي . وهكذا سقطت نظرية الإنكار المادي لما وراء الحس .

يقول الدكتور دراز في كتابه القيم عن (الدين) : ليس هناك قوة أخرى على وجه الأرض تكافيء قوة التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون ، وضمان تماسك المجتمع ، وإستقرار نظامه .

والعلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ، ولا بد لحسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية ، وعمارة الأرض ، لا إلى نشر الفساد والشر . ذلك هو العقيدة والايمان .

من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قوانين العدالة والنصفة ، وكان لذلك ضرورة إجتماعية ، كما هو فطرة إنسانية . وقد نشأ الدين حقيقة أولى زمانية تقترن بظهور الإنسان على هذا الكوكب ، ومن هنا خطأ القول بأن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال . (وهي آراء سبنسر وتيلور وفريزر ودوركايم) .

إن هناك نظرية أخرى قال بها بعض الباحثين إن عقيدة الخالق الأعظم هي أقدم ديانة ظهرت في البشر مستدلاً بأنها لم تنقل عنها أمة من الأمم في القديم والحديث . فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة ، أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

ويقول : إن نظرية فطرة التوحيد وأصالته قد انتصر لها جمهور من علماء الأجناس ، وعلماء الإنسان ، وعلماء النفس . ومن أشهر مشاهيرهم :

● (لانج) الذي أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية في استراليا وإفريقيا وأمريكا .

● (شريدر) الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة .

● (بروكلمان) الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام .

● (الرواه ، وكاترخام) اللذان وجداها عند أقزام أوساط إفريقيا .

● (شميدت) وجدها عند الأقزام وعند سكان استراليا الجنوبية الشرقية . وقد أشار شميدت إلى أن فكرة الإله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس البشرية .

وقال الدكتور (دراز) : إن الرشد والضلال في الفكرة الدينية ليسا ظاهرتين متعاقبتين فقط صعوداً وهبوطاً . بل هما ظاهرتان متعاصرتان موزعتان في كل أمة وجيل .

وقد اتفق مؤ رخوا الأديان على أن أشد الشعوب همجية ووثنية لم ينفك عن الاعتقاد بإله خالق هو رب الأرباب . (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) . وبدأوا على الحق ، ثم جاء الانحراف والاختلاف عرضاً طارئاً . « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » والكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك وشأنها تستلهم غرائزها وحدها . بغير مرشد ، ومذكر بل تعهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم ، فكان أبو البشر : هو أول الأفذاذ الملهمين ، وأول المؤ منين الموحدين .

ولا شك أن وسائل العلم البشري عاجزة عن تحديد نقطة البدء الحقيقي للدين ، وكل ما كتب في ذلك هو افتراضات . ويقول (سلمون رينال) : إنه لا توجد أمارة واحدة تدل على أن فكرة الدين ستزول من الأرض قبل أن يزول الإنسان ، وإنه ستبقى في الكون دائماً أسرار ومجاهيل ، وإن العلم لن يحقق أبداً مهمته على وجه الكمال . ويقول العلامة (محمد فريد وجدي) : نعم : يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين ، لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها ، ففطرة الدين تلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبيح ، وستزداد فيه هذه الفطرة وتعمق على نسبة علو مداركه ، ونمو معارفه .

ويرى كثير من المؤ رخين والباحثين أن الأخطار التي المت بالعالم المعاصر . إنما جاءت نتيجة نظرة الإلحاد والإباحة التي أخذت تسيطر على البشرية في الأجيال الأخيرة .

(فروبرت مليكان) العالم الطبيعي الكبير : يرى أن أهم أمر في هذه الحياة هو الإيمان بحقيقه المعنويات وقيم الأخلاق .

ويقول : لقد كان زوال هذا الإيمان سببا للحرب العامة . فإذا لم تجتهد البشرية الآن لاكتسابه وتقويته ، فلن يبقى للعلم قيمة . بل يبقى نكبة على البشرية .

وقد أشار القائد بيتان إلى هذا المعنى في بيانه الذي وجهه إلى الأمة الفرنسية على أثر هزيمتها ١٩٤٠ . حين قال : إنني أدعوكم أول شيء إلى نهوض أخلاقي .

ويقول القائد العالمي مونتجمري : « إن أهم عوامل الانتصار في الحرب هو العامل الأخلاقي . ولا يمكن لقائد أن يدفع جنوده إلى بذل أقصى جهودهم في العمل إلاّ عن هذا الطريق ، إن خطر الانحطاط الخلفي في أفراد الجيش أعظم من خطر العدو . ولذلك لا نستطيع أن ننتصر في معركة . إلاّ إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شيء . ويقول الدكتور (مونتجمري وات) في كتابه (الإسلام والحضارة » : « لقد كان الدين على مر العصور هو : جوهر الوجود أو روح العالم ، وكما يتهاوى جسد الإنسان بعد خروج الروح منه ، فإن العالم ينهار إذا ما زال الدين منه . أي أن العلاقة بين الدين والوجود خالدة خلود العلاقة بين الجوهر والعرض » . ويجمع العلماء على أن أهمية الدين في بناء المجتمعات . إنما يرجع إلى قدرته على إقامة التعاون بين أعضائه ، حيث يتم هذا التعاون بقانون ينظم علاقاته ، ويحدد واجباته وحقوقه . وأن الدين يعمل على تهذيب السلوك وتصحيحه ، وتطبيق العدل ، ومقاومته الفوضى والفساد . كما أنه يربط بين قلوب معتنقبه برباط المحبة والتراحم . وهو رباط لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الجوار . وليس على وجه الدين قوة تكافيء قوة التدين . أو تدانيها في كفالة إحترام القانون ، وضمان تماسك المجتمع ، واستقرار نظامه ، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه[1] .

---

(١) راجع الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه « الدين » .

القضية الثالثة

الإسلام والتوحيد

(١)

ان هناك تركيزاً كبيراً ومستمراً وبعيد المدى على الإسلام، وإثارة الشبهات حوله من حيث القول بأنه مضاد للعصر، وبأنه دين صحراوي، أو أنه أدى دوراً تاريخياً وانتهى، إلى عشرات من الاتهامات البالغة الظلم لحقيقة الإسلام.

وإن من حق الإسلام علينا أن ننظر إلى مصادر هذه الحملات، وهذه الشبهات أساساً قبل أن ننظر إلى مادتها وموضوعها، فإذا كانت إنما هي بحث علمي أو منهجي يراد به الفهم وتقرير الواقع نظرنا فيه وأوليناه الاهتمام، أما إذا كان صادراً عن تعصب ديني أو خصومة سياسية. فإن الأمر فيه يكون واضح الغرض، ظاهر البطلان. إن الحملات التي توجه للإسلام، إنما توجه من جهات الاستعمار والتبشير والتغريب، ودعاة المذاهب المادية، وأصحاب المطامع السياسية في السيطرة. ومن هنا فإن آراءهم ليست علمية أساساً ولو غلفت في اثواب ذات مظهر علمي زائف .هذا فضلا عن خطأ انسحاب النظرة الفلسفية أو العلمية الغربية للدين، كما يراه أهله في الغرب، انسحاب هذه النظرة على الإسلام يعد مجافاة للحقيقة والواقع.

ذلك للاختلاف الجذري البعيد المدى بين واقع الإسلام وواقع هذه الأديان بالرغم من وحدة مصادرها الأولى.

ويختلف مفهوم الدين: بين الفكر الإسلامي، والفكر الغربي من جهات

كثيرة. وذلك لاختلاف العوامل التاريخية لكل من المفكرين.

والتعريف الذي وضعه الفكر الغربي للدين لا يمكن أن ينطبق على الإسلام، ورجل الدين في الفرنسية يوصف بأنه Roliguieu

ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس. وفي الغالب أن هذا الاصطلاح. يعني الزاهد المنقطع في الأديرة.

والفكر الإسلامي لا يعترف أساساً بكلمة رجل دين، وليس في الإسلام طبقة كهنوتية، ولا مراسم معينة تفرض نفوذها على العلاقة بين الله والإنسان.

وكل مسلم من حقه أن يعرف أصول الدين، والمتخصصون في هذه الدراسات هم «علماء الدين». لأن رجال الدين بحسبانهم قادرون على بحث دقائق أمور العقائد أو الشرائع أو الأخلاق . وهي المقومات الأساسية للإسلام.

والإسلام ليس دينا بمعنى «اللاهوت» في الاصطلاح الغربي فحسب. فهو دين ونظام مجتمع، ومنهج كامل للحياة الإنسانية.

ولم يقف الإسلام أمام الحضارة والعلم والمدنية معارضاً أو مناهضا. بل كان هو باعثا هذه الانطلاقة العلمية التي انتهت بإبداع المسلمين للمنهج العلمي التجريبي.

فالحضارة الإسلامية تنبع أساساً من مفاهيم الإسلام، ولا تنفصل عنه. ولذلك فإنه لم يحدث أي صراع بين المفاهيم الإسلامية، وبين كشوف العلم وتطورات الحضارة. وكل الكشوف العلمية، وفي مقدمتها المنهج التجريبي. إنما قامت في حضانة الإسلام نفسه، وبتوجيهه. هذا المنهج التجريبي الذي تسلمته أوروبا من المسلمين، وأقامت عليه الحضارة المدنية.

ولم يحدث في تاريخ الإسلام اضطهاد للعلماء أو الفلاسفة أو الباحثين. وكل ما وصف بأنه اضطهاد لم يكن مصدره معارضة لحرية الفكر، وإنما كان نتيجة لشيء آخر. ربما كان من أمور الحكم والسياسة، ولم يضطهد مفكر مسلم واحد نتيجة لخلاف في الرأي، وإنما جاء ذلك بالنسبة لقلة قليلة في مجال التآمر السياسي، أو الاتصال بدولة أجنبية (راجع وقائع حياة الحلاج والسهر وردى).

أما بالنسبة للغرب فقد كانت تجربته مع الدين مختلفة أشد الاختلاف. ولذلك فإن نظرته إليه وموقفه منه، هذا الموقف المتمثل في آراء «نيتشة وماركس وفرويد ودوركايم وسارتر». إنما قد استمد مقوماته من الخلاف بين العلم والكنيسة. أو من مفهوم المسيحية الغربية المختلف اختلافاً جذرياً عن مفهوم المسيحية السماوية المنزلة، وذلك حين ارتبط الفكر الوثني الإغريقي، والقانون الروماني بالمسيحية، وأقام ذلك النتاج الفكري الذي رسم منهج الحياة العقلية والروحية والاجتماعية في أوربا منذ عصر النهضة إلى اليوم.

ومن هنا كانت نظرة الفكر الأوربي إلى المسيحية (الغربية) في أوائل النهضة حيث وقفت الكنيسة مع الإقطاع والأمراء. أمام أضواء العلم الذي استمدته أوربا من مصادره الإسلامية عن طريق الأندلس، نتيجة لآراء وأفكار ابن سينا والغزالي وابن رشد. التي اقتبستها مدارس أوربا المسيحية، منذ القرن الثاني عشر الميلادي إلى القرن السادس عشر. هذه الأفكار التي أخذت تطورات عميقة في الفلسفة واللاهوت والأخلاق في الفكر الغربي والمسيحي. بالإضافة إلى المنهج التجريبي الإسلامي. مما كان مصدراً أساسياً لقيام الحضارة الحديثة.

وقد بدأ تاريخ الفكر الاوربي في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي مشحوناً بالمصادمات ومظاهر الطغيان التي تكررت في قتل الرجال والنساء، وإحراق الجثث البشرية والمدن وتخريبها، وإباحة السلب والنهب، وقيام محاكم التفتيش، والخلاف بين (الكاثوليك والبروتستانت) مما انتهى إلى مذبحة (سانت بارتلمي).

من شأن هذا كله وقصته طويلة، وفصوله دامية، أن أعطى للدين مفهوما مظلما موحشاً ظل يعيش في أعماق الفكر الأوربي، ويصبغ الفكر الغربي كله، ويسيطر بالتحدي على مفكريه.

ومن هنا فإن مفهوم الدين في الفكر الغربي (بشقيه) بدأ من ذلك الوقت مختلفاً أشد الاختلاف عن مفهوم الدين في الفكر الإسلامي.

ومن هنا كان اتجاه الفكر الغربي كنقطة تحول إلى الإيمان بالانسان سيداً للكون، وبتقديس العقل كبديل عن الإيمان بالله، ثم كانت نزعات الإلحاد

والعلمانية ودين الطبيعة وعشرات من المذاهب العقائدية، والأيدلوجيات السياسية والاجتماعية، ومحاولة إقامة نظام أخلاقي منفصل عن الدين. ولقد ألقت هذه المعارك والفلسفات والنظرات ظلها على الفكر الإسلامي، منذ بدأ زحف الاستعمار الغربي على العالم الإسلامي، حاملاً معه هذه المفاهيم كجزء من مختلطه في الغزو الثقافي، والتغريب للقضاء على قوة الدين، وأثر الإسلام في النفس العربية الإسلامية، وكسلاح لتركيز السيطرة الغربية وتمكين النفوذ الاستعماري.

ومن خلال معركة الدين نشأت في أوربا شبهة القول بأن الدين يتعارض مع النظر العقلي، وهي شبهة لها مجالها الحقيقي، في واقع الفكر الغربي. بينما لا نجد لها أي أثر في حياة الفكر الاسلامي. ومن هنا أيضاً ذاعت الدعوات التي حملها كثير ممن درسوا هذا الصراع بين الغرب والدين.، وهي اتهام الدين بأنه تأخر وانحطاط. وأن الوسيلة الوحيدة للارتقاء والتقدم. هو الانسلاخ من الدين، وإبعاده عن مجال الحياة، وإلغاء سيطرته على أي مفهوم من مفاهيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد ظلت هذه الشبهة تسري كالنار في الهشيم في دعوات بعض الموالين للثقافات الغربية في العالم الإسلامي، وتتصل بكثير من مناهج الدراسة في الجامعات والصحافة، ومجالات البحث المختلفة.

(٢)

قاعدة الإسلام الأساسية هي: «التوحيد»: القائمة على الاعتقاد بوجود الله الذي لا يتغير بتغير الزمان والمكان، وهو في هذا يبدو مختلفا مع عقائد كثيرة، ومن هنا كان عجز المعارضين له عجزاً في الفهم أساساً.

وقد جرت محاولات ضخمة لنقد مفهوم التوحيد في الإسلام، وذاعت دعوات كثيرة حملتها رياح التغريب في محاولة من دعاتها لإحلالها مكان الإسلام في نفوس المسلمين. غير ان هذه الدعوات قد فشلت. وهذه السنان المسمومة المصوبة قد ردت إلى أصحابها.

وفي هذا يقول العلامة: محمد فريد وجدي: «إذا كانت أمة لا تنجح فيها دعوة دينية فهي الأمة الإسلامية لأن دينها أجمع الأديان لمعتقدات البشر. منقحة مهذبة، تتفق مع العقل والعلم معاً. فهم يؤمنون بجميع رسل الله، وأمروا ألا يفرقوا بين أحد منهم، ويؤمنون بالكتب كلها ويحترمونها. ومع احترامهم لجميع الكتب فإنه يتعذر على أكبر قوة في الأرض أن تحولهم عن دينهم».

***

وقد دارت حول الإسلام مباحث كثيرة. وكانت هذه النظريات في هجومها على الأديان تحاول أن تقرن الإسلام بها دون تفرقة أو نظر إلى موقف الإسلام الصحيح من قضايا العصر والحرية والعلم وغيرها. وعلينا أن نفصل بين هذه الآراء في الدين، وبين الإسلام، ذلك لأن هذه النظريات لا تقصد الإسلام، حيث لم يكن دين أوربا ومفتاح البحث كله، ونقطة الالتقاء والاختلاف بين الإسلام، وبين العقائد المختلفة: أن الإسلام دين ونظام وحياة، وأنه ليس ديناً تعبدياً لأهوتياً خالصاً. ومن هنا يمكن المقارنة والفصل بينه وبين غيره من عقائد.

ولقد كون الإسلام لهذه الأمة فكراً، قوامه التوحيد الذي هو قوام الإسلام نفسه، ومن خلال هذا الفكر تكون مزاج المسلمين النفسي والاجتماعي، وتكونت قيمهم ومفاهيمهم على اختلاف قومياتهم وأوطانهم، وارتباطهم بالأرض أو بالعرق.

ومن الحق أن يقال إن هناك وحدة فكر تجمع المسلمين على اختلاف أوطانهم وأجناسهم. ومن الحق أن يقال أيضاً إن النفوذ الاستعماري منذ سيطر على العالم الإسلامي كان يهدف إلى القضاء على هذه الوحدة الفكرية طريقاً للقضاء على الوحدة العامة التي تجمع المسلمين جميعاً.

وتهدف محاولة القضاء على وحدة الفكر: العمل على خلق قيم جديدة وافرة من الفكر الغربي الذي يختلف في أسسه وقيمه عن الفكر الإسلامي، أو وضع مفاهيم جديدة غربية للقيم الأساسية الإسلامية.

ولكن الفكر الإسلامي كان دائماً، انطلاقاً من أصالته، قادراً على مجابهة هذه

الحملات والمحاولات . وكان قادراً على النظر في الفكر الوافد، وتقبل ما يتفق مع مناهجه وقيمه، وامتصاص ما لا يخرجه عن ذاتيته وأصوله وجذوره.

وكذلك لم يستسلم الفكر الإسلامي في الماضي للنظريات الدخيلة أو الفلسفات الوافدة، ولم يتقبلها تقبلا من شأنه أن يؤ ثر في أسسه ومقوماته، وأمامنا أخطر تجربة مرّ بها الفكر الإسلامي حين اتصل بفلسفات اليونان والفرس والهنود. فقد درسها وانتفع بالجوانب الصالحة والإيجابية منها. وأضاقها إلى كيانة، ولكنه لم يتقبلها تقبلاً كاملاً، وإنما صاغها داخل بوتقته، وفي مجريات منهجية القائم على التوحيد، والمستمد من القرآن

ولقد رفض فكرنا الإسلامي أساساً منطق (أرسطو)، وأعلن على لسان قادته ومصلحيه. أن للإسلام منطلقا مستمدا من القرآن الكريم.

وفي العصر الحديث لم يستسلم الفكر الإسلامي للنظريات الغربية، لامفاهيمها ولا قيمها، وقاومها طويلاً. وأعلن وجهة نظره الخالصة. واضحة في مختلف القضايا. وظل جيلا بعد جيل يواجه هذه النظريات ويكشف عن نظريته الأصيلة في كل قضية، ويدلى برأيه في كل معضلة، لا يتوقف عن النظر المنصف. ولا يتقبل كل شيء كما هو.

بل لم يتوقف الفكر الإسلامي عن معارضة كل قيمة تختلف عن مفهوم التوحيد أو منهج القرآن. هذا مع إبقائه على طابعه ومحافظته على سمته، وتأكيد سماحته المعهودة في الانفتاح على مختلف الثقافات. وأخذه منها وعطائه، دون أن يخرجه ذلك عن مقوماته.

وقد اعترف كثير من الباحثين. بل وبعض المستشرقين، اضطروا إلى الاعتراف بالحقيقة التي تتمثل واضحة في أن للفكر الإسلامي ذاتيته الأصيلة ،وطابعاً خالصاً، وشخصية مميزة. غير متقبلة للأنصهار أو الذوبان في أي ثقافة أو فكر آخر.

إن أمانة المفكرين في عصرنا وجيلنا تحتم عليهم أن يعملوا دائما على تحرير الفكر الإسلامي من التبعية أو الانصهار في الفكر الغربي، وهي نفس الامانة التي حملها الرواد الأمناء من قبلهم.

(٣)

حاولـت الفلسفـات المعـاصرة أن تهاجـم الأديان، وأن تصفهـا في دائـرة «الغيبيات». وقد استطاع العلماء التغلب على مفهوم الغيب، وإن لم يقولـوا فيه الكلمة الأخيرة. فقد اعترفوا به. إن أصحـاب المذاهـب الفلسـفية والنظـريات العقلية قد عجزوا عن ذلك. ولكن القوى التي تسوق المذاهب والنظريات لتكون وسيلتها إلى تدمير المجتمعات القوية المتماسكة، ما تزال تثير الغبـار حول الإيمـان بالغيب والبعث والجزاء. وهو الأساس الثاني للدين عامة، وللإسلام خاصة بعد قاعدة «التوحيد».

وإذا كان منهج المعرفة يعتمد على العقل وعلى البصيرة. فإن هذا الجانب مما نؤمن به عن طريق الوحي أو القلب أو البصيرة.

يقول الدكتور محمد محمد حسين[1]: إن الله سبحانه حين علم ضعف العقل وعجزه ـ وهو العليم الحـكيم ـ أرشـد خلقـه الضعفـاء فيما هو خارج عن حدود تفكيرهم إلى ما فيه خيرهم وأمرهم بلزومه والانقياد له. ـ سبحانـه ـ + ، سواء أدركوا وجه المصلحة والخير فيه، أو لم يدركوه، لأن إدراك الخير والشر، والنفع والضر، والجمال والقبح، يحتاج إلى أن يحيط المدرك بالوجود كله زمانـاً، ومكانـاً وعلماً. والإنسان لا يعرف من الوجود المترامـي الـذي لا يحيط تصـوره بأولـه أو بآخره، إلا حاضره الذي لا يعد شيئاً مذكوراً إذا قورن بالوجود كله. بل إنه لا يدرك من هذا الوجود الراهن على تفاهته إلا أقله. وهو مع ذلك كله ـ أو لذلك كله ـ يجهل العلة، ويجهل الغاية، ومن كان هذا مبلغ عجزه ومنتهى إدراكه، كيف يسوغ له أن يعارض ما أنزل الله، وأن يتجاوز حدوده بدعوى أنه لا يدرك حقيقته، أو لا يدرك وجه المصلحة فيه.

من اجل ذلك كان الطعن في الايمان بالغيب هدماً للعقيدة الدينية في لبها، وفي صميمها، وفي أساسها الأول الذي لا قيام لها بغيره، وما أكثر ما يذاع في هذا

---

(١) راجع بحثه: اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر.

الباب مما يدعو الناس إلى الشك في كل ما يخرج عن دائرة المحسوس يصدر باسم العلم والعلمانية، وباسم حرية الفكر. والتحرر من عبودية التقليد. والعلمانية Secu larism والتحررية LIBERELISM كلاهما مذهبان أوربيان مناهضان للدين برزا في القرن الميلادي الماضي، وسرت عدواهما فيما سرى إلى العرب والمسلمين، والشرق على وجه العموم حين نظروا بعين الوهم في أعماق ضعفهم إلى الغرب في ذروة تفوقه فظنوا أن كل ما يصدر عنه حق وجميل.

ويلتقي المذهبان عند الدعوة إلى الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس، ونبذ كل مالا تؤ يده «التجربة» والتحرر من العقائد الغيبية التي هي عندهم ضرب من الأوهام، ومن العواطف بكل ضروبها.

فالأديان كلها عندهم أساطير. كان الناس يخضعون لما تخوفهم به من العذاب، ثم تحرروا من هذا الخوف الموهوم الذي زعمته الأديان.

وقد غاب عن هؤلاء أن الدراسات التجريبية محدودة الميدان والمدى، لا تتناول إلا المدرك والمحسوس، والمدرك والمحسوس أقل بكثير مما لا يخضع لحسنا وإدراكنا.

وقد عرف أصحاب هذه الدراسات، حين اكتشفوا أن الموجات التي تدخل في مدى إدراكنا الحسي ليست إلا شيئا ضئيلا تافها بالقياس إلى المعروف منها فضلا عن المجهول. وأصبح عجز الحواس البشرية شيئاً مقرراً تؤ يده الدراسات التجريبية نفسها.

ولا يزال علماء الفلك يقفون مشدوهين أمام ذلك الفضاء الغامض لا يعرفون مقاييسه وأبعاده إلا ظنًّا. بل إن بعض ما يستنتجونه أدعى للحيرة من الجهل به، فهم يقدرون أن بعض النجوم ـ اركتورس مثلا ـ تبعد عنا ثلاثين سنة ضوئية. ومعنى هذا أن ذلك النجم الذي نراه الآن لا نراه كما هو الآن. ولكنا كما كان منذ ثلاثين سنة. لأن الشعاع الضوئي الذي يصل إلى أبصارنا الآن هو الذي انبعث منه منذ ثلاثين سنة، ويقرر الفلكيون أن بعض المجرات يبعد عنا ملايين من السنين الضوئية ومئات السنين.

إن المنهج التجريبي يستطيع أن يوصلنا إلى تسخير بعض الظواهر والطاقات وتطويعها لمصلحتنا، ولكنه لا يوصلنا إلى حقائق هذه الظواهر والطاقات.

إن إنكار الغيب ليس ثمرة المعرفة، ولا ثمرة العلم، ولكنه من آفات القليل من المعرفة والقشور من العلم.

***

إن آية الآيات في الدين كما يقرره الإسلام. الإيمان بالغيب، واليقين بالبعث والجزاء، وبالتبعة والمسئولية الفردية. وهذه حقيقة جوهرية لا يسقطها الإسلام أبداً. بل يصنعها دوماً نصب الأعين والعقول والأفهام. ومن خلالها تجري كل أعمال الدنيا. والايمان بالجزاء والبعث عامل قوة وإيجابية ودافع بناء وحركة، وليس عامل جمود أو تخلف. وإذا لم يكن للأعمال الكبرى في الحياة الإنسانية وجهة ربانية تعطي ثمرتها في الدنيا، وتعطي جزاءها في الآخرة، فإن رسالة الإنسان في الحياة تكون عبثا. ويكون وجوده اعتباطا، ولا يمكن أن تكون الحياة بغير غاية، أو يكون الإنسان بغير رسالة. وتلك هي الحقيقة التي يكشف عنها «الدين» للعقل البشري، والتي قد تغيب عنه، ولا يهتدي إليها إذا لم يجعل الدين مقوماً من مقومات فكره وحياته، ليست الحياة عبثاً، وليست النفس الإنسانية فيها ضياعاً، ولكنها رسالة ومسئولية. وهي حقيقة وتبعة. ثم هي بعد ذلك بعث جزاء.

وإن دعاة المذاهب الفلسفية يحاولون من أجل أهداف الغزو الثقافي، والاستعمار العالمي أن يحجبوا هذا المعنى، ويفسدوا الفطرة الإنسانية بالحديث عن نهاية الحياة بالموت. وذلك حتى يفسحوا المجال أمام الناس للركض من أجل الملذات التي ينتهبونها قبل أن تأكلهم الحروب والقنابل الذرية. ومن هنا فتح ذلك الباب الخطير باب القلق والضياع والرفض وغيرها من منطلقات لا يعرفها المسلم والمؤمن بالدين. وهي تلك النار التي تأكل القلوب والنفوس حين تنزاح عن أصحابها فطرة الإيمان بالله وعقيدة الدين. وحين يتأكد للنفس الإنسانية أمر البعث والجزاء، تتجه الأعمال في الحياة وجهة الخير والحق والعدل. وتنزاح تلك الأزمة

لتي تحاول أن تغرق النفوس في تيه مضلل. ومن حسن الحظ أن الأمة الإسلامية نعرف أصالة التدين، وفي أرضهم نزلت الأديان. ومن هنا فهي حرية ألا تقع في هذه الأزمة الصاعقة التي تجيش لها الصهيونية العالمية قواها، حيث تدفع تلك الدعوات الهدامة إلى مجال الفكر الإسلامي. ولا شك أن الفطرة الإنسانية في أعماقها تستطيع أن تلتمس طريقها إلى الدين الحق، وتتصل بخالقها الأوحد، ولا شك أن الإلحاد أمر طارىء على النفس الإنسانية، وليس من طبيعتها. ففي أعماق النفس حاجة إلى التدين والاتصال به.

ولا شك أن التدين طبيعة عميقة في الكيان الإنساني، والفطرة البشرية. وهو أصدق الطرق إلى بناء الفرد وبناء المجتمع، وبناء الإنسانية المتحررة من الخوف والشك والانحلال. وقد تثير الشبهات ما تثير حول البعث والمعجزات.

ولا شك أن تصور البعث ليس مستحيلا. بل القول باستحالته هو الذي يوجب تناقضا عقليا. لأن البعث هو خلق جديد. والذي خلق الإنسان أول مرة قادرة على إعادة خلقه. بل هو أهون عليه. (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده).

أما المعجزات والقول بأنها خرق للنواميس الكونية. فالأمر فيها جد يسير. فالله هو خالق الكون وخالق النواميس. والذي خلق النواميس قادر على خرقها. بل هو قادر على إزالتها جملة.

إن إقرار الحقيقة التي تقوم على وجود الله الخالق لهذا الكون لا يشكل تناقضا عقليا. بل إن إنكار هذه الحقيقة هو الذي يشكل التناقض. فهذا العالم الممكن الحادث المعلول. هل يمكن أن يكون موجودا بغير علة ولا فاعل!.

***

وما يوجه إلى الإسلام من شبهات حول القضاء والقدر، إنما هو محاولة لانتقاص الإسلام في أمر من أروع مفاهيمه وأعظمها قدراً. فإن الإيمان بالقضاء إنما هو قوة دافعة بناءة.

ولقد كان الإيمان بالقضاء والقدر أعظم حافز للمسلمين في صدر الإسلام

على أن يجتازوا مشارق الأرض ومغاربها إلى العالم أجمع مسترخصين أنفسهم في سبيل الله. وما ساء فهم الناس فكرة القضاء والقدر. فأصبحت فكرة جامدة إلا حين فسد منهم القيم الإسلامية. وأضحت معانية نفسر تفسيراً جامداً مشوهاً.

ويقول الدكتور أحمد الحوفي في هذا المجال: إن علم الغيب قاصر على الخالق سبحانه «وعنده مفاتح الغيب». والعقل عاجز عن معرفة حقيقة الذات الإلهية، وعاجز عن معرفة صفات الله، وعاجز عن معرفة أحوال الجسم الإنساني والنفس الإنسانية.

وعلم الإنسان: هو ماض وحاضر، وظن في المستقبل.
أما علم الله فهو أزلي أبدي. يعلم الأمور المستقبلة علمه للحاضر. وعلم الله يحيط بما كان وبما سيكون. لأنه هو الخالق، فهو عالم علما سابقا للأحداث، والوقائع. فلا يقع في ملكه حدث إلا موافق لإرادته. ومن أجل ذلك يؤمن المسلمون بقضاء الله وقدره إيمانا لا يتزعزع. إيمانا بعلم الله وقدرته وإرادته.

هذا الإيمان يعصمنا من الغرور إذا حالفنا نجاح، ويبعد عنا الخور والضعف واليأس والسخط إذا نزلت كارثة. لأن المؤمن بالقضاء يصبر على ما نزل به، ويستمد من صبره قوة على مغالبة عوامل القنوط والاستسلام.

والمؤمن بالقضاء شجاع. لأنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما سبق في علم الله من موت أو حياة. والمؤمن بالقضاء أبي عزيز النفس لا يزل لأحد. والإيمان بالقضاء يحفظنا من رذيلة الحقد والحسد والسخط. نحن نؤمن بالقضاء، لأن الأحداث قبل أن تقع سر محجب عنا لا يعلمه إلا الله. وليس في استطاعة مخلوق أن يعلم المقدور. قال تعالى على لسان نبيه: (ولو كنت أعلم الغيب لا استكثرت من الخير). ويقول الحق تبارك وتعالى: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا). اهـ.

***

ولقد كان المسلم يردد دائماً هذه الحقيقة: أن الذي يعتقد أن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء، لن يرهب الموت، ولن

يخاف أحداً، وهو يدافع عن حقه، ويعلي كلمة أمته، وبهذه العقيدة واجه المسلمون أعداءهم، فنالوا منهم، وحققوا في تاريخ الإسلام أشرف صفحة من المقاومة وتأكيد الذات.

وهم لن يستطيعوا مواجهة خصومهم دوماً، وعلى مدى التاريخ إلا بمثل هذه العقيدة.

(٤)

هناك شبهات يرددها خصوم الإسلام، ودعاة العلمانية، والفلسفة المادية هي: محاولة إقران الأنبياء والرسل الذين أنزل الله عليهم كتبه ورسالاته بالعباقرة والمصلحين، فمن الخطأ المحض وضع الأنبياء في صف المصلحين ودعاة الحرية والوطنية، ومن هذا خطأ الزعم بأن الأنبياء «رجال أفذاذ قد ثاروا على معتقدات عصرهم، وحرروا أفكارهم، ووصلوا للحقيقة. بإدمان الفكر».

ومن شأن هذا أن يخدع السذج[1] من المؤمنين الذين قد يدق على أفهامهم ما يخفي هذا المذهب تحت مظهره البراق من خطر، فلا يفطنون إلى أنه يجرهم من حيث لا يدرون إلى إنكار الوحي، وإلى اعتبار الأنبياء فلاسفة ومفكرين تخضع الديانات التي جاءوا بها للنقد والتعديل، وللتفتيح والتهذيب. ثم إن هذا المذهب يدعو الناس ـ كل الناس ـ أن يسلكوا هذا الطريق الذي زعم أن النقطة التي بدأ منها الأنبياء وهي الشك في كل العقائد والآراء، وتخطي حرمة كل مقدس مصون، ولتكن النتيجة بعد ذلك ما تكون، والذين يذهبون هذا المذهب يركبون الشطط في تأويل المعجزات، وكل ما يتصل بعالم الغيب، فيقولون مثلا: إن المقصود بالشيطان هو العقل الباطن. وإن الجنة والنار حالات عقلية نفسية. وإن الإسراء والمعراج انتقال عقلي وروحي كالذي يحدث في الأحلام، وإن قصص القرآن وما جاء فيه من مثل خلق الدنيا وخلق آدم وخروجه من الجنة ليس إلا تمثيلا، وإن المقصود بإمداد الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله تعالى: (وأنزل جنودا لم تروها) هو قوة

---

(١) عن بحث للدكتور محمد محمد حسين، وآخر للدكتور محمد أحمد القمراوي.

الروح المعنوية. ومن الواضح أن الذي ينكر المعجزة لغرابتها وشذوذها عن المألوف خليق أن ينكر الوحي نفسه، لأنه أمعن في الغرابة وفي الشذوذ عن المألوف.

والذي يعتقد حقا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ينزل عليه جبريل مرسلا من عند الله سبحانه وتعالى، كيف يكبر عليه أن يسلم بما يجري الله على يديه من غرائب، وما يحفه من أسباب الرعاية التي تخالف مألوف العادة.

وتشير الباحثة (نازك الملائكة) إلى شبهة أخرى من الشبهات التي تتردد في حياتنا العقلية الحديثة، نتيجة إقبالها على قراءة آداب الغرب ونقلها إلى لغتنا. تقول: لقد أخذنا عنهم فيما أخذنا موقفهم من الدين، والتقطنا نظرتهم المادية إلى الحياة.

وموقفهم من الدين، يختلف اختلافا جسيما عن موقفنا نحن. فإن الدين الإسلامي يرتبط كل الارتباط بالفكر. وقد قامت حول القرآن أركان اللغة والأدب والفقه بحيث تعد هذه العلوم كلها تفريعات لعلم القرآن ترتكز إليه وتدور حوله. لا بل إن طلب العلم ونشره قد بقي هو نفسه واجبا دينيا مفروضا يؤديه الطالب والعالم قربى إلى الله.

ومن ذلك أن النحوي العلامة ابن مالك كان يخرج ويقف على باب مدرسته ويقول: هل من راغب في علم الحديث أو التفسير؟ قد أخلصتها من ذمتي. فإن لم يجد راغباً أو طالبا قال: خرجت من آفة الكتمان.

وتفسير ذلك أن العربي كان يعتقد أن لله حقا فيما استودع العلماء من فهم وعلم، وأنه أخذ عليهم البيان، فلا يصح لهم السكوت عن نشر العلم وإظهار الحق وتعرية الباطل.

أما في أوربا. فإن الدين يتصف بشيء من الانعزال عن الحياة، فلا يرتبط بالأدب والفكر إلا من بعيد.

فالغربي يعد الدين لله وأدبا للحياة، وكأن الحياة نفسها ليست لله. كما يعتقد العربي، وقد يعد الدين عن الحياة في الغرب، وهو أمر لم يعرفه المجتمع المسلم.

والمسيحية التي نزلت في بلاد الغرب قد فشلت في تحويل الغربي تحويلا

كاملاً عن وثنية آبائه، فبقـي ثنائـي المعتقـد يصلي لله، ويؤ مـن رغما عنـه بآلهـة الإغريق، حتى إنه يقسم في حياته اليومية (بجوبيتر) كبير آلهة الإغـريق، وهـو يذهب إلى الكنيسة، ولكنه لا يلبث أن يرجع إلى منزله ليقرأ الفلسفات اليونانية، ويكتب أدبا طالعه وثني تتردد فيه أسماء الآلهة الشريرة التي كان يعبدها اليونـان والرومان.

وإنما يصف هذه الآلهة بأنها شريرة لأنها كما قرر (سقراط) نفسه، لا تتورع عن ارتكاب الشر والجريمة والصغائر، فهي كالبشر، وإنما تتفوق في القـدرة على الإيذاء والظلم، وبسبب هذه الوثنية الغربية بقي المسيحيون العرب أوثق صلـة بالمسيحية الحقة من مسيحية الغرب.

ولقد دعا الغزاة وأعوانهم عبر السنين الماضية إلى أن نحتضن الثقافة الغربية بكل ما فيها دون ما تدبر، أو مناقشة. فكان مما أخذناه عنهم هذا الفصل العجيب بين الدين والحياة. وقد كان لذلك تأثير سيء في حياتنا وفكرنا، لأن الإسلام يكاد يكون هو الحياة العربية نفسها، فلا نستطيع انتزاع أحدهما إلا بانتزاع الآخر.

فقد كان الإسلام دينا إلهيا، وثورة سياسية وفكرية واجتماعية معا. ولذلك اهتزت له الأرض اهتزازاً خصبا، وأحدث انقلابا عميقا في مناحي الحياة معاً.

ولم يترك الإسلام في حياة العربي شاردة ولا واردة إلا ضبطها وأحصاها. فقد كان القرآن كتابا شاملا فيه اللغة والأدب والشريعة والأخلاق جميعا. فبنى عليه تراثه كله.

فإذا فصلنا الدين عن الحياة لم يكن معنى هذا إلا أن نفصل العروبة عن تراثنا وحضارتنا. ونحب أن نضيف إلى هذا: أن القرآن الكريم - باعتباره كتاب الدين الإسلامي والثقافة معا - سيبقى أبدا كتاب كل عربي مهما كان دينه. ولقد اتخذ الأدب الجديد الـذي ينشره اليافعـون العـرب موقف الغـربيين من الـدين، فظهرت فيه الوثنية مصحوبة بالإلحاد في أدنى مستوياته، بدافع التقليد والنقل.

فلا شك أن هذا الإلحاد أوطأ مرتبة من إلحاد مصدره شك يعتـري النفس فيضللها ويحيرها. وقد واكب هذا ابتعاد الجيل اليافع عن القرآن الكريم وما فيه من

أجواء روحية، وكنوز أخلاقية وثروة لغوية وأدبية، وكل ذلك لا يبشر بالخير، فإذا مضينا فيه قطعنا جذورها الحضارية، وأضعنا الروح العربي جملة.

(٥)

وأشار كثير من الباحثين إلى الأبحاث التي تتصيد مواطن الشبه والغموض في الشريعة الإسلامية، وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيرة السلف الصالح، ليفتن بها الأغرار الذين يدق عليهم وجه الخير والمصلحة فيما يساق من مزاعم، لأنهم لم يتحصنوا بالقدر اللازم من الثقافة الإسلامية الذي يمكنهم من اكتشاف مواطن الخطأ والتضليل فيما يسوقونه من أباطيل، وأسلوب المدامين في ذلك مشهور ومعروف . فهم يفترضون الغرض بما تمليه عليهم أهواؤهم وأغراضهم، ثم يلتمسون الأدلة على إقامته من النصوص الإسلامية، فيأخذون منها ما يؤ يدون به مزاعمهم. بعد أن يبتروه عما قبله ومما بعده. ويحرفوه عن موضعه. وينقلوه عن دلالته، ثم يهملون مالا يتفق مع مزاعمهم ويتجاهلونه.

وينظر القارىء الساذج من المسلمين فيما كتبوا، فيجد كثرة من النصوص المسندة إلى مراجع وثيقة، ولا يتنبه إلى ما فيها من تحريف ، و لا يتسع وقته لمراجعة ما أحاطها من سياق. وما حفها من أسباب، فتقع في نفسه موقع القبول والإقناع، لأنه لا يعرف ـ لقلة بضاعته من هذه الثقافات ـ أن هناك من النصوص الأخرى التي تنقض هذه المزاعم أضعاف ما ساقه الكاتب ، ولأنه لا يميز ـ لضآلة إلمامه بالعلوم الإسلامية ، وطرق روايتها ـ بين قويها وضعيفها.

***

وأشار الدكتور محمد محمد حسين إلى خطر استخدام نصوص الشريعة الإسلامية في تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية، وهو خطر أشد من تقليد هذه الأنماط تقليداً أعمى. لأن الناس يمكن أن يعيشوا على أمل التخلص من الدخيل إذا قامت فيهم حركة أصيلة للإحياء. أما في الحالة الأولى ـ وهي حالة اندماج وتفاعل ـ فإن إدراك الحدود بين الأصيل والدخيل تدق وتخفى حتى لتكاد

تستحيل ، لأن الناتج من التفاعل سيكون شيئاً معقد التركيب، تختلف خصائصه وصفاته عن كل من العنصرين المكونين له، ولأن الناس يدركون في حالة التقليد أن الذي يفعلونه شيء آخر غير الإسلام.

أما الحالة الأولى فسوف يرسخ في أذهانهم أن ذلك التفسير الحق للإسلام الذي يلائم ظروف الزمان.

***

ويشير الدكتور محمد محمد حسين إلى خطر آخر من هذه الشبهات المثارة في مواجهة حقائق الإسلام : ذلك أن البعض لا يعرض للدين بتصديق أو تكذيب، ولكنه يقارن بينه وبين ما توارثته الشعوب المختلفة من أساطير تاركاً للقارىء أن يستنتج من ذلك أن الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير.

والتعليل الصحيح لما نجده من اتفاق في بعض الأحيان بين الأديان السماوية، وبين بعض الأساطير مرده إلى أن هذه الأساطير الوثنية هي في حقيقة أمرها صورة محرفة من أديان سماوية سابقة: فالله سبحانه وتعالى يقول: (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير).

ومعنى ذلك أن هناك أدياناً سماوية ذهب بها أصحابها هذه المذاهب في التحريف ، فجعلوا الرسل الذين بلغوها أرباباً من دون الله[1].

---

(١) من بحث للدكتور محمد محمد حسين: اتجاهات هدامة في الفكر الغربي.

القضية الرابعة

الإسلام والحضارة المعاصرة

(١)

من الشبهات التي تثار حول الإسلام والفكر الإسلامي محاولة إلقاء ظل بالتبعية للفكر اليوناني الإغريقي ، أو الوثني المجوسي القديم . وهي محاولة لا يكف دعاة التبشير والاستشراق عن ترديدها . وهي دعوة ظالمة وشبهة لا يقوم دليل واحد على صدقها . ذلك أن لكل نظام إجتماعي فلسفته المعبرة عنه الخادمة لمصالحه . والفلسفة اليونانية كانت تعبيراً عن طبيعة المجتمع اليوناني ، وهو مجتمع عبودي قائم على السادة والعبيد ، وكانت الفلسفة اليونانية فلسفة تأملية خاصة تقوم على التجربة .

ولكن المجتمع الإسلامي كان يختلف اختلافاً كبيراً عن المجتمع اليوناني العبودي ، كان دولة مليئة بالإمكان والتفتح والامتداد ، وكانت في جوهرها حضارة عملية داخل إطار الإسلام .

يصور هذا المعنى الأستاذ محمود أمين حين يقول : عندما ترجمت الفلسفة اليونانية كان من الطبيعي للفكر الإسلامي في البداية أن يعكف على مناقشتها ، ومدارستها . وكان من الطبيعي أن يختلف موقف الفكر الإسلامي منها اختلافا بينا ، وهذا هو ما تحقق بالفعل .

في البداية كانت محاولة للتوفيق ، ثم قامت معارضة تشمل كافة جوانب الفكر الإسلامي ، وكانت معارضة نابعة من جوهر المجتمع الإسلامي نفسه ،

وحقيقة مصالحة ، وكانت امتداداً للفكر الإسلامي نفسه منذ ينابيعه الأولى في الفقه ، والأصول ، والنحو ، والبلاغة . حتى شمل الفلسفة والفكر بصورة عامة .

وكان من الطبيعي أن يتحقق هذا . فالفكر الإسلامي منذ بدايته لم يكن يفرق بين النظرة العملية التأملية . وبين الممارسة العملية . بل كان الجانب الأكبر من الفلاسفة أطباء ، ورجال أعمال يتمرسون بمسئوليات فعلية في جهاز الدولة ، ويقومون بأنفسهم بأشكال منوعة من التجريب العملي .

من خلال هذا التمرس العملي أخذ الفكر المسلم يكتشف قصور المذهب الأرسطالي الشكلي ، وأخذ ينتقد في (أرسطو) عدم اهتمامه بالتجربة .

وكان من الطبيعي أن يكون الفلاسفة المسلمون رجال عمل وتجربة ، فلم يكن مجتمعهم مجتمعاً عبودياً كالمجتمع اليوناني .

على أن التوحيد بين التأمل والممارسة العملية دفعت بالمفكر المسلم إلى نتيجة أخرى بالنسبة لفلسفة أرسطو هي أنها خرجت عن حدود النظرة الكيفية الغائبة إلى التحديد الكمي .

وفي هذا الاتجاه إلى الكم والتجربة خروج مباشر كذلك على مفهوم أساسي في منطق أرسطو وهو التعريف . وخرج المفكرون المسلمون على هذا المفهوم الأرسطالي للحد والتعريف ، وخاصة رجال الأصول والفقه ، وانتهوا إلى نظرة جديدة للتعريف تقربه إلى حركة الواقع .

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا بشكل عام إلى الخروج عن حدود القياس الأرسطالي إلى الحصول على نتيجة عملية ، وأصبحت عملية التجريب العملي ، لا عملية الاستخلاص المنطقي سبيلاً من سبل المعرفة .

المهم أن نذكر أنه بهذا « المنهج التجريبي » وبهذه القيم العلية والكمية . وبهذا التوحيد بين النظر والعمل ، وبهذه النظرة المتطورة للكون والإنسان ، بهذا كله اختلف الفكر الإسلامي اختلافا كبيراً عن الفكر اليوناني ، وتناقض معه في مختلف فروع الثقافة من علم وأصول وفقه وفلسفة عقلية ، ونظرة إلى الإنسان ،

ولم يكن هذا الاختلاف عابرا أو طارئا أو عفويا . وإنما كان نتيجة لاختلاف التكوين الاجتماعي للدولة الإسلامية . وللحضارة اليونانية التي عبرت عن نهايتها فلسفة أرسطو .

وعلى هذا يمكن القول بأن جوهر الحضارة الإسلامية جوهر عقلي عملي تجريبي حسي .

وملخص ذلك كله أن الفكر الإسلامي كان في جوهره فكراً تجريبياً ، تجاوز منطق أرسطو ، وأطل على التجربة العملية ، واتخذها مصدراً لعلمه وفلسفته .

على أن الشيء الجدير بالذكر هو : أن الفكر الإسلامي العلمي هو جوهر الفلسفة الإسلامية ، وأن الفلسفة الإسلامية بهذا ليست امتداداً للفكر اليوناني . بل كانت إضافة جديدة ذات طابع تجريبي كمي ، وكانت نقطة انطلاق - (عبر روجر بيكون ، وديكارت ، وفرانسيس بيكون ، وجاليلو) إلى نشأة العلم التجريبي الحديث .

***

وأشار الدكتور (علي سامي النشار) إلى جانب آخر من أوجه الخلاف فقال : « لقد حدد القرآن مسائل ما بعد الطبيعة تحديداً تاماً. وطلب عدم الخوض فيا خلفها . طلب منا أن نبحث في الكون وآفاقه ، ولكن لا نحاول أن نبحث في (الجوهر) . وذلك لقصور العقل الإنساني عن التوصل إلى الشيء في ذاته». ومعنى هذا أن الإسلام حال دون الأبحاث الميتافيزيقية على طريقة اليونان . فضلاً على أن الميثافيزيقا اليونانية هي : نتاج العقلية اليونانية ، وهي تعبير خاص عن ذات مقسرة في عالم متشائم ، والإسلام ينكر هيمان ذات مفكرة في التفكير الوجودي . ولا يوافق على تصوير الكون . تصويراً خاصاً ذاتياً مخالفاً لما وضح من صورة عميقة ، ولقد ألهم القرآن الكريم المسلمين ميتافيزيقاهم . في حدود هذه النظرة نستطيع أن نفهم الفوارق البعيدة بين الفكر الإسلامي والفكر اليوناني الإغريقي الهليني الذي ما زالت أقلام دعاة التغريب والغزو الثقافي تحاول أن تصور الفكر الإسلامي صورة منه باللغة العربية كما قال : (أرنست رينان) أو امتداداً له

وليس هناك أمر أشد تعارضاً واختلافاً كالأمر بين الإسلام والوثنية اليونانية . فقد قام الإسلام على التوحيد . بينما قامت الفلسفة اليونانية على عبادة الفرد ، وعبادة القوة ، وعبادة الأجسام .

وليست الوثنية التي يحاربها الإسلام - كما يقول الدكتور محمد البهي - هي وثنية العرب التي كانت قائمة على تعدد الأصنام وبعض الكواكب فحسب ، بل هي وثنية الإنسان على العموم ، وهي تقديس الشخص دون رعاية للمبدأ والمثال . وهي لا تزول من هذا الوجود ما دام للإنسان ناحية مادية ، وأخرى روحية . وما دام للوجود كله أيضاً جانبان : جانب ظاهري ، وهو الجانب المادي ، وآخر مستتر ، وهو الجانب المثالي أو المعنوي ، ولسهولة انجذاب الإنسان إلى الجانب المادي كان في حاجة على الدواء إلى الكفاح ضد هذه الوثنية . وقد هاجم الإسلام الوثنية ، وهاجم تعدد الآلهة ، ودعا إلى عبادة إله واحد لا يعرف شخصه ، ولا تحد حقيقته لأنه فوق الطبيعة ، وفوق ما فيها من أشخاص .

وقد كافح الإسلام ضد عبادة الأشخاص ، والذوات المشخصة ، وما زال بين الإسلام والوثنية صراع من أجل تقديس المبادىء دون الأشخاص ، وعدم الانقياد لفرد آخر دون رعاية لما يحمله من مبادىء . أو فكر مثالية . ولقد كان انقياد المسلمين للرسول ، لا لأنه محمد بن عبد الله . بل لأنه رسول الله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » .

هذا هو الخلاف الجذري الواضح بين الإسلام والفلسفة اليونانية ، وهناك خلافات أخرى كثيرة أهمها : القيم الأخلاقية . فقد كان اليونان يجعلون من العري مثلاً أعلى للجمال . بينما لا يقر الإسلام هذا الاتجاه ، ولا يرضاه في الأدب أو في المجتمع .

وقد أنكر الإسلام الأساطير وعرف الوضوح ، والصدق ، وانفتح على الباحات الواضحة المضيئة ، كما ارتفع الإسلام عن استعلان للشهوات واللذات . وإن أباح تنظيمها وفق ضوابط وأنظمة تحفظ النفس والجسد ، وتحفظ للمجتمع كرامته وأخلاقيته .

(٢)

من الأخطاء الشائعة . ذلك الإغضاء المتعمد عن أثر الإسلام في الحضارة الغربية ، وفي الفكر الغربي ، فهناك محاولة دائبة لإنكار هذا الأثر وتجاهله .

غير أن كثيراً من المنصفين كشفوا حقيقة الدور الذي قام به الإسلام والفكر الإسلامي في العلم الحديث ، والفكر البشري كله .

يقول العلامة (بريغولت) في كتابه «بناء الإنسانية» : Making of Humanity

لم يكن (روجر بيكون) إلاّ رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأنه تعلم من معاصريه اللغة العربية ، وعلوم العرب ، وهي الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

كان المنهج العلمي التجريبي في عصر (بيكون) قد انتشر انتشاراً واسعاً ، وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوربا ، ولقد كان (العلم) أهم ما جاءت به الحضارة العربية على العالم الحديث . ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

وأن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلاّ بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك المفازة وراء سحب الظلام .

ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة . بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية ، فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلاّ ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما يكون ، وأهم ما تكون في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متمايزة ثابتة . وفي المصدر القوي لازدهار العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، أنه يدين لها بوجوده نفسه .

فالعالم القديم كما رأيناه لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها من سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام ، فتمتزج كليا بالثقافة اليونانية .

وقد نظم اليونان المذاهب ، وعمموا الأحكام ، ووضعوا النظريات ولكن أساليب البحث في دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها . والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي كل ذلك كان غريباً عن المزاج اليوناني .

أما ما يدعى « العلم » فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضة إلى صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها « العرب » إلى العالم الأوروبي .

ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوروبي لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسي عليها . ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية في العلم الأوروبي هو تأثيره في : « العلم الطبيعي » و« الروح العلمي » وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث والمصدران الساميان لازدهاره .

إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدموه لنا من اكتشافات لنظريات مبتكرة ، وكشوف مدهشة . بل إن « العلم » يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا . إنه يدين لها بوجوده ذاته ، وبعد فإن هذه الشهادة كفاية عن أي قول ، ولكنها ليست هي الشهادة الوحيدة .فهناك عشرات .

يقول جورج سارطون في كتابه : تاريخ العلم : لقد بلغ المسلمون ما يجوز أن نسميه « معجزة العلم العربي » . وقد أوردت كلمة « معجزة » لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه المسلمون والعرب من الثقافة والعلم . مما يخرج تقريباً عن نطاق التصديق .

وليس لذلك شبه في تاريخ العلم كله . ويجب أن ندرك أن ذلك التطور الذي لا يكاد يصدق في العلم العربي لم يبدأ إلاّ منذ القرن الثاني للهجرة .

ويحاول نفر من المؤرخين أن يبخسوا قدر هذا الانتاج العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما . وبأن العرب لم يكونوا سوى مقلدين إن هذا الحكم ينطوي على خطأ فادح .

وأعظم الابتكارات العربية هي في مجال الرياضيات والفلك ، وعلم الحساب الجديد ، وعلم المثلثات الجديد . وتقول الدكتورة : « سجريد هونكه » في كتابها « شمس الله تشرق على الغرب » . يبدو أن الأوان قد حان بالنسبة للغرب . لكي يتحدث بكل صدق وإخلاص عن العرب . هذا الشعب الذي أثر بكل عمق في مجرى الأحداث العالمية ، والذين يدين له الغرب والإنسانية جمعاء بالشيء الكثير .

ولعل التعصب هو الذي حمل الغرب دائماً على تشويه منجزات العرب العظيمة ، وطمس مساهمتهم الأساسية . في الحضارة الأوربية . حين كانت أوروبا غارقة في ظلمات العصور الوسطى وجهالتها . وقف العرب على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون لشد ما يغبن حقهم من يكتفي بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم العربي بعد ما حفظوه من الدمار . فذلك يعني في الواقع التقليل من قيمتهم ، والسكوت عن الأمور الجوهرية في عملهم الحضاري ، وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير . والحقيقة أن سائر مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الغرب مدعومة بآثارهم .

إن قواميس اللغات الأوروبية تضج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير .

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها واصطلاحاتها . وكان العرب يعرفون النجوم وحركاتها ويفهمونها أعظم من الإغريق والرومان ، ويسمونها بأسمائها ، ويجمعونها في كوكبات تمثل مشاهد حياتهم اليومية .

وكان العرب يسعون إلى اكتشاف الجواب الوحيد على أية مسألة معينة ، ولا يكتفون ، من أجل ذلك بمشاهدة واحدة أو عشر مشاهدات . بل يقومون بالمئات منها . وقد حسنوا دون انقطاع ما يملكون من أدوات المشاهدة ، وبذلوا عناية أعظم في استقصاء السماء بحيث توصلوا إلى اكتشافات لا حصر لها ، منها تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم بصورة متزايدة الدقة .

لقد كان النور الذي أحدثته الشرارات المنطلقة من العبقرية العربية فائقاً للغاية . ولعل الطب هو أهم مجالات التفوق العربي .

في تلك الأيام كان منهج البركة والتعاويذ والصلوات هي أساليب العلاج الرئيسية التي يطبقها أطباء الغرب في سبيل تخليص البشر من أدوائهم الجسدية .

إن مآثر العرب الخالدة لتقدم في تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية . وإن العرب هم مبدعو « التجربة » بالمعنى الدقيق للكلمة وهم الخالقون الحقيقيون للاستقصاء العلمي . فقد كانوا أول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق . لكل بحث ، وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام ، وأصبحت الطريقة الاستقرائية هي الطريقة العلمية الأساسية . إن الفكر الغربي لم يستيقظ من ذلك الحذر الذي أثقل عليه طوال قرون . بل طوال ألف عام ، ويفرد جناحيه لكي يطير إلاّ بعد ما امتلك المعجزات العربية في الميادين التقنية والإدارية . ثم تبنى هذه المعجزات على المستوى الحضاري .

القضية الخامسة

الإسلام والنفس الإنسانية

(١)

حاولت قوى الاستعمار والغزو الثقافي أن تفرض على الفكر الإسلامي في مجال النفس والأخلاق مفاهيم تختلف اختلافاً أساسياً مع مقومات هذا الفكر ، ومتعارضة أساساً مع مقررات الإسلام .

وقد ظهرت نظريات متعددة في السنوات الأخيرة تجري مجرى الفصل بين الأخلاق والسلوك ، وبين الدين والمجتمع ، وتحاول أن تفرض مفهوماً غريباً كل الغرابة على النفس العربية الإسلامية التي تستمد شخصيتها وذاتيتها ومزاجها النفسي الاجتماعي من الإسلام الذي صاغها منذ خمسة عشر قرناً .

وتقوم هذه النظريات على إعلاء الغريزة واعتبارها مصدراً أساسياً لكل تصرفات الإنسان ، والدعوة إلى إطلاقها ، والتحذير من أخطار ما يسمى الكبت والأمراض النفسية .

وكذلك الدعوة إلى تأكيد الذات ، وتحقيقها بحرية التصرف دون تقدير « للضوابط » التي تحفظ كيان الفرد أو « الحدود » التي تحفظ علاقات الأفراد . وذلك في مواجهة خطر الموت أو الحرب الذرية .

وقد تعددت هذه النظريات ، واستشرى خطرها وأثرها في الفكر العربي ، والمجتمعات الغربية تحت تأثير عوامل تاريخية بعيدة المدى فرضت هذا التيار منذ وقت بعيد .

وكان ذلك نتيجة للصراع القوي الذي قام بين المسيحية ، وبين الفلسفة اليونانية ، وفي مواجهة كشوف العلم ومدى تقبل الطبيعة الأوروبية للدين ، ومدى نتائج ذلك الصراع الضخم بين العقائد السماوية ، والفلسفات الوثنية ، وما جرى من تحريف واضطراب في قيم هذه العقائد .

ويصور الدكتور (محمد البهي) هذه الأمة الضخمة في الفكر الغربي والمجتمعات الغربية فيقول[1] : نشأت هذه الفلسفة في المجتمع الأوروبي في القرن التاسع عشر . وكانت نشأتها نتيجة صراع بين ما للإنسان كإنسان بغض النظر عن قوة أخرى خارجة عنه ، وبين الإنسان كرسول وكمبشر بقوة أخرى خارجة عن الإنسان ، وذات صلة وثيقة بتوجيهه . نشأت نتيجة صراع بين الفلسفة المثالية الإنسانية ، وبين الاتجاه الإلهي في الكنيسة الكاثوليكية . وقد كان صراعاً مريراً وطويل الأجل .

والفلسفة المثالية ، أو الفلسفة الإنسانية تقصد إلى الغض من رسالة الوحي . أو بالأحرى إلى الغض من رسالة أولئكم الذين يتحدثون بإسم الوحي ، وهم رجال الكنيسة ، ولم يقصدوا إلى ذلك إلاّ بعد ما عابوا خطوات الكنيسة في سبيل توجيه الفرد والمجتمع الأوروبي .

فالكنيسة كانت تملي إملاء ما يعتقده الفرد ، وما يقوله ، وما يسير فيه في جانب البحث والفكر والسلوك ، وكانت تتخذ من نفسها وسيطاً في تحديد مصائر الأفراد ، وفي صلتهم بالله . وكانت تعطي لهم من صور الاعتقاد . وتطلب إليهم من أداء الرسوم ما يقف عنده العقل الإنساني مفكراً ومتسائلاً : لماذا ؟ . ثم لا يستطيع أن يجيب على تساؤله هذا ، ولا أن يحصل على جواب له من المختصين بشؤون رسالة الوحي . وهم رجال الكنيسة . فصكوك الغفران ، وعقيدة التثليث ، ورسوم كثيرة في العبادة ، وامتزاج الطبيعة الإنسانية بالطبيعة الإلهية ، أو حلول ما لله فيما للإنسان . كان دائماً محل تساؤل من العقل الإنساني الخاضع لإيمان الكنيسة .

---

(١) « الاسلام والفلسفات المعاصرة » : للدكتور محمد البهي .

ولذا نشدت هذه الفلسفة المثالية الحرية ، نشدت حرية الإنسان في تفكيره وحريته في تخطيط طريق سلوكه وحريته في تحديد مصيره ، وطلب إلغاء اعتبار صلة الإنسان بقوة أخرى تسمى ما تسمى من أسماء أو تنعت بما تنعت من صفات .

وكانت ترى أن الحرية هي كل شيء ، وجعلت من الإنسان سيداً لنفسه ، وسيدا على ما عداه في كونه ، خاصته - كما تقول - من الرق في التأثر بغيره ، وفي الاندفاع في طريق لم يرسمه الإنسان بنفسه ، ومن هنا سميت بالفلسفة الإنسانية .

ولأنها عظمت حرية الإنسان والقيم الإنسانية الأخرى ، وهي قيم تتصل بطاقاته وإمكانياته في الخلق والإبداع ، سميت فلسفة مثالية .
ولأنها أنكرت ما عدا الإنسان في وجود الإنسان ومحيطه ، واشتبكت في صراع ، وفي كفاح مع الكنيسة وتعاليمها ، ورمت الكنيسة بالجمود والرجعية ، وباسترقاق الإنسان واستذلاله ، ورمتها الكنيسة بدورها بالإلحاد والكفر والوثنية ، لأنها بدلا من أن تؤمن بالله آمنت بالإنسان ، وباستطاعته في الخلق والإبداع ، وطال الصراع بين الاتجاهين ، واستغرق القرن الثامن عشر كله .

وجاءت الفلسفة المعاصرة ، وهي الفلسفة المادية الواقعية ، ودخلت في الصراع مع الفلسفة الانسانية المثالية ، ومع الكنيسة وتعاليمها ، ورمت الفلسفة المثالية بأنها فلسفة خالية من حقائق الواقع ، وأنها جوفاء فارغة لا غنى فيها ، كما رمت الكنيسة وتعاليمها والدين عامة بالرجعية والتخلف والجمود ، ونعتت نفسها بالتقدم والتطور ، وأمعنت في تأييد ما نعتت به نفسها ، وما وصفت به غيرها من اتجاه فلسفي أو ديني .

وهكذا أخذت الفلسفة المادية تذيع دعواها المضادة للقيم التي جاءت بها الأديان والشرائع السماوية معارضة بها كل قيمة وكل مفهوم . وخاصة في مجال الأخلاق والنفس والتربية ، وتنظيم المجتمع ، وعلاقات أفراده ونظام الأسرة .

وكان أبرز هذه الدعوات : الفرويدية والوجودية . وإن كان من وراء هذه الدعوات عشرات من النظريات والدعوات التي تقوم في مجموعها على أساس الاستمداد من الوثنية اليونانية ، والتي يمكن أن توصف في مجموعها بأنها تحول

خطير جاء نتيجة التحدي الصهيوني اليهودي العالمي الذي ارتبط تاريخه بظهور هذه المذاهب جميعاً في مجالات الاجتماع والنفس والأخلاق .

ثم كان أخطر ما في هذا التطور وهو انتقال ميدان المعركة بين العقائد السماوية والنظريات الفلسفية إلى العالم الإسلامي في ظل نفوذ الاستعمار ، وضغط القوى الطامعة في السيطرة ، وواجهتها الحركة الصهيونية التي تقف وراء مخططات الغزو الفكري والتغريب .

ولا شك أن المسلمين والعرب يواجهون اليوم حملة ضارية من أخطر حملات الحرب النفسية والتشكيك وتشويه المفاهيم والقيم . وقد زادت هذه الحملة عنفا بعد (نكسة ١٩٦٧) واحتلال القدس . وهي تستهدف التأثير على أمتنا وحملها على الاستسلام والهزيمة ، وإذا كانت أمتنا قادرة دائماً على كشف هذه المخططات واعية لهذه المؤامرات . فإن من أخطر ما يواجهها الآن هو الحرب في داخل القيم . . هذه القيم التي هي السلاح الوحيد والأقوى في مجابهة الغزو ، ومواجهة العدو . . ذلك أن محاولة تحطيم مقومات أمتنا النفسية أو الأخلاقية والدينية . إنما هو الطريق إلى إخراج أجيال ضعيفة مهزوزة العقيدة ، ورخوة طرية لا تستطيع احتمال المقاومة والوقوف في وجه العدو . ولا شك أن أبرز أوجه الخلاف بين فكرنا الإسلامي ، وبين هذه الفلسفات هو :

أولاً : أن الإسلام يربط بين الدين والأخلاق في مختلف مجالات الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

ثانياً : قيام الضوابط في الإسلام كأساس لبناء المجتمع ، بينما تهدف الفلسفة المادية الوافدة إلى تجريد الفرد من كل الضوابط .

ثالثاً : قيام الإسلام أساساً حول مفهوم الإنسان على أساس تكامل بين الروح والجسد ، وتوازن بين الدنيا والآخرة ، وإقرار كامل بالبعث والجزاء والمسئولية الفردية ، وأن الموت ليس هو نهاية الحياة .

رابعاً : إعلان الجانب الجسدي والحيواني في الإنسان ، والإقرار بوجوده ، والدعوات إلى تنظيمه . وربما كانت صيحات الجنس الغربية هي رد فعل للتعاليم

الرهبانية القاسية التي قامت على بغض الجسد والإسراف في كبح رغبات البدن الطبيعية ، بينما يوازن الإسلام بين الروح والجسد ، ويفتح للرغبات الحسية آفاقاً كريمة لتحقيقها .

***

هذا ومن الأمور الواضحة المسلم بها أن آراء الفلاسفة ليست إلاّ نظريات ، وهي ليست بذلك علماً يقيناً قائماً على التجربة ، فالتجربة لا توجد إلاّ في مجال العلم وحده . أما في مجال النفوس والمشاعر والعقول . فإن كل ما يعرض لها ليس إلاّ نظرية فرضية تصح وتخطيء . فمن قصر النظر الإيمان بها واعتناقها كحقيقة واقعة . والنظريات الفلسفية تتغير من فيلسوف إلى آخر ، ومن عصر إلى آخر ، ومن بيئة إلى أخرى . وهذه النظريات قائمة بأصحابها وعصورهم وبيئاتهم ، وهي نوع من رد الفعل لظروفهم وواقعهم ولتحديات مجتمعاتهم .

ولا نستطيع أن ننسى معنا حقيقة أساسية قد ثبتت بمراجعة تراجم أصحاب النظريات الفلسفية ، فقد ثبت أن معظمهم كانوا مصابين بأمراض وعاهات لا تضع أحدهم في صف الإنسان السوى (ففولتير) كان مريضاً بالصدر (ونيتشه) كان مضطرب العقل . وقد جن جنوناً حقيقياً في آخر أيامه . (ومارسيل بروست) كان مصاباً بحالة نفسية غريبة ، وكان يعاني اضطرابا عصبيا مستديماً (وبيكاسو) كان من المجانين الخطرين (وبودلير) كان مضطرب العقل والنفس (وفرلين) لم يكن يفيق من الخمر . وكان (فرويد) يقاسى عقدة الاضطهاد ، واضطراب النفس (وسارتر) كانت لأولياته القاسية أثرها العنيف على مزاجه النفسي وآرائه .

(٢)

لم تكن آراء النظرية الفرويدية إلاّ مجموعة من الافتراضات والتقديرات التي كانت ثمرة عدة مصادر :

أولاً ـ تجارب (فرويد) مع المرضى والمصابين بالاضطراب النفسي . وقد قصر أبحاثه عليهم أربعين سنة ، فلم يلتق في دراسته بأي شخصيته سوية .

ثانياً - اتخذ (فرويد) من دراسة نفسه وطفولته قاعدة عامة للبحث ، وعمد من خلالها إلى استخلاص قوانين عامة . بينا لم يكن فرويد إلاّ فرداً يعيش في مجتمع يضطهد اليهود ، وينتمي إلى أقلية مكروهة . وأقل ما ينسب إليها : حب المال والتعصب والطموح الاقتصادي .

ثالثاً - كان (فرويد) نفسه مريضاً . فقد ذكر الدكتور (إيرنست جونر) أنه كان خلال طفولته ينسى نفسه في الفراش ، وكان في شبابه ينسى الأسماء ، وكان يدخن عشرين سيجاراً في النهار ليهدىء من سوراته العصبية ، وكان دائم العزلة ولا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلاً .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى . فإن نظرية (فرويد) لم تكن هي الثمرة الحقيقية لمدرسة التحليل النفسي ، ولكنها كانت وجهة نظر منها ، حيث اختلف معه شريكاه في النظرية (ادلر ويونج) اللذان رفضا إقرار وجهة نظره في إعلاء الجنس ، فانفصلا عنه .

وكان ما ذهب إليه (فرويد) أن الإنسان في جوهره حيوان كغيره من الحيوانات ، وأن غريزته الجنسية هي الأساس الأول لسلوكه في الحياة .

وأن غرائز الإنسان هي التي تحكمه وتسيطر على نشاطه . وأن الروح لا وجود لها على الإطلاق . وأن الضمير والدين والأخلاق والقيم العليا في حياة البشرية تنشأ من عقدرة الجنس . فهو على الجملة يفسر النفس والحياة كلها من خلال الجنس .

***

أما (أدلر) فكان يرى أن الشعور بالنقص هو : أهم في الأمراض العصبية من الأمور الجنسية التي بالغ (فرويد) في تصوير خطرها وعنده : أن الحقيقة الأساسية في الأمراض العصبية هي الشعور بالنقص ، وكل إنسان يتمتع بإرادة أساسية في القوة ، وبدافع ملح نحو السيطرة والتفوق ، فإذا وجد أن ينقصه شيء ينساق إما إلى الموت ، أو نحو جعل نفسه متفوقاً بطريقة ما . وعنده أن حافز تأكيد الذات ، وليس الدافع الجنسي هو القوة السائدة الإيجابية في الحياة . لذلك فهو

يتعرض للتثبيط من قبل محيطه ، ومن قبل حساسية الفرد الخاصة ، وهكذا يكون هذا الحافز منبع كل إنتاج من جهة ، كما يكون مصدر السلوك الخاطىء ، وعدم التلاؤم من ناحية أخرى .

ولا ينكر (أدلر) أهمية الدافع الجنسي ، ولكنه يعتقد أنه ليس له تلك الأهمية الشاملة في حياة الطفل التي ينسبها إليه (فرويد) .

وعند (أدلر) أن التفوق والسيادة بحسبانها هي الغريزة السائدة في الإنسان تجد وسائل تحقيقها بغير الحب الجنسي .

ويرى (أدلر) أن لكل إنسان قصداً في الحياة ، وأن لكل إنسان تقريباً نقصاً جسمياً أو إجتماعياً ، وأن العواطف لا تسوق الإنسان ، وإنما الإنسان هو الذي يخترع العواطف ، وأن قصد الإنسان في حياته هو موضوع أحلامه وخواطره ، وقد يكون أحياناً سبباً لأمراضه .

وعنده أيضاً أن هذا النقص الجسمي أو الاجتماعي مع الرغبة الملحة في التفوق ، هي التي تدفعنا إلى أن نعتاض عنها بكفاية أخرى .

ويرى (أدلر) أن النقص يكاد يكون هو السبب الأساسي للنبوغ ، لأنه يبني الشخصية من جديد ، ويحث النفس على التطلع والاستكمال[1] .

وقد عارض كثير من العلماء ما وصل إليه (فرويد) .

يقول (كارل فلوجل) في كتابه : (الإنسان والأخلاق والمجتمع) . إن مكتشفات التحليل النفسي ونظرية (فرويد) في ميدان الغريزة الجنسية قد صدمت شعور كثير من الناس فهم يشعرون أن علماء النفس حين يحاولون فهم البواعث التي ترتكز عليها القيم الخلقية والدينية والجمالية . قد يحطمون هذه القيم عينها . بل لعلهم يعملون فعلاً على تحطيمها .

وحذر (فلوجل) من نتائج هذه الأبحاث ، وخاصة ما يتعارض منها مع النظم والعقائد وقال : ربما كان علماء النفس قد يكونون هم أنفسهم من المصابين

---

(١) عن بحث هام عن فلسفة (أدلر) للدكتور (فاخر عاقل) .

بتلك العقد التي يحلو لهم الحديث عنها . ولذلك جاءت معظم أحكامهم مشوبة بالهوى ، قائمة على معرفة مبتسرة . وقال : إن علم النفس علم مهمته مقصورة على وصف حقائق الحياة العقلية وتصنيفها . فلا شأن له بالقيم ذاتها .

وقد أكد كثيرون من الباحثين ، ومنهم من تابع (فرويد) في كثير من رأيه ، ونشر فكره في اللغة العربية ، أن ما كتبه (فرويد) لا يمكن أن يسمى علماً ، وإنما أكثره فلسفة ، وأقله علم .

***

وأشار كثير من الباحثين الذين تابعوا مناهج النفس ، والتحليل النفسي إلى أن نظرية (فرويد) في حد ذاتها ، ليست إلاّ وجهة نظر معينة لم تلبث طويلاً في مجال التجربة ، وقوامها قوله : « إن معارضة رغبات الطفل في صغره تؤثر في تصرفاته إذا كبر » .

وقد عارض هذا الرأي علماء الإحصاء ، وعلماء البحث النفسي والاجتماعي الذين أعلنوا بعد دراسات طويلة بضرورة استخدام (الضرب) كوسيلة لتقويم الطفل ، ووصل العلماء إلى ما يناقض نظرية (فرويد) مناقضة تامة ، ووصلوا إلى أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل غير البيئة والوسط ، والحالة الاجتماعية ، فلا سبيل لإخضاع تربية الطفل لنسق واحد .

***

كما عارض (فرويد) كثير من الباحثين في مجمل آرائه . وقالوا : « إن (فرويد) أقرب إلى المتنبئين منه إلى العلماء ، وإنه يرمي بنظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمي ، أو السند الواقعي .

وإنها تقوم في أغلبها على الافتراض ، ثم يصدق ما يفترض فيبني عليه ، وكأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل ، وفيما يتعلق بالغرائز ، وهو يسميها الدافع الجنسي ، فإن الدراسات العلمية قد أثبتت بما لا يقبل الجدل : أن الدافع الجنسي يأتي في مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى كالدافع إلى الهواء أو الشراب أو الطعام .

ثم إن الدافع الجنسي يخضع للتربية بمعنى أننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسي ، ويتحكم فيه ، وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكناً فحسب . بل ضرورياً . وقد أمكن تنظم تصريف الشهوة والتسامي بها بكثير من الوسائل كالرياضة الجسدية أو الروحية أو الشعر أو الموسيقى » .

***

ويرى العلماء المتخصصون في مجال النفس أن نقطة الضعف في (فرويد) « كعالم » أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة عامة ، وحاول عن طريقها الوصول إلى قوانين شاملة ، بينما وهو يهودي يعيش في (النمسا) المتعصبة ضد اليهود ، فكيف يمكن أن يتخذ من وضعه كمضطهد في مجتمعه قاعدة لنظرية يطبقها على الإنسانية كلها .

والمعروف أن كل فلسفة في الحقيقة . إنما هي ردّ فعل لنفس الفيلسوف وعصره ومجتمعه ، وقد عرف عن (فرويد) أنه كان مريضاً ، وأنه كان يمر بأزمات نفسية ، وهو يعالج « مريضة » تتردد عليه بالهوى الجنسي هي « سيسلي » المصابة بعقدة (أوديب) فبينما كان (فرويد) يقوم بعلاج هذه الفتاة تكشف له عن نفسه أنه مصاب بعقدة (أوديب) وأنه كان يتجه إلى أمسه ، ويغار من أبيه ، وأنه اتهم أباه ظلماً بجريمة أخلاقية رهيبة .

إن أسطورة (أوديب) الإغريقية التي تتحدث عن أن أباه ارتكب جريمتين ، فقتل أباه ، وارتكب خطيئة أخرى ، ثم عاقب نفسه بأن فقأ عينه ، هذه الأسطورة جعلها (فرويد) حقيقة يؤمن بها . ومن أجل هذا أعلن كثير من الباحثين ، وفي مقدمتهم الدكتور (ناتان كلاين) نبذ طريقة (فرويد) في العلاج النفسي والعقلي . هذه النظرية التي ترجع جميع الاضطرابات النفسية إلى أسس جنسية بحتة ، وقال : إن هذه النظرية ليست إلاّ معولاً هادماً لعقول الشباب ، ومخدراً مميتاً لنفوس أبناء الشعب .

وقد حلت نظرية (إيفان بافلوت) محل هذه النظرية ومؤداها . أن البيئة هي المسؤول الأول عما يصيب الإنسان من إنحراف نفسي أو عقلي .

هذه هي مجمل آراء الغربيين في نظرية (فرويد) إذن فلماذا وهي النظرية الفاسدة المهلهلة إلى هذا النحو استطاعت أن تشق طريقها في عنف ، وتكتسح كل النظريات ، وتلتحق بالجامعات والمناهج العلمية ، حتى في بلاد العالم الإسلامي ، وهي نظرية غريبة عنه كل الغرابة ، وعنده من مناهجه في النفس ما يتفق مع ذاتيته وقيمه وتراثه النفسي والاجتماعي .

(٣)

كشف الدكتور (صبري جرجس) في كتابه (التراث اليهودي الصهيوني في علم النفس ونظرية فرويد) . عن السر في هذا التركيز الذي قامت به القوى المسيطرة على الإعلام والآداب والفنون في الغرب على نظرية (فرويد) واحتضانها على هذا النحو الغريب بالرغم من أنها لم تكن صحيحة علمية . وفي نفس الوقت خفتت أصوات النظريات الأخرى المعدلة والمصححة .

يقول الدكتور (صبري جرجس) : لفت نظري حقيقة كبرى : تلك هي العلاقة الوثيقة بين : (فرويد) رجل العلم والتحليل النفسي ، والفكر العالمي من ناحية ، وبين التراث اليهودي الصهيوني ، والصهيونية ، والعمل السياسي الديني العنصري من ناحية أخرى ، وكما تبدى لي ليست علاقة مصادفة ، ولكنها علاقة أصل ومسار وهدف .

وأشار إلى أن فرويد وأصحابه الذين حملوا لواء فكرته من بعده كانوا جميعاً من الصهيونية : (ساخس ، ورايك ، وسالزمان ، وزيلبورج ، وشويزي ، ووتيلز ، وفرانكل ، وكاتز ، وفينكل) .

وأشار إلى عدة عبارات وردت في كتابات يهودية لفتت نظره إلى ما يراه الآن من علاقة بين الصهيونية ونظرية (فرويد) .

وذلك ما أشار إليه « باكان » في بعض خفايا التراث اليهودي الصهيوني لها علاقة بالتحليل النفسي . بل إلى ما ذكرته صراحة الكاتبة (ترود ، وايز ، دوز ، مارين) عن كيف تحتقر اليهودية الصهيونية العقل الغربي مزيفة في سبيل ذلك

وقائع الماضي وأحداث الحاضر ، آمنة بعد ذلك من الافتضاح ، ومطمئنة آخر الأمر إلى التصديق .

ثم يتساءل الباحث كيف لم ينتبه أحد . وقد ناهـز عمـر التحليل النفسي الفرويدي سبعين عاماً ؟ وكيف لم ينتبه أحد إلى هذا الأمر ؟ وكيف فاتـت هذه العلاقة بين الفكر التحليلي ، والفكر الصهيوني ، جميع من شغلهم التحليل النفسي من تابعوه ومن نقدوه ؟ .

ويقول : إن مفاهيم التحليل النفسي قد قدمت في أواخر القرن الماضي في إطار علماني . ثم ما لبثت الأبواق الخفية والمقنعة للدعاية اليهودية الصهيونية أن أحاطت هذا الفكر وصاحبه بهالـة من النزاهـة الفـكرية ، منعـت حتـى أعنف معارضيه من أن يستريبوا حتى في أصوله وإن أنكروا مفاهيمه ، وذلك على الرغم مما تسرب في كتابات (فرويد) وأصحاب فكرة من عبـارات تكشف عن يهـودية صهيونية واضحة التعصب . وقد فات مدلول هذه العبارات الأكثرين من الناس حتى رفعت الصهيونية العالمية كل الأقنعة التي تتستر وراءها . وظهرت واضحة لاخفاء فيها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية من ناحية ، وحتى انصرف أحد أبنائها : (دافيد باكان) ينقب في حفريات التراث اليهودي الصهيوني محاولاً الربـط بينـه وبين الفكر الفرويدي .

ويقول الدكتور (صبري جرجس) : إن الفكر الفرويدي المنبعث أصـلاً من التراث اليهودي والصهيوني كان يهدف أساساً إلى تقويض الأسس التي تقوم عليها حضارة الغـرب ، وإن هذا الفـكر لم ترد به أية دعـوة انحـلالية صريحـة (وكذلك الوجـودية) وإنمـا كانـت الإيحـاءات الانحـلالية تتخلل المفـاهيم الفرويدية ، ثم قامت أجهزة الإعلام الصهيوني بتقديم هذه المفاهيم لتنظيم الأدب والفن على نحو يغري الناس بالتحلل وييسر لهم سبله .

والمعروف أن الدعوة الضمنية وخاصة إذا مست (قيما) يحرص الناس على بقائها . وقد تكون أشد فاعلية في زعزعة إيمانهم بها من الهجوم الجريء السافـر عليها .

ويلاحظ الدكتور (صبـري جرجس) أن التحليل النفسي (الفـرويدي)

يكون لدى أصحابه وحدة عضوية ، وأيدلوجية . إما أن تقبل كلها أو ترفض كلها ، ولا سبيل فيها إلى التجزئة ، ثم يصل الباحث إلى الحقيقة التي تقول بأن هناك علاقة أكيدة بين نظرية (فرويد) في النفس التي هزت الفكر الإنساني كله ، وأثرت فيه ، وبين الصهيونية ومخططاتها ، وأن هذه النظرية وتطوراتها تسير جنبا إلى جنب مع المخطط الصهيوني في مجالاته المختلفة عاملة على تحقيق الأهداف الصهيونية .

وإن التحليل النفسي الذي ابتدعه (فرويد) مع ظهور الحركة الصهيونية منذ سبعين عاماً . لم يكن « علما مجرداً » ولكنه وثيق الصلة في جوانبه المرضية والحضارية معاً بالفكر اليهودي الصهيوني الذي ظهر في التراث منذ عهد التوراة وما بعدها . وأنه من أجل ذلك سخرت الصهيونية اليهودية حربها الإعلامية والدعائية لنشر مفاهيمه ، والدعوة له في أوسع نطاق مستطاع حتى أصبحت (الفرويدية) من أقوى العوامل أثراً في التوجيه الفكري والخلقي لعالم الغرب . وقد كان (فرويد) يهودياً حقاً ، وعضواً عاملاً وفخريا في بعض المنظمات ، وصديقا شخصيا (لهرتزل) .

وعندنا أنه لا يستبعد أن يكون (هرتزل) هو الذي أشار عليه بهذا العمل ضمن مخطط الصهيونية السياسي والاجتماعي للسيطرة على الحضارة والمجتمعات العالمية .

ويقول الدكتور (صبري جرجس) أخيرا : « إن العلاقة العضوية والمصيرية والمصلحية بين اليهودية والصهيونية والاستعمار الإمبريالي من ناحية ، وبينها وبين التحليل النفسي الفرويدي من ناحية أخرى قد جعلت من الحركات الثلاث . « ثالوثا » قوامه العنصرية ، وروحه الاستعلاء ، ووسيلته الإفساد ، وهدفه الاستغلال ، وهو بشكل يواجه البشرية ومستقبلها » .

ويمكن العودة الى ما دعت إليه الصحافة الصهيونية في أعقاب عدوان يونيه ١٩٦٧ حين طالبت بالمزيد من الحرب النفسية ضدنا ، ودعت الى المضي في استخدام علم النفس (الفرويدي طبعا) أعمق وأدق ، وذلك لأن علم النفس علم يهودي ، وخليق باليهود بصورة أن يكونوا أقدر الناس على استخدامه .

ولكي تكتمل الصورة لا بد أن نورد هنا ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون من إشارة مماثلة ، قالت البروتوكولات : « لقد رتبنا نجاح (دارون ، وماركس ، ونيتشه) بالترويج لآرائهم ، وأن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد » . وقالت البروتوكولات : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان ، فتسهل سيطرتنا إن (فرويد) منا ، وستظل تعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر إرواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تنهار أخلاقه » .

وبروتوكولات حكماء صهيون ترسم مخطط السياسة الصهيونية اليهودية للسيطرة على العالم . وقد كتبت عام ١٨٩٧ .

(٤)

أما النظرية الثانية التي تحاول أن تواجه الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي بقيم ومفاهيم تتعارض مع أصول هذا الفكر ومقوماته المستمدة من القرآن الكريم ، والقائمة على التوحيد ، فهي النظرية الوجودية . التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالنظرية الفرويدية ، وتكاد تكون ثمرة لها امتدادا من الفلسفة المادية في تطورها وغايتها .

فالفلسفة المادية : لا تسلم بوجود الروح ، ولا القوى الغيبية ، وهي لا ترى أن القيم الاجتماعية العقلية والتعاليم الروحية قيم باقية لا يعتريها التبديل والتغيير ، وهي ترى أن الدين ليس فطرة ، والجريمة ظاهرة سوية ، والزواج ليس من الفطرة ، والجنس هو الدافع الوحيد للشخصية ، ومفهوم الاباحة والجنس هما أبرز دوافع الإنسان . ويجري هذا الاتجاه كله من امتداد عنوان « الإنسان حيوان » .

وتقوم النظرية الوجودية على أساس : رفض الحياة والقول بالعدمية وهي تربط نفسها بالدعوة الى تحرير الإنسان من كل القيود ، كما تقوم النظرية الفرويدية لتحرر الإنسان من الكبت .

فالنظريتان تقومان حول أخلاق الانسان ونفسيته ، وتستهدفان تدمير وجوده بتحرره واطلاقه من كل القيم والمقومات - والضوابط .

والوجودية في نظر الباحثين في مجال الفلسفة الغربية هي « فلسفة[1] عدمية سلبية من ألفها إلى يائها . تود أولاً وقبل كل شيء أن تقتل التفكير ، وتشل القدرة على استخدام العقل ، فهي تقول يجب أن تقتل في نفسك العقل والمنطق إذا أردت لنفسك « خلاصا » إذ أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بهما « والمذهب الوجودي » قائم على عدم الاعتراف بالعقل ، وعدم الاعتراف بالعقل هو عدم اعترافه بكل شيء ، ولا يتنبه إلا إلى ذلك الجزع النفسي الذي يملك على الإنسان حسه ونفسه جميعا والى ذلك الشعور بالقيء أو الغثيان الذي يسيطر عليه عندما يواجه العالم .

وتنادي الفلسفة الوجودية بنفي الألوهية والدعوة الى عبادة الذات ، فالإنسان في نظرها يجب أن يستمتع بوجوده كل الاستمتاع ، ويطلق لحريته العنان ، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتع والملذات باعتباره إله نفسه وسيد كيانه .

وفي رواية الذباب « لساتر » يقول : أورست مخاطبا « جوبيتر » رب الأرباب : « سيدي الإله : كان عليك ألا تخلقني حرا ، وما إن خلقتني حتى انفصلت عني ، وتخليت عن نسبتي إليك . فإنما لم أعد ملكا وليس ثمة في السماء من خير أو شر ، وإنسان يصدر إلى الأوامر لن أعود أخضع لشرعك ، ولست محمولا على الخضوع لغير شريعتي ، أنا . لانني إنسان يا جوبيتر . وعلى كل إنسان أن يبتكر طريقه بنفسه » .

وتعد الوجودية : ثورة على مفهوم الدين في المجتمع الغربي امتدادا لثورات (نيتشه ، فرويد ، وماركس) .

وقد أعلن أحد دعاتها البارزين : « هرجرد » حربا لا هوادة فيها على الإيمان المسيحي كله ، لأنه كما يقول : لا صلة بينه وبين العقل ، فإذا عدنا إلى شخصية (كيركجورد) إمام الوجودية في العصر الحديث وجدناه شخصية منحرفة ممزقة .

---

(١) الأستاذ يحيى هويدي : كتاب عن الوجودية .

شأنه في ذلك شأن شخصية (نيتشه) . أمه كانت خادما تزوجها أبوه سرا . وكان هو أحدب مما ضاعف علته النفسية ، وزاد شعوره بالنقص . فاعتزل المجتمع وعاداه ، وكانت مؤلفاته العشرون هجوما عنيفا على معتقدات مجتمعه الديني ، وهداما للدين الغربي . ودعوة للناس الى عدم الإيمان بأنفسهم . ومن هنا كانت الوجودية دعوة صريحة ضد المسيحية الغربية ومحاولة لهدمها ، وحربا سافرة على الأديان كلها . وقد تابع (سارتر) الفلاسفة الغربيين الذين حاولوا منذ ١٨٨٠ إنشاء « أخلاق لا دينية » هذه الدعوة الأخلاقية المنفصلة عن العقيدة ، والتي تجعل أساسها عدم وجود « إله » . وقد جاءت نظرية (سارتر) كرد فعل لشخصيته وأزمات حياته ، ولتحديات الحرب العالمية الأولى والثانية للمجتمع الأوربي عامة ، والفرنسي خاصة .

ومجمل آراء الوجودية من نصوص سارتر :

● الله افتراض غير نافع ، وهو يكلفنا كثيرا . فنحن نلغيه .

● هذا العالم وجد بغير داع ، ويمضي لغير غاية .

● يوجد كل موجود بدون سبب عقلي وبدون داع ، وتمتد حياته بواقع من الضعف . ثم يموت بالمصادفة .

● العالم كله خداع ، إننا موجودون بدون سبيل عقلي ، وبلا داع . والعالم يمضي لغير غاية .

وملخص النظرية الوجودية :

● إن أزمة العصر هي غرابة الإنسان عند ذاته . فإن التقدم التكنولوجي قد جعل منه ترسا في ماكينة أو قطعة غيار في جهاز . وتدعوا الوجودية الإنسان فتقول : أنت مطلق الحرية فاصنع ما شئت . فإن الحياة كلها سخف يورث القلق والضجر .

وقد وجه الغربيون النقد للنظرية الوجودية من حيث إنها :

١ ـ تجعل الانسان في عزلة عن الجماعة .

٢ ـ إنها تستطيب إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الإنسانية .

٣ ـ إنها تبطل الأوامر الإلهية ، وتنكر القيم الخالدة .

***

وقد وصفت الفلسفة الوجودية بأنها فلسفةالانحلال ، أو فلسفة العدم . إشارة إلى أنها فلسفة الحادية لا تؤ من بما وراء الحياة ، وإن كانت تؤ من بالحياة وحق الفرد في أن يعيش . وهي في نظر الاجتماعيين مذهب فلسفي منحل ، يقوم على تفكيك الوعي العام ، وفي نظر الأخلاقيين أنها فلسفة اجتماعية رجعية ، تقوم على أساس إنكار الوجود الإلهي ، فهي تبدأ برفض التبعية للدين ملتزمة أن تتخذ لها موقفا من مشكلة إرادة الإنسان وحريته ، فهي تقول إنه « إذا كان الله ليس موجودا ، فكل شيء مباح » . وهذه نقطة البدء في فهم الوجودية كما قال (سارتر) نفسه : من هنا يتضح أن الوجودية لا تعنى من الحرية إلا الفوضوية في أجلى معانيها .

كما تنكر الوجودية كل محصول البشرية من التجارب في الماضي ولا تأبه به . بل تنادي بضرورة تجاهله ، وأن يبدأ الإنسان من جديد تماما كالإنسان البدائي .

وتحتقر الوجودية العلم ، وتنكر قيمته ، وليس في الوجودية شيء واحد يفتح الطريق أمام أي تصرف أو عمل لتغيير الواقع الاجتماعي ، بل على العكس من ذلك تحاول أن تغلق كل سبل العمل من أجل مجتمع أفضل وسيطرة أكبر على الطبيعة .

ويصور (سارتر) موقفه تماما حين يقول : لقد صنعت ذاتي لأني لم أكن ابنا لأحد ، والإنسان لا يوجد بل يصنع نفسه .

فمذهب (سارتر) مستمد من تحديات حياته شخصيا ، فإنه ولد وليس له أسرة ، ومات أبوه في الشهر الثالث ، ولم تشعره أمه بحنان أمومتها ، وكانت الأسرة التي عاش فيها مكونة من جدين عجوزين كانا يؤ ذيانه هو وأمه ، ويشعرانها بأنهما ضائعان .

وقد أدى هذا الجو النفسي (بسارتر) الى تكوين نظرية للبشرية ، وهي نظرية مليئة بعطف مشوه أساسه الاحتقار فأنكر الكنيسة . ومن هنا أراد أن يؤ كد ذاته بأن له رسالة ، وهو الطفل المنبوذ في مجتمع يرعى الأطفال العاديين .

وقد وصف الباحثون الغربيون الوجودية : بأنها الملل والقلق والعبث والسأم والرفض والتوتر والشعور بالاغتراب والغثيان ، وأنها مرض الإنسان في منتصف القرن العشرين . وذلك على حد قول (سارتر) : اليوم كغد ، والغد كبعد الغد ، وأنه لا طعم لشيء ، ولا لذة ولا أمل في شيء . ويقول (البير كامي) فيلسوف الوجودية : إن التمرد هو الحل الوحيد لكل ما في الوجود من (لا معقولية) ويترتب على التمرد كحل للتجربة العبيثة : رفض كل التصورات الميتافيزيقية . خاصة فيما يتصل بقضية الحرية وجود الإنسان ، ووجود اللحم والدم، وهو وجود محدود، وبسبب المحدود لا ينبغي أن يطلب الإنسان كليات لا سبيل الى الوصول اليها.

والبير كامي كسارتر ، تقوم فلسفته الوجودية على : اليأس والتمزق النفسي . يقول : ما دمنا نتحدث فليس لأي شيء معنى ، إن مغامراتنا البشعة لا جدوى لها .

ويقول : إن هذا اليأس والتمزق النفسي قد ولدهما الخواء الروحي والفراغ . وقد رافق الفراغ تمزق على النطاق الاجتماعي ، فأصبحت البشرية شاردة لا تؤمن الا بالمتاع .

وقد وصف (جاك بيرك) الوجودية بأنها ظاهرة زمنية عابرة لن يلبث الانسان أن يتخطاها وهي ليست روحا .

وليست فلسفة الوجودية فلسفة جديدة . بل هي قديمة قدم الإلحاد والوثنية وأصولها موجودة في الفلسفة الإغريقية ، ومنها استمدت علاماتها وأساطيرها . فقد أنكر (أبيقور) وجود الآلهة والبعث . ودعا إلى اغتراف الحياة دون ضوابط أو حدود للحريات .

وقد ابتعثت القوى الهدامة[1] هذه الدعوى ضمن عشرات من المذاهب والدعوات التي أخذت تزداد سيطرة على الآداب والفنون في العالم كله ، وتضيع

---

(١) ظلت كتابات (كيركجورد) مجهولة نحو مائة عام ، ولم تترجم ، وتنل هذا الأهتمام الشديد الا أوائل هذا القرن .

المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية ، كما ابتعثت هذه القوى مذاهب السحر والغنوصية والإباحة والإلحاد من الفلسفات القديمة ، وأعادت صياغة مذاهبها ومفاهيمها على نحو عصري في طابع علمي براق ، مستهدفة إغراء الشباب بها قبل أن يستكمل ثقافته الأصيلة أو سن الوعي والرشد الفكري ، مستغلة عواطفه وغرائزه بشتى وسائل الإغراء عن طريق وسائله المختلفة في القصة والأغنية . ومن خلال السينما والإذاعة والصحافة . والهدف واضح كما حدده الصهيونية العالمية والقوى الاستعمارية في مخططاتها .

وأمامنا تجارب واضحة كشفت عنها كتابات بعض المثقفين الذين عجزوا في مطالع حياتهم من الحصول على مؤلفات غربية وإسلامية تكشف لهم جوهر الإسلام ، وحقيقة الإيمان بالله في أسلوب حديث ووفق مناهج العصر . بينما وجدوا في أيديهم أمثال (هكذا قال زرادشت) لينتشه و (لاعترافات فنى العصر) لشاتوبريان وغيرها من الكتب الأجنبية المترجمة الى العربية ، والتي تخوض تجربة الايمان والإلحاد . وقد أشار هؤلاء المثقفون في مذكراتهم إلى أن هذه الكتب هي التي دفعتهم في طريق التحلل والإلحاد حيث لم يجدوا مؤلفات تصحيح المفاهيم أو ترد على الشبهات تعصمهم من الذلل .

(٥)

هناك سؤال هام : لماذا ونظرية النفس الفرويدية ، ونظرية الأخلاق الوجودية على هذا النحو من الاضطراب علميا . ومن الشبهة الخطيرة في اتصالها بالصهيونية والغزو العالمي لقيم الأمم وعقائدها . لماذ نحفل بهما ، ونروج مفاهيمها في أوساطنا وفكرنا ؟ إنما يرجع ذلك في الحق إلى آثار النفوذ الاستعماري التي لم تزل بعيدة الأثر في مناهجنا الفكرية والتربوية والتعليمية !

وإلى أمر آخر أشد أهمية وخطرا هو أننا قد نغفل عن أن للفكر العربي الإسلامي نظرية متكاملة في مجال النفس والأخلاق . وهي نظرية أصيلة تستمد من مقومات الإسلام والقرآن . ومن الذاتية العربية الإسلامية . وهي نظرية تختلف اختلافا جوهريا عن نظرية (فرويد) في شمولها وفي ارتباطها بالقيم الإنسانية

الأساسية التي لا سبيل إلى تجاهلها . فضلا عن أنها نظرية بناء الإنسانية ودفعها الى القوة والنماء والتماسها الفطرة والحق . وتقوم النظرية الإسلامية على دعائم أساسية أهمها[1] :

أولا : أنها تأخذ الكائن البشري على ما هو عليه ، ولا تحاول أن تفسره على ما ليس من طبيعته ، كما تصنع النظم المثالية ، مع تهذيب هذه الطبيعة الى أقصى حد مستطاع دون أن تكتب شيئا من النوازع الفطرية أو تمزق الفرد بين الضغط الواقع عليه من هذه النوازع ، وبين المثل العليا التي ترسمها له .

ثانيا : الإنسان في نظر الإسلام كائن لاهو بالملاك ولا هو بالشيطان ، مشتمل على الخير كما هو مشتمل على الشر ، له نوازع فكرية تربطه بالأرض ، ونزعة فطرية أيضا ترتفع به الى السمو ، يهبط ويرتفع في حدود طاقاته الطبيعية وعناصره المكونه له .

ثالثا : الغاية العليا للإسلام : إيجاد التوازن في نفس الفرد ، مما يؤدي إلى التوازن في المجتمع وسيلة أن يمسك الإنسان من خيط الصعود ليساعده على موازنة الثقل الذي يجذبه إلى الأرض . والإسلام يكره فقدان التوازن ، ولو كان إلى أعلى ، لأنه يحرص على أهداف الحياة العليا التي لا تحقق بغير الاستجابة لنوازع الأرض ، كما يهدف الى تنظيف الوسائل التي يستجيب بها الفرد لنوازعه حتى ترتفع الحيادة كلها ، وتصبح كريمة .

رابعا : لا رهبانية في الإسلام : الرهبانية ارتفاع بالحياة على نوازع الجسد ، وتطهير للروح ، ولكنها في الإسلام اختلال غير متوازن يعطل أهداف الحياة .

خامسا : الإسلام يسعى إلى التوازن الدائم بين أهداف الحياة ، وضرورات المجتمع ، ونوازع الفرد دون أن يطغى هدف على هدف .

سادسا : الإسلام يعترف بالكائن البشري ، كما هو . فيحقق رغبات

---

(١) انتفعنا في هذا البحث بمراجعات هامة لكتاب (الانسان بين الاسلام والمادية) وكتابات الدكتور محمد محمد حسين والدكتور محمد البهي .

جسده وعقله وروحه ، كما يعترف بالنشاط الحيوي للإنسان ، وبحق الفرد في أن يزاول هذا النشاط في حدوده المعقولة التي لا تؤذي المجتمع ، ولا تؤذي الفرد .

سابعا : الإسلام لا يعترف بما يسمى (الخطيئة الموروثة) ولا يعرف التزام أحد بذنب أحد آخر ، « ولا تزر وزارة وزر أخرى » بل أمانة ومسؤولية فردية ، وهو بإقامة التكليف يعطى الإنسان القدرة على أن يصل إلى أعلى درجات الإنسانية بالعمل الصالح والإيمان معا .

ثامنا : ليست الحرية في الإسلام انطلاقا من القيود والضوابط . وفرق بين الكبت والضبط .

تاسعا : أعلن الإسلام التوازن بين روح الإنسان وجسده ، حتى لا يقع في متناقضات تفسد حياته وفكره ، وتجعله عاجزا عن تحقيق إرادة وجوده كخليفة لله على الأرض .

عاشرا : إن الخطيئة في الإسلام ليست غولا يطارد الناس ، وليست خطيئة آدم سيفا مصلتا على كل البشر ، ولا تحتاج إلى فداء ولا تطهير : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه)

حادي عشر : إن الأخلاق لا تنفصل في الإسلام عن العقيدة ، فإذا انفصلت الأخلاق عن معينها الأصيل (العقيدة) لم تستطع الصمود أو البقاء .

ثاني عشر : ربط الإسلام الاعتقاد بالجزاء في الآخرة بالاعتقاد بالله ، وجعل الإيمان بالبعث والجزاء جزءا لا ينفصل عن التوحيد .

ثالث عشر : عني الإسلام بتكوين الخلقية في الإنسان ، وتكوين الضمير الديني ، حتى يكون ذلك ضابطا يحول دون أن يتجه علم الانسان وسيادته في الكون إلى الافناء والتخريب بما يعصم العلم والسيادة والقوة عن أن تستخدم من غير صالح البشرية عامة .

رابع عشر : التوازن : من أبرز مقومات الإسلام التوازن بين مختلف القوى الإنسانية : بين الروح والجسد ، وبين الأشواق العليا . ونزعات الغريزة . وبين

الخضوع لضرورات الحياة والتسامي الى طلاقة الأفق الأعلى . يقع الإسلام في نقطة الوسط بين أفكار البشرية المتطرفة ، وبين الكبت الذي تفرضه بعض النظم والعقائد والانطلاق الحيواني ، وبين الفردية المتطرفة ، وبين الجماعية التي تقضي على كيان الفرد بين المادة المغرقة التي تحدد الحياة بما يقع في محيط الحواس ، والروحانية المغرقة التي تهمل عالم المادة ، وتتعلق بالروحانيات والخيال .

(٦)

للفلسفة المادية نظرتها الى الانسان وللاسلام نظرته . فأي النظرتين أقرب الى الأصالة والفطرة . وأكثر إخلاصا للإنسان نفسه وعملا لتحريره ؟

الإنسان في الإسلام مخلوق لغاية ، فلم يخلق عبثا ولا سدى . والفرق بين الإنسان والحيوان ، إنما يكمن في العقل والقدرة على التفكير . وذلك التكليف الذي أطلق عليه القرآن الكريم اسم « الأمانة » فالانسان خلق خلقا متميزا في طبيعة تركيبه وفي وظيفته ، وغاية وجوده ومآله ومصيره ، وأنه قد وضع موضع الامتحان بالحياة والابتلاء بها ، والمحاسبة في النهاية على سلوكه فيها هذا السلوك الذي يقرر جزاءه ومصيره .

وقد هدى الإنسان طريقي الخير والشر ، وكشفت له رسالات السماء مفهوميها ، ونتائج السير في كل منهما (وهديناه النجدين) .

وقد كان الدين عامة ، والاسلام بوصفه خاتم الرسالات السماوية دعوة الى تحرير الانسان من الشر ، ووضعه على طريق الله الحق .

وقد اعترف الإسلام للانسان بكل دوافعه وغرائزه . ومنها الطاقة الجنسية ، ورغبان الطعام ، والملبس ، والزينة . ولكنه حفظا لشخصية الانسان من الانهيار والتدمير ، وضع « ضوابط » منظمة ، وكفل ذلك داخل نطاق الأسرة والزواج ، وعني بتربية الارادة لتكون عاملا في كبح جماح النفس دون عنان الشهوات .

وقد أكد الإسلام ترابط الروح والجسد في الانسان ودعا الى التوازن بينهما ، حتى لا يقع التناقض أو ما يسمونه في لغة الفلسفة الحديثة : الرفض ، والمسلم لا يكون رافضاً أبدا . لأن توازنه بين الماديات والروحيات ، وبين العقل والقلب ،

وبين الدنيا والآخرة يجعله منطلقا الى غايته في طريق وسط مأمون . ولن يحدث الاضطراب الذي يزعزع النفس الانسانية ، ويدفعها الى الاحساس بالغثيان أو الضياع الا إذا فقد الانسان عنصرا من العنصرين المتكاملين في داخله وأعماقه .

وفي الإنسان وفق مفهوم الإسلام عنصران : عنصر ثابت لا يتغير مهما تغيرت الظروف ، ومهما تغيرت حياته على الأرض ، لأنه يتصل بحقائق أزلية ثابتة لا يدركها التغيير . وفيه إلى جانب ذلك عنصر متغير ، أو صورة متغيرة من الجوهر الثابت ، أو حالات متطورة للكيان الدائم ، ولكنها مع تغيرها وتطورها لا تخرج بالإنسان عن كونه الإنسان ، ولا تنفصل لحظة واحدة عن كيانه الدائم بحكم وحدة النفس الانسانية وترابطها وشمولها لكل ما يشتمل عليه الإنسان .

وفي مفهوم الاسلام أن الانسان قبضة من طين ، ونفخة من روح الله ، وفي قبضة الطين تتمثل جميع عناصر الأرض المادية ، وتتمثل فيها دوافع الأرض . أما نفخة روح الله فتتمثل فيها الإرادة القادرة على التعرف على الخير والشر ، وفيها جميع الرفعة والسمو والتسامي والتطلع الى الكمال (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها)

هذه هي العناصر الثابتة التي لا تتغير مهما تغيرت مظاهر الحياة ، والى جانب ذلك صور متغيرة ، أو حالات متباينة ، وهي في تغيرها وتطورها لا تخرج بالانسان عن كونه انسانا .

ومن هنا فإن تركيب الانسان الروحي المادي بطبيعته يتطلع الى خالقه ، ولا يستطيع أن يحيا دون عقيدة ودون دين .

وحين يفقد الانسان العقيدة : فإنه يبقي ذلك الجانب المادي وحده ، الذي يحوله الى قسوة الوحش ، أو تفاهة الانحلال . فالعقيدة هي التي تضبط هذا التركيب المادي ، وتنظم حركاته ، وتحول دون تبديد طاقته الحيوية في متاع الجسد ، وهنا يقع التناقض ، والرفض ، والتمزق النفسي .

والعقيدة هي القوة الراكزة التي تحول دون التصادم أو الاضطراب أو الانحراف عن الاتجاه الصحيح . هذه العقيدة نيرة ذات بصيرة، لا تحول دون

الاستمتاع بالطيبات من الرزق ، ولا تحرم زينة الله التي أخرج لعباده ، ولا تمنع تقدم المجتمع أو تطور العلم ، ولكنها تكون بمثابة السياج المانع ، والإطار الحصين .

***

هذا هو مفهوم الإسلام للإنسان ، وهو أقرب إلى الفطرة من مفهوم الفلسفات المادية ، وأوسع منها أفقا ، وأكثر إيمانا بالنفس الإنسانية ، وحماية لها .

لقد اعتمدت الفلسفات المادية على مقررات العلم وحدها ، وهي مقررات لم تستطيع بعد أن تصل إلى أعماق حقيقة الكائن البشري . ولذلك فقد أخطأت الحساب . وشهد شاهد من أهلها على هذا القصور . ذلك هو الدكتور (الكسيس كاريل) وهو عالم طبيعي ، وليس فيلسوفا .

يقول دكتور (كاريل): إن أغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب. لأن هناك مناطق غير محدودة من دنيانا الباطنة ما زالت غير معروفة . فنحن لا نعرف الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

● كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية ، لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية؟ .
● كيف تقرر (الجنس) = تناقلات الوراثة الموجودة في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة؟ .
● كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها، مثل الأنسجة والأعضاء، فهي كالنمل والنحل تعرف مقدماً الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموع؟ .
● ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيلوجي؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء، والسوائل والشعور . ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزاً . !

إننا ما زلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن فسيولوجية الخلايا العصبية، إلى مدى أي مدى تؤثر في الجسم .

كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء؟ .

على أي وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية التي يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة الحياة والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام والمناخ والنظم النفسية والأدبية .

هذه هي التعقيدات التي يواجهها العلم في تركيب الإنسان . فكيف يستطيع أن يضع له فلسفة، وهو لم يفهمه على حقيقته بعد! .

***

غير أن (كاريل) يدهش لمعجزة الخلق التي تحير الذهن البشري يقول: إن الفردية جوهرية في الإنسان ، إنها ليست مجرد جانب معين من الجسم . إذ أنها تنفذ إلى كل كياننا، وهي تجعل الذات حدثا فريداً في تاريخ العالم، إنها تطبع الجسم والشعور، كما تطبع كل مركب في الكل بطابعها الخاص، وإن ظلت غير منظورة.

تميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوههم وإشاراتهم وطريقتهم في المشي ، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة، ومع أن الزمن يحدث تغييرات كثيرة في مظاهر الأفراد، إلا أنه يمكن دائما معرفة كل فرد بواسطة إبقاء أجزاء معينة من هيكله ، وكذلك : فإن خطوط أطراف الأصابع مميزات قاطعة للفرد ومن ثم فإن من بصمات الأصابع هي التوقيع الحقيقي للإنسان.

ومن المحتمل أنه لم يوجد فردان بين ملايين البشر الذين استوطنوا هذه الأرض، كان تركيبهما الكيماوي متماثلا، وترتبط شخصيتهما بالأنسجة التي تدخل في تركيب الخلايا والأخلاط بطريقة ما زالت غير معروفة حتى الآن، ومن ثم فإن فرديتنا تتأصل جذورها في أعماق ذاتنا.

وتطبع الفردية جميع أجزاء الجسم المركبة ، فهي موجودة في العمليات الفسيولوجية كما هي موجودة في التركيب الكيماوي للأخلاط والخلايا. ولهذا فإن كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة مع أحداث العالم الخارجي، مع الضوضاء والخطر والطعام والبرد.

ويقول (كاريل) في النهاية: إننا عاجزون عن اكتشاف الصفات الجوهرية لشخص بعينه، فضلا عن أننا أكثر عجزاً عن اكتشاف إمكانياته.

ويجمل ذلك أن هناك ثلاث حقائق أساسية : أن الإنسان كائن فريد في هذا الكون، وأنه كائن معقد أشد التعقيد. وأن الإنسان يشتمل على عوالم متفردة عددها عدد أفراده.

ولنا أن نتساءل: هل هذا الإنسان المعقد الذي لم يكتشفه العلم بعد، ويفهمه فهما صحيحا ، هل يستطيع أن يرسم لنفسه منهج حياته على النمو الذي يحقق له السلامة والخير؟

الحق أن المنهج الصحيح هو المنهج الذي رسمه خالق الإنسان العليم بتكوينه وطاقاته ووظائفه، والأسلوب الصحيح لمعالجة هذه النفس بما يحفظ له التوازن بين فرديته وجماعيته، وبين روحه وجسمه، وبين دنياه وآخرته.

وإذا كان الإسلام قد رسم منهج حياة الإنسان على أساس التوازن والتوسط بعيدا عن الإسراف في اتجاه الروح أو اتجاه المادة. فإن الدكتور (الكسيس كاريل) في كتابه: «الإنسان ذلك المجهول» لم يجد إلا أن يردد هذا الذي رسمه منهج الدين يقول: «علينا أن نقي أنفسنا شر الإسراف في أي شيء، وكل شيء، فإن الإسراف في اي شيء يفضي إلى الانحلال، وإن الإنسان يميل بطبعه إلى الإسراف في شهواته كالخمر والأكل والسرعة وغيرها. وعليه أن يروض نفسه على الاتزان وعدم الإسراف في أي شيء حتى في النوم. إن رجل العصر إما مفرط في النوم أو مسرف في اليقظة، وهذا ضار به وخير له أن يعود نفسه أن يظل يقظاً حتى تدركه الرغبة في النوم فينام».

لقد حاولت الفلسفة المدنية أن تعتمد مناهج الحيوان لتطبقها على الإنسان . ومع أن (الدارونية) الحديثة التي تؤمن بتطور (دارون) فإنها لا تؤمن بحيوانية الإنسان، ولا ماديته الكاملة، وإنما تؤمن بتفرد الإنسان بيولوجيا وسيكولوجيا على النحو الذي أورده (جوليان هكس) في كتابه: «الإنسان في العالم الحديث».

ومع ذلك فإن النظرة إلى الإنسان كحيوان ما لبثت أن سيطرت وهي مناقضة للعقل وللنظرة العلمية وظلت تنمو في جو مريب حتى ظهرت منها النظرية (الفرويدية) التي أقامت قواعدها على أساس «حيوانية الإنسان» وسيطرة غرائزه الحسية وحدها على كل تصرفاته، ومنها جاءت الوجودية متممة للحلقة التي أرادت

الفلسفية المادية بها أن تخرج الإنسان من إنسانيته، ومن عقائده ومن فطرته لتسلمه إلى الانهيار والتدمير.

وقانون الفطرة، التي ركب بها الإنسان روحا ومادة لا يقر أن الحياة النفسية للإنسان تنبع من جانب واحد. هو جانب الحيوان، ولا يصدق على أي منطق أو مفهوم علمي أن غرائز الإنسان هي التي تحكمه وتسيطر على كل نشاطه، وأن جانب الروح لا وجود له على الإطلاق.

(٧)

والنفس الإنسانية لها نظرية في مفهوم الفلسفة المادية، ولها نظرية في مفهوم الإسلام. وقد قطع الفكر الإسلامي شوطا طويلا في مجال دراسة النفس مستمدا مفاهيمه الأساسية من القرآن الكريم.

ويرمي مفهوم الفكر الإسلامي من معرفة النفس أن يكون سبيلا لإصلاحها أو إلى تهذيب الأخلاق الذي لا يتأتى إلا بمعرفة النفس وعيوبها حتى يتمكن من إصلاحها. فليست معرفة النفس في الفكر الإسلامي هدفا مجرداً في ذاته، ولكنها وسيلة إلى مراقبة السلوك.

ويعد الإمام الغزالي: هو مؤسس علم النفس الإسلامي، وهو يفسر سلوك الإنسان بأربعة دوافع أساسية هي: شهوة الطعام، والجنس، والمال، والجاه. وأساس هذه الدوافع كلها عنده هي غريزة الطعام، وعنده أن الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك والخروج عن حد الاعتدال إلى التفريط والافراط، هو سبب الأمراض النفسية، والعلاج هو التماس حد الاعتدال الواجب، فطابع الفكر الإسلامي في السلوك هو الاعتدال. ذلك الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك والغاية من كل سلوك هو معرفة الله ومراعاة ما أمر به في كتابه ليهتدي الناس إلى الصراط المستقيم، واتباع سبيل التقوى.

والغريزة الجنسية عند الإمام الغزالي ركبت لفائدتين: اللذة، وبقاء النسل، واللذة ليست مطلوبة لذاتها أو لبقاء النسل. بل لشيء آخر أسمى وأرفع، وللشهوة

عنده درجات ثلاث: إفراط، وتفريط، واعتدال. فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجل إلى الاستمتاع بالنساء والجواري، فيحرم من سلوك الرجولة، أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش.

والتفريط في هذه الرغبة هو الضعف، وهو مذموم. والمحمود أن تكون معتدلة ومطابقة للعقل والشرع. ورسم الغزالي لعلاج آفة هذه الشهوة أموراً ثلاثة: الجوع، غض البصر، والاشتغال بشيء يستولي على القلب.

***

ولا ترى النظرية الإسلامية رأي النظرية المادية من أن الجسم هو الأصل، ولا ترى أيضا أن الروح هي الأصل، كما ترى بعض الفلسفات الروحية المسرفة، ولكنها ترى أن هناك علاقة متبادلة بين النفس والجسم. ليست النفس هي التي تسيطر على الجسم، وليس الجسم. بل هناك تفاعل بينهما، وتوازن. ذلك أن الإسلام يأخذ الإنسان ككل: عقله وجسمه ونفسه وروحه. فهو يوازن بين مطالب جسده، ومطالب روحه فهما جزءان من كيان متكامل. وبذلك يشجب الإسلام نظرة بعض المذاهب التي ترتكز على عقيدة الروح، أو التي تتجه إلى مادية الجسد مع إهمال مطالب الروح. فوحدة الجسم والنفس في الإسلام أساس «حتى إنه يجعل العبادة عملا. والعمل عبادة، ولا يفصل بين الماديات والروحيات، ولا بين الأرض والسماء. والإنسان في نظر الإسلام متميز عن الحيوان، ومن أجل ذلك ينبغي له أن يحقق كيانه الإنساني المتميز، ولا ينحرف إلى حياة الحيوان. ومن الضروري لذلك ألا يخضع خضوعا مطلقا لدافع الغريزة».

***

وإذا كانت النظرية النفسية الفرويدية المادية ترى كراهية القيود التي تفرضها العقيدة على السلوك، وتعدها كوابت للنشاط الحيوي. فإن العقيدة الإسلامية لا تكبت النشاط البشري. وإنما تساير الفطرة. ومن مسايرة الفطرة جاءت تكاليف العقيدة الإسلامية.

للإسلام في مجال الطاقة الجنسية، وقضية الكبت موقف ورأي يختلف اختلافاً واضحاً عن النظرية المادية. فالإسلام أساساً يعترف بالغريزة الجنسية فهي طاقة بشرية تحتاج إلى إشباع، وهي تؤدي مهمة حيوية. بإشباعها. وهي مصدر نتاج البشرية الذي لا يتوقف. ولكن الإسلام يضع لهذه الطاقة الضوابط، ويجريها في دائرة النهج الطبيعي.

وتقوم النظرة الإسلامية على أساس استنكار الاستغراق والإسراف، لأنه يضخم أحد جوانب الإنسان على حساب بقية الجوانب، ويستنفد طاقة يمكن أن تنطلق في اتجاهات عدة، ويكشف القرآن الكريم عن الشعوب التي انهارت واستغرقتها متع الجنس الفاجرة والترف.

ولقد أسرفت الفلسفة المادية في الحديث عن إطلاق الغرائز وإباحتها، ونددت بالكبت واعتبرته مصدراً من مصادر الأمراض النفسية.

ولقد كان (فرويد) في نظرته تلك واقعا تحت تأثير بعض المفاهيم الدينية المنحرفة التي كانت تعيشها أوربا، والتي كانت تدعو إلى كراهية الطاقة الجنسية، والعلاقة بين الرجل والمرأة، وتحرص على الرهبنة واعتزال الحياة.

أما بالنسبة للمسلمين. فإن الأمر يختلف اختلافا كبيراً. فقد اعترف الإسلام بالدوافع الفطرية، ونظر إليها نظرة التقبل والإقرار على أنها واقع طبيعي لا اعتراض عليه في ذاته، ولكنه وضع له الضوابط حتى لا ينساق الناس مع هذه الرغبات، فلا يلبثوا أن يستعبدوا لها، ويضعفوا عن مواجهة الحياة ونضالها. وقد كان اعتراف الإسلام بها عاملا من عوامل انطلاقها دون تكبت في اللاشعور.

فالإسلام لا يحرم الرغبة، ولكنه ينظمها. والإسلام لا يقر الإسراف فيها، كما لا يقر رفضها. وهو يعمل على إقامة التوازن بما تنتفي معه كافة الاضطرابات النفسية والعصبية التي تنشأ من المتبع ومن الإسراف على السواء. والطريق الطبيعي

للطاقة الجنسية هو «الزواج» وليس أي أمر آخر . وهناك فارق واضح بين الكبت والضبط. فالكبت هو إنكار هذه الطبيعة البشرية أساساً. والنظر إليها نظرة كراهية. بينما الضبط يجيء على أساس الاعتراف بها، فهو يؤجلها أو يعليها، ولكنه لا يقتلها ولا ينكرها. أو ينظر إليها على أنها من المحرمات.

وبذلك تختلف النظرة الإسلامية للجنس عن نظرة الفلسفة المادية التي جاءت أساساً من منابعها ومصادرها في المجتمع الغربي، وكرد فعل لبعض المفاهيم الدينية المبتدعة، والتي تختلف مع جوهر الدين. ومع جوهر الفطرة الإنسانية.

وقد رسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقطع الرأي في ذلك حين قال: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج) والمسلمون[1] «أمروا بالعفة إذا عجزوا عن الزواج». «أما هناك فالأصل هو العفة. فإذا عجزوا تزوجوا» ولذلك كانت الفلسفات السابقة على الإسلام تحاول حصر هذا الزواج في أضيق نطاق، وتحرمه على القادة الروحيين، أو تقلل فرصته بمنع زواج الأرملة والمطلقة . ولذلك جاء الإسلام فأزال الفكر المعادي للزواج الذي ساد العالم المتدين قبل بعثته، والذي كاد بفناء الجنس البشري، أو قيام تناقض في ضمير المتدين بين قوانين الحياة التي يمارسها فعلا، وبين تعاليم الدين التي يجب عليه احترامها.

والاتصال الجنسي في الإسلام له ثواب.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن في بضع أحدكم لأجراً» قالوا: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!.

***

« وتحريم الزنا في الإسلام لا ينبعث من كراهية الجنس . بل من احترام الجنس وتنزيهه عن العبث ، ومن احترام المرأة وتنزيهها عن أن تكون أداة لمتعة

(١) من كتاب: (. . في فكر منحل)

الرجل ، وحتى لا ينسب الطفل لغير لحظة الحب التي أنجبته ، وإذا علمت أن الزنا لا يجوز إثباته بالتجسس أو الشبهة ، وأن عقوبة الرجم لم تطبق في التاريخ الإسلامي إلاّ على معترف أو معترفة . وأن هذا الزاني المعترف لو أنكر بعد أن أصابته الأحجار . بل لو فر هارباً من الأحجار وقف تنفيذ الحد » .

وقد أشارت إلى أهمية هذا المعنى الدكتورة (سجريد هونكه) في كتابها : (شمس الله تشرق على الغرب) . حين قالت : « إن تعبيرات احترام المرأة دخلت اللغات الأوروبية على يد العرب » . هذا فضلاً عن أن الخطيئة في الإسلام من الأمور التي تقطعها التوبة .

ولا شك أن هذا الضبط الإسلامي هو مصدر السكينة والتوازن الذي تتسم به الشخصية الإسلامية ، بينما كانت هذه الدعوة إلى الانطلاق الجنسي ، والتحرر الاجتماعي هي التي فتحت باب القلق الدائم الذي لا ينتهي ، والاضطراب النفسي والعصبي الذي يؤدي إلى أمراض ضغط الدم والهستريا والجنون والجريمة .

وليس مصدر ذلك الكبت كما قال (فرويد) بل هو (الإطلاق) وفي الإسلام لا مانع من التوازن ، والاعتدال بين المتاع المشروع ، وبين الاندفاع في الأرض للعمل ، والتعمير والبناء . بل إن النفس السوية تكون في مجال العمل أكثر قوة من النفس المنحرفة المنهارة .

والإسلام يحدد مصارف الجنس ، ويحددها بالزواج ، وهو حين يدعو إلى التبكير في الزواج . إنما يخفف الضغط على الأعصاب إلى أقل مدى ممكن ويريح النفس من كثير من عوامل الاضطراب . هذا وبالرغم من هذه الصيحات التي يصدرها (فرويد) مهدداً بالكبت . فإن العلماء لا يرون ما يراه . بل يرون أن الأمر أهون من ذلك كثيراً . وهذا الدكتور (لويس بيش) الطبيب النفسي يقول : إن الدوافع الغريزية الجنسية دوافع غريزة ، تحاول أن تعبر عن نفسها . ولكن هذا لا يعني أبداً أن عدم الإشباع يؤدي إلى الدمار . إن التعبير عن الجنس ليس ضرورة مطلقة ، وليس هناك ثمة ضرر جسمي أو عقلي ينتج عن الامتناع عن الجنس .

إن الإثارة الجنسية إنما تجيء من العالم الخارجي ، وإن ما تتخيله عقولنا عن الجنس يكون أشد إثارة من الجنس في واقعه الموضوعي . ومن ثم نستطيع أن نقول

إن الكتب الجنسية وأفلام السينما . ومـا إلى ذلك هي المسـؤ ول الأول عن إثـارة الحيوانية الكامنة في أعماقنا . وليس الجنس في ذاته . « وعلاج الجنس هو الزواج أو الكظم الذي لن يضر شيئاً » .

(٩)

للحرية في الإسلام نظرية تختلف عن مفهوم الحرية في الفلسفة المادية .

فقد ولد الناس جميعاً أحراراً ، وحريتهـم في الحياة مطلقـة في كل شيء ، وتبقى مطلقة حتى تصطدم بالحق أو الخير . فإذا اصطدمت بالحق أو الخير سواء كان خير الفرد أو خير المجتمع . فإن الحـرية الفـردية تقف وتتقيد عنـد حدود الحـق والخير . وقد دعا الإسلام إلى التحرر من ربقة التقليد ، ودعا الناس إلى التفكير بالدليل والبرهان . ولا يتصـور الإسـلام الحـرية انطلاقـاً من الضوابـط والنظـم الإنسانية والنفسية والاجتماعية . لأن الحر لا يمكن أن يكون منطلقاً .

ذلك أن الحرية لا تكون مطلقة أبداً ، لأنه لا شيء في الوجود الإنساني يعد مطلقاً من كل قيد ، ولأن الحرية معنى اجتماعي لا يتصور وجوده إلا في مجتمع يأخذ الأفراد منه ويعطون ، ما دامت الحرية معنى إجتماعياً . فلا بدّ أن تكون لها ضوابط إجتماعية .

وحقيقة مفهوم الحرية : إنما هو تحرير الإنسان من العبودية ، وأخطر المظاهر التي تستعبد الإنسان إنما هي الشهوات والأهواء شهـوات المال والـذات والخلـق والطعام .

والحرية هي أساس المسؤ ولية والجزاء . ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى تحرير الإنسان ، فلا يكون عبداً لهوى من الأهواء .

وتقوم الحرية بالنسبة إلى المعاني والأفكار على أساس التخلص من عبودية المذاهب والأفكار التي لا تتفق مع التوحيد ، واختيار الأصلـح ممـا يفيد في ضوء القيم الأساسية لأمتنا وفكرنا .

وشرط الحرية ألا تنتهي إلى الفوضى التي تضر بمصلحة الفرد والجماعة ، والحرية هي الانطلاق في حدود طاقة الإنسان الانطلاق في الرأي والاعتقاد في القول وفي الفعل .

ومن هنا يبدو الفارق بين مفهوم الفلسفة المادية ، ومفهوم الإسلام . فيبدو أن المادية هي التي تدعو إلى الحرية بمعنى الانطلاق ، وكسر كل الحواجز والقيود . بينما يبدو مفهوم الإسلام . وهو يدعو إلى إقامة الضوابط التي تحول دون الانطلاق المطلق .

ولا شك أن الحرية بمفهوم الفلسفات المادية ليست من مظاهر التقدم التي تستهدف رقي الإنسان ، ورعاية المجتمعات وحمايتها من الأخطار ، نفهم أن المادية تدعو إلى الانطلاق ، لأنها تنكر القيم والمثل ، والمبادىء ، وتؤ من بالفردية والأنانية التي هي أخطر مظاهر الطفولة الإنسانية ، ونفهم أن الإسلام يدعو إلى الحد وعدم الانطلاق لأنها تدفع الإنسان نحو المستوى الإنساني الرفيع ، وهو مستوى الرشد وفي هذا المستوى يقر الرشيد بوجود غيره ويؤ من بالقيم والمبادىء التي تجعل منه ومن غيره وحدة في الترابط والانسجام .

والإقرار بالغير مع الإيمان بوجوب الانسجام معه يجعل حرية الفرد في حدود مصلحة الغير ، فللفرد أن يرى ويعتقد ، ويقول ويفعل ، ويتصل بالغير . ولكن لا على الإطلاق . بل بما يصون حرمة الغير ويحفظ وجوده . ومن هنا خطأ القول بأن الحرية بمعنى الانطلاق هي مظهر للتقدم والتطور . ذلك أن تطور الإنسان وتقدمه الصحيح ، والتاريخي لا يقر هذا الانطلاق . أما التقدم بمعنى العودة إلى حيوانية الإنسان وحدها . فهو دعوة إلى عهد الطفولة الإنسانية .

الحد من الانطلاق هو التنظيم ، وليس الكبت من لوازم المجتمع ، وطبيعة كل مجتمع هي تنظيم علاقات أفراده بعضهم ببعض[1] .

ومن الواضح في ضوء هذا أن مفهوم الكبت في الإسلام مختلف عن مفهومه

---

(١) الدكتور محمد البهي : الاسلام والفلسفات الحديثة .

في الفلسفة المادية . والإسلام حين يعترف بالغرائز والطاقات والرغبات الحسية ، ويعطيها حرية العمل مع تنظيم هذه الحرية وضبطها حماية للكيان الإنساني نفسه ، وحماية للمجتمع ، فهو لا يعرف الكبت بالصورة التي عرفتها المجتمعات والمفاهيم الدينية التي وضعت هذه النظرية تحت ظلالها الكثيفة ، وفي مواجهة تحدياتها . والأسلوب الذي تدعو إليه النظرية المادية في مواجهة ذلك . هو إطلاق النفوس إطلاقاً كاملاً . ومنح الغرائز حرية مطلقة . وذلك ما لا تقره الفطرة الإنسانية . فالغريزة الجنسية حقيقة لا يمكن تجاهلها . والحل الإيجابي لها هو الزواج . فإذا لم يتيسر فهناك التسامي بالغريزة يمنع صنوف المثيرات التي تعترض الشباب ، وتستفز الشهوات . وقد أقرت المذاهب النفسية المعتدلة : أنه يمكن تغيير مجرى الغريزة في نزوعها الأخير . إما بالتسامي أو بالتعديل أو بالكبت (التسامي هو ربط الغرائز بمثل عليا تتأثر بها وحدها) و (التعديل هو إشباع الغريزة بمظهر فيه العوض عن حاجتها الأصلية) .

أما الكبت في ضوء الاعتراف بالغريزة وطبيعتها . فهو عنصر ضروري في كل تربية سليمة . وليس هناك نظرية أصيلة في التربية والأخلاق والنفس . تقول بأن النفس تجاب إلى كل ما تشتهي ، وتصوير الكبت على أنه خطر على هذا النحو الذي صورته الفلسفة المادية هو كذب ومبالغة . وقد رده كثير من العلماء في نفس الحقل ، وهو دسيسة يغري بها الشباب على الانفلات مع الأهواء الجامحة . وبذلك تتحطم هذه الأجيال ، وتنشأ واهنة العزم ، فلا يستطيع حمل أمانة مقاومة الغزو الذي يشنه العدو على الأمة العربية والعالم الإسلامي كله .

إن محاولة الغزو الغربي الاستعماري فرض مثل هذه النظريات المادية ، وإطلاق اسم العلم عليها . إنما هو هدف خطير يحاول أن يمهد في نفوس الشباب تقبل مظاهر الانحلال التي ترسمها المجتمعات من خلال الأزياء والأفلام والسينمائية لتهديم القيم وقتل الغرائز .

القضية السادسة

الإسلام والأخلاق

(١)

ما تزال حملات الغزو الثقافي توجه حملاتها الى مفهوم الاخلاق في الاسلام دافعة الى الثقافة العربية بموج زاخر من النظريات والمذاهب الفلسفية التي تتنكر لمفهوم الأخلاق ، وتهاجمه في عنف ، بينما تحاول أن تفرض مفهوما لا يتسق مع الطبيعة الإنسانية ، ولامع الفطرة ، ولا يلتقي بالنفس العربية المسلمة في مقوماتها الذاتية ، وتركيبها المعنوي ، ومزاجها الاجتماعي .

فالأخلاق في مفهوم الإسلام قاسم مشترك على المجتمع والقانون والسياسة والاقتصاد والأدب والتربية لا سبيل الى عزله عن هذه المقومات . فقد جعل الاسلام هذه القيم جميعا أخلاقية المصدر ، والدافع والهدف . وهو مفهوم يوافق أساساً بين الاعتقاد بالله ، وبخلود النفس والجزاء في الدار الآخرة ، والايمان بالمسؤولية الفردية ، والجزاء الأخروي ركيزة أساسية في الأخلاق الإسلامية ، ومحاولة فرض نظرية تجعل الحياة الدنيا هي آخر المطاف ، إنما هي دعوة مدمرة تفتح كل أبواب الإباحة والشر والخروج عن جميع الضوابط والكوابح ، وبدافع الاحساس بأنه ليس هناك للعمل محاسبة وجزاء ، فإذا كانت الدنيا هي النهاية . إذن ، فلماذا لا يعب الانسان منها عبا دون تقدير لأي مسؤولية أو حساب . ومن هنا فإن التأكيد الذي وضعه الإسلام على حقيقة البعث والجزاء بعد الموت ، هو تأكيد جازم ، وهو أمر طبيعي يتسق مع مفهوم الدين ، ووجود الانسان على الأرض ، وإلا فأي حكمة في وجود الانسان على الأرض إذا لم يكن له مسؤولية في

سلوكه وتصرفه . وعليه حسابا يؤديه إزاء ذلك كله ، وجزاء سرمدا في حياة أخرى بعد هذه الحياة .

كانت الأخلاق قبل الإسلام تقوم على كبح الغرائز ، وكان الزهد قد ظهر في بعض الدعوات والعقائد ، وانتهى الى الرهبنة ، واعتزال الحياة ، وكان يأمر بقمع الغرائز والشهوات . فلما جاء الإسلام أعاد المفهوم الصحيح للدين السماوي في الأخلاق . وهو « ضبط » الغرائز وتركيزها وترويضها وتصعيدها والسمو بها .

وفكرة تصعيد الغرائز الحديثة مستفادة أولا من القرآن الكريم . (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) .

وفي الإسلام يتميز الفرق بين التقوى والرهبنة : فالتقوى مشاركة في العمل مع يقظة ضمير تحول دون الرذيلة : « اجتناب الحرام » . أما الرهبنة فهي اعتزال كامل للمجتمع ، والإسلام لا يؤمن بالانفصال عن المجتمع ، ولا بالعزلة عنه ، وينهى عن التقشف والرهبنة نهيا تاما .

والانطلاق وراء الشهوات ليس هو مفهوم الحرية ، وإنما ذلك هو العبودية الذليلة للغرائز . ولكن الحرية هي القدرة على امتلاك الإرادة ، ودون اعتداء ما على حرية الآخرين ، وضوابط التصرفات التي يقرها الإسلام تضمن كرامة الجماعة ، وتنظم حرية الأفراد ، وتعلي حرية المجتمع على حرية الفرد ، وهي تصطنع الحكمة في منع المريض الذي يضره الطعام ، وتتمثل في أن الإنسان لا يعيش وحده ، وإنما يعيش كجزء من المجتمع . والأخلاق في الإسلام ليست « مثالية » بل واقعية عملية ، تستمد قيمها من صميم واقع الإنسان بحسبانه أحد أفراد المجتمع ، وهي تظهر في مستويين : فردي واجتماع .

وفي مجموعها تؤكد حرية الانسان وإرادته في الاختيار ، وتحمل المسؤولية . فالفرد مسؤول عن عمله ، واع لشخصيته محقق النفع العام للمجتمع بأسره .

والأخلاق في الإسلام ترتبط بالمجتمع ارتباطا وثيقا ، وتمثل القاسم المشترك لكل روافده من سياسة واقتصاد وأدب وعلم وتربية .

وقد جمع الإسلام بين السلوك والخلق في مختلف المجالات ، وبين الدنيا

والآخرة ، ومقياسها هو التقوى والعمل معا . التقوى بمعنى الاتقاء ، والترك للانحراف في الاعتقاد والسلوك والعمل بمعنى الحركة والاضافة .

(٢)

يختلف مفهوم الأخلاق في الإسلام عن مفهومه في الفلسفة المادية التي تستمد جذورها من الوثنية اليونانية اختلافا جذريا . ويتمثل هذا الاختلاف في عدة جوانب .

أولا : إيجابية الأخلاق في المفهوم الإسلامي .

ثانيا : شموله بالنسبة للناس جميعا .

ثالثا : وسطيته بعيدا عن الانحراف والجمود .

رابعا : قدرته على التبلور وفق حاجات المجتمعات والعصور .

خامسا : الأخلاق الإسلامية أخلاق اجتماعية لا فردية .

فالقرآن الكريم ينظر إلى الفرد في ضوء مصلحة المجتمع ، فإذا تضاربت مصلحة الفرد ، ومصلحة المجتمع يؤثر الفرد مصلحة المجتمع ، ويضحي بنفسه في سبيله .

وفي الفلسفة اليونانية يتمثل هدف الأخلاق في السعادة « أخلاق سعادة » . أما في الأخلاق الإسلامية فيتمثل في التقوى « أخلاق تقوى » تقوم على الإيثار ، وتجنب الحرام ، والإقبال على الحلال .

والإسلام لم ينه عن الدنيا ، ولم يطالب الناس بالابتعاد عنها أو الزهد فيها ، ولم يحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . بل جعلها خالصة ، وتتمثل الأخلاق الإسلامية أبرز ما تتمثل في : « التطبيق النبوي » الواضح في شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد نظر المسلمون إلى الأخلاق على أنها منهاج عملي غايته التعاون في الحياة ، واحترام القيم الإنسانية ، وحسن المعاملة . بينما نظرت الفلسفة اليونانية

الى الأخلاق على أنها جانب نظري من النشاط العقلي خاضع للجدل والنقاش . وقد رسم الإسلام للأخلاق منهجا واسعا مرنا يسير التطبيق في مختلف العصور والبيئات ، وجعل إطار القيم الأخلاقية واسعا رحبا ، يحقق الحرية الشخصية ، ويتقبل الجهود الفردية .

أما الضوابط التي أقرها كقواعد أخلاقية ، فقد أقام بها حواجز متينة ضد الظلم والشر والفوضى . وقد أتاحت هذه الضوابط مع رحابة الإطار للعصور المختلفة القدرة على الحركة والتشكل ، واختيار الصور والأوضاع التي توفق بين القيم القرآنية الأساسية للأخلاق ، وبين التجارب والأحداث التي يقدمها تطور المجتمع ، وذلك مما يحقق التقدم والحركة في جو من الحرية الفكرية مع التعبير عنها بما يلائم العصر ، دون تحفظ للضوابط ودون خروج على إطار الإسلام ، ومبادئه الأخلاقية العامة .

والأخلاق الإسلامية في مجموعها تنبذ الميكافيلية ، وتؤ من بأن الغاية الشريفة لا يجوز أبدا أن يسلك إليها بوسائل غير شريفة . والأخلاق الإسلامية كقوة إنسانية تسمو وتتسامى فوق كل مذهب فلسفي سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي مهما كانت شعاراته .

***

وقد رسم الفكر الإسلامي للعاطفة مفهوما قوامه الحركة في نطاق الأخلاق . وقد رسم القرآن الكريم صورة العفة في قصة يوسف ، ووقف موقفا صريحا صارما من علاقة الرجل والمرأة من حيث العفة ، وحذر من العلاقات غير المشروعة ، وأوجب على مرتكبها أقصى الحدود ، وحبب في الزواج ، ويسر أسبابه قال الله تعالى (قد أفلح المؤ منون . . . والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . وقال تعالى (قل للمؤ منين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤ منات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) .

وقد واجه مفهوم الأخلاق في النظرية الإسلامية تحديا خطيراً من الفلسفات المادية الغربية . وذلك بعد تطور مفاهيم الفلسفة ، وظهور نظريات (ميكافيلي ، وداروين ، وماركس ، ودوركام) وفلسفات (نيتشه) ونزعات السريالية والوجودية .

والحق أن مصادر الأخلاق كانت دائما مرتبطة بالعقيدة . وقد كانت الدعوة المادية تحاول أن تقيم مفهوما للأخلاق منفصلا عن العقيدة .

وكانت نظرية (ميكافيلي) في فصل السياسية عن الأخلاق مقدمة لفصل الاقتصاد عن الأخلاق . وكذلك فصل الاجتماع عن الأخلاق . ثم فصل الدين عن الأخلاق . وكذلك فصلها عن الأدب والفن . وأخطر ما واجه مفهوم الأخلاق من تحديات هو : « تحدي الالتزام » ووجه الخلاف بين الأخلاق في الإسلام ، ومفهومها في الفلسفة المادية واسع المدى ، بعيد متباين . فالأخلاق المادية تقوم على أساس مستمد من التراث اليوناني والروماني . ومن هنا كانت أبرز مظاهره انقساما لا حد له بين نظرتين .

١ ـ نظرة تقول بالصراع بين البشر وبين الله والخصومة بين الآلهة عندهم وبين الناس . فالآلهة تنتقم من الناس في وحشية وعنف لتنفرد وحدها بالقوة ، ومن هنا كان ذلك الصراع والتحدي لله ، وتوهم التغلب عليه بالسيطرة واغراق في المتعة والحس .

وقد اتصل هذا المعنى الإغريقي بالفكر الروماني الذي يقيم فلسفته على أساس أن أهل روما هم السادة ، والناس جميعا خارجها عبيد . ومن ثم علا مذهب المتعة ، وينتقل الإنسان من نعيم إلى نعيم ، وساد الفساد والانحطاط ، وقام كل شيء على أساس القوة ، وعبادة القوة اعتقادا بأنه بها وحدها ينال الإنسان الثروة ، وكانت الفكرة المسيطرة هي استغلال الأمم لمصلحة روما .

٢ ـ ونظرة تقول بالرهبانية القائمة على تعذيب الجسم بحسبان أن ذلك يشكل مثلا كاملا في الدين والأخلاق . ومن هنا كان الاحتباس في الأديرة ، وإلغاء الزواج . وغيره مما هو مضاد للفطرة الإنسانية وتقييد للطبيعة . وقد كان لذلك رد فعل عنيف في انفجار حركة الإباحة المادية العاتية .

وقد ورثت الحضارة الغربية هاتين النزعتين وتطورتا حتى جاء عصر النهضة فأعلى من قدر (الطبيعة) ثم دعا إلى عبادتها . ثم أعلى من قدر (الانسان) فأصبح معبودا ، ثم ظهرت نظريات (دارون ، وماركس وفرويد) وكلها تحاول أن تفرد الجانب المادي بالأهمية . أو بالأحرى الجانب الحيواني في الانسان بالحياة وتنكر جانبه الروحي .

ومن هنا تحول مفهوم الأخلاق عن مصادره ، وزاد في اضطرابه ما دعى اليه ميكافيلي من السلطة الأروتوقراطية كوسيلة لترويض الانسان الذي وصفه بأنه مطبوع على الشر ، وأنه أقرب الى الحيوانات منه الى الملائكة ، كما دعا الى أن الغاية تبرر الواسطة . ثم جاء (فرويد) فدعا الى اطلاق الغرائز الحسية اطلاقا كاملا .

ثم أعلن (دوركايم) أن نظام الأسرة والجماعة ليس نظاما فطريا ثم جاء القول بأن الأخلاق خاضعة للظروف المعيشية لكل مجتمع ، وهكذا حاولت الفلسفة المادية الغربية أن تجرد الأخلاق من قوة الالزام والواجب والضمير الخلقي .

بينما لا يمكن أن توجد الأخلاق كقوة فاعلة في المجتمع دون قوة « الالزام » إيمانا بأن الالزام هو العنصر الأساسي ، أو المحور الذي تدور حوله المشكلة الأخلاقية[1] .

أن زوال فكرة (الإلزام) يقضي على جوهر الحكمة العملية التي تهدف إليها الأخلاق ، فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسؤولية ، وإذا عدمت المسؤولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه واقامة أسس العدالة .

ومفهوم (الالزام) يقتضي أن تكون الفضيلة قوة كامنة إذا ملأت نفس المرء حفزته الى العمل النافع ، والى النشاط المستمر حيث تتحول الفضيلة من قوة معنوية الى قوة حسية ، ويكون « الخير الاخلاقي » بمثابة سلطة ملزمة يتقيد بها الجميع .

---

(١) بتصرف عن بحث للدكتور (محمد عبد الله دراز)

وقد دعا الإسلام الى الالزام الخلقي ، وكشف عن أن النفس الانسانية عرفت منذ تكوينها الأول معنى الخير والشر : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها) .

وقد ألهمت النفس (الحدس الخلقي) فعرفت طريقي الفضيلة والرذيلة (وهديناه النجدين) . وقد تنحرف الطبيعة الانسانية نحو الشر ، ولكن الانسان قادر على أن يردها ويستعيد سيطرته على قيادها . وفي النفس قوة كامنة تهيء النصح ، وتحدد للانسان ما يجب عمله وما يجب تحاشيه . هذه السلطة التي تسيطر على قدراتنا ، وعلى غرائزنا هي أسمى جزء من نفوسنا ـ وهي « العقل » وسلطة العقل هي السلطة الشرعية الوحيدة ، وخارج ما يأمر به العقل لا تكون هناك قاعدة أو سلوك له ما يبرره .

والنفس الإنسانية في تقدير « القرآن الكريم » ليست شريرة في أصلها ، ولا يفسد الإنسان إلا عدم استخدامه القوى والمواهب التي أودعها الله في نفسه (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

والأمر في الالزام الخلقي متوقف على مدى استخدامنا للقوى العليا التي أودعها الله إيانا ، وتنمية هذه القوى وتزكيتها (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

كما عنى القرآن كذلك بإيقاظ مشاعرنا النبيلة بشرط أن تعمل هذه المشاعر تحت رقابة العقل . والقرآن الكريم يدعونا دائما إلى أن نزن الأمور بميزانها الصحيح . قبل أن نحكم على قيمتها . كما يثير (القرآن الكريم) مشاعر الأخوة والاحترام والكرامة الإنسانية . وقد احتاط القرآن الكريم للإلزام احتياطا شديدا . فقرر أن الالزام عن الرسول لا يكون إلزاما حقيقيا إلا إذا كان مصدره الوحي . (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) .

وفي هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر . ولكن إذا حدثتكم عن الله فخذوا عني ، فإني لا أكذب على الله » .

وقد يختلف رأيه عليه الصلاة والسلام في تقدير أشياء الحياة المادية « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وقوله : « إذا نسيت فذكروني » .

(٣)

أثارت الفلسفة المادية الغربية قضية هامة ، أخذت صورة « المعضلة » قوامها تطور الأخلاق بالنسبة لعامل الزمن أو لعامل المكان ، وتنوع الطبيعة ، واختلاف ظروف الحياة من ناحية أخرى . مما دعا كثيرا من الفلاسفة الأخلاقيين الغربيين الى الدعوة للتحرر من المبادى الهامة ، والمثل العليا ، وتركيز الجهود على اللحظات الحاضرة . وكان ذلك مما دعا الغيورين الى التوفيق بين مثال عال للأخلاق وبين الحقيقة الواقعة التي يعيشها الناس بحيث يمكن أن يتحقق للفعل الأخلاقي « الثبات » الذي يتسم به كل قانون عام مع التنوع الذي يلائم ظروف الحياة .

والواقع أن القرآن الكريم قد تنبه لهذا الملحظ منذ أربعة عشر قرنا ، ووضع حلا لهذه المعضلة فقد أقام الالتزام الخلقي على قاعدة قوامها مراعاة الاستطاعة . وذلك في قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » . ويقوم هذا النص القرآني على أساس مفهوم « العمل الأحسن حسب وحي الساعة » . وبهذا يتحقق « التوفيق بين أوامر الله ، ومقتضيات الواقع ، ويجمع بين الاتجاهين : لاتحديد صارم . ولا ترك كامل » . ووفق مفهوم القرآن ، فإن ضمير المؤمن لا يسمح له بأن يقوم بأفعال غير مشروعة ، إلا إذا كان أمام ضرورة ملحة لا محيص عنها . وفي نفس الوقت : فإن الله سبحانه وتعالى يصفح عن خطأ من أخطأ بغير تعمد (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم) .

وعلى المؤمن في حال الشك أن يتبين في إخلاص ما يتفق مع أوامر الله . فإذا أخطأ بعد ذلك ، فهو ليس بمذنب ، فإذا اشتبهت عليه الأمور ، فعليه أن يتقي الشبهات « ولا تقف ما ليس لك به علم » .

وقد أوضح الرسول هذا المعنى في قوله : « الحلال بين والحرام بين » وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » .

وقوله : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك . فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة » . وفي الترجيح بين الشر والخير . قول الرسول ﷺ « استفت قلبك » في أيها البر ، وأيها الإثم ، على نحو واضح ، والبر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر .

***

وقوام موقف القرآن الكريم من الالتزام الخلقي في أمرين :

أولا : دعوته الى اتباع القواعد العامة التي أمر الله بها ، مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء في نطاق التفاصيل التي تعرض تبعا لتغير ظروف الحياة .

ثانيا : لا يدعى القانون الأخلاقي في القرآن الكريم : أن هناك طريقة واحدة لفهم القاعدة . أو أن هناك طريقة واحدة لتطبيقها ، أو أن هناك طريقة واحدة للتوفيق بينها وبين القواعد الأخرى ، فإن القاعدة مهما بلغت من الدقة والإحكام ، فإنها تترك أحيانا بعض التفاصيل دون تحديد .

وهنا يظهر مجال « الاجتهاد » الشخصي والتفكير الحر المستقل ، والاعتماد على ملكة العقل التي أودعها الله الناس . والمجهود الفردي واجب في نطاق الاخلاص ، وهو مجهود يحبذه القرآن ويدعو اليه .

ومن مضمون هذه النظرة الى « الالتزام الخلقي » في مفهوم الاسلام ، نجد حلا جذريا للمعضلة التي أثارها الفلاسفة الغربيون . قوامها وسطية الإسلام وتكامله وقدرته على الحركة دون أن يجنح الى الجمود ، أو التعصب أو الانحراف .

والأخلاق في مفهوم الفلسفة المادية إما فردية أو جماعية . بينما هي في مفهوم الاسلام توفق وتجمع بين الفردية والجماعية في وسطية وتكامل . فالفرد الممتاز هو نتاج الجماعة . والجماعة تتقدم في طريق النهضة بالممتازين من أبنائها .

وقوام الأخلاق في الاسلام : « الحرية والاختيار » فلا أخلاق بلا حرية ، كما لا تكليف بغير اختيار ، والارادة حركة داخلية نفسية صرفة . لذلك يقرر

الإسلام أن المكره إذا فعل ما يكره عليه . كان له عذره . وقد سمى الإسلام (حرية الارادة) : الكسب والاختيار ، وجعلها مناط التكليف ، ومدار العمل الخلقي .

ومن حرية الاختيار أن يكون العمل الخلقي متصفا بالطواعية والانبعاث من أعماق النفس حتى يكون صادرا عن ارادة طيبة من حب الخير والحق والفضيلة[1] .

(٤)

ذاعت نظرية دخيلة الى الفكر العربي الاسلامي تقول : « إن الأمة ليست بحاجة الى الدين ، ولكنها بحاجة الى الاخلاق التي هي وحدها ترفع الأمة الى مستوى الأمم الراقية وليس الدين » .

وتلك نظرية خطيرة في مفهوم الإسلام الذي يقوم على أساس التكامل بين القيم دون الفصل بينها ، فليس هناك أخلاق منفصلة عن العقيدة على أساس أن المسؤولية الأخلاقية هي مسؤولية جزاء . والجزاء جزء من الدين ، فلو استقر في النفس أنه ليس هناك دين يقرر البعث . فمعنى هذا أن ليس هناك جزاء . وهناك لا تكون للأخلاق قيمتها الحقيقية المندفعة من أعماق النفس . وقد أجمع كثير من الباحثين على أن « العالم » في العصر الحديث قد تضخم عقله ، وضعفت روحه ، وتأكد أن الاخلاق لم ترق ارتقاء مناسبا مع تقدم العلوم ، وأن العلوم قد تقدمت خلال القرون الأخيرة في جميع الميادين بلا استثناء . في حين أن الأخلاق إذا كانت قد ارتقت في بعض الميادين ، فإنها انحطت انحطاطا صريحا في ميادين أخرى . والواقع أن تقدم العلوم لم يتضمن تقدم الأخلاق ، بل على العكس من ذلك ، فقد صاحب تقدم العلوم جمود في الأخلاق عن التقدم ، فإن اغترار الإنسان بقدرته التي لا حد لها على الكشف والاختراع ، قد نزع عنه عقيدة الدين أساسا ، ثم كانت انطلاقة الغرائز واللذات عاملا مؤثرا على فكرة « الالتزام الخلقي » وغلبة مذهب

---

(١) بتصرف عن نص للدكتور (إبراهيم سلامة) .

المنفعة والأنانية ، بالإضافة الى عزل الأخلاق والدين عن مجال التربية والتعليم في الغرب . كل هذا قد أدى الى انعزالية الأخلاق .

وفي هذا يقول (جود) أستاذ الفلسفية الانجليزية في كتابه : (سخافات المدنية الحديثة) : إن المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق . ومنذ النهضة ظل العلم في ارتقاء والاخلاق في انحطاط . وقد غلب على الفكر العربي طابع التحرر المطلق في مجال المجتمع والمرأة والفن ، وظهرت الدعوة الى غلبة الجماليين على الأخلاقيين ، وطغيان فكرة الفن . ولا شك أن هذه الحركة كانت رد فعل أكيد لمفاهيم المسيحية الغربية في الأخلاق . هذه المفاهيم التي قامت على أساس الحرمان والرهبنة وتعذيب الأجساد بما يعوق الفطرة ، مما خلف انفجارا طاغيا في الدعوة الى « التحرر » . فالتحلل وظهور مذاهب تجدد الدعوة الى الاباحة الأخلاقية (الأبيقورية القديمة) . بحسبان أن اللذة الجسمية هي الغرض الأسمى من الحياة . وأن الفعل والتفكير هو أكبر معول في هدم الإنسانية .

وكذلك كان ذيوع نظرية (فرويد) في السلوك الجنسي وظهور الوجودية بمثابة رد على تحدي الحربين العالميتين الأولى والثانية . وكل المذاهب الفلسفية تظهر في مواجهة تحديات ، وهي تحديات متموجة فالنزعة الأبيقورية تظهر في مواجهة النزعة الرواقية ، والإلحاد يظهر في مواجهة الجمود ، والتحلل يظهر في مواجهة الرهبانية . والزهد يظهر في مواجهة الترف .

ويرى الباحثون أنه لا توجد نظرية طبيعية تظهر من فراغ . وقد حاولت هذه المذاهب اطلاق حرية الانسان إطلاقا كاملا ، والسخرية من (الالتزام الخلقي) بحسبان أن المجتمع عدو للإنسان . وقد قامت على أساس القلق والضياع والعدم . وكلها نظرات وفلسفات مرتبطة بواقع المجتمع الأوربي وظروفه الحربين العالميتين .

***

وفي قضية « الدين والضمير » : يقول الأستاذ : (عبد المنعم خلاف) : شاعت في هذا العصر خاصة الدعوة إلى الاستغناء عن الأديان ذات العقائد المرتبطة

بالكون وخالقه ، والإنسان ووضعه ، ومصيره . وذات الرسوم والشعائر والعبادات ، إكتفاء بالضمير الإنساني الوازع إلى فعل الخير والبر ، وحسن المعاملة والتماسك أمام الشهوات .

وفي رأى أصحاب هذه الدعوة أنها جديرة إذا اعتنقت أن تمحو كثيراً من أسباب الخلاف والنزاع والحروب التي تنشب بين الناس بسبب اختلاف العقائد والأفكار حول الكون والخالق ، والنبوة والرسالة ، وتفسير الحياة والموت . وبيان وضع النفس ومصيرها في الكون .

وقد ذهب أصحاب هذه الدعوة . قدماء ومحدثين إلى أن الصفوة الممتازة من ذوي العقول والجهلاء والدهماء ومن يليهم السعي لسد حاجات عيشهم المادي في أدوار حياتهم إلى نهايتها عن التفكير في مسائل العقائد الدينية ، كما ذهبوا إلى القول بأن الفضيلة ثوابها وقيمتها في ذاتها ، لا في جزائها الذي تعد به الأديان ، وأن فعل الخير وترك الشر لا يفيد تهذيباً ولا فضيلة ، وأن الاعتقاد في هذه الرغبات من الخير ، ومن الزواجر عن الشر ليس خرافة ، وهما ضارا فقط . بل هو مفسدة للعقول . وخاصة عقول الأطفال .

ورأي القرآن الكريم قاطع في أصحاب الفضائل والأعمال النافعة ممن لا يؤمنون بالله وحده . فقد قضى أن من يخرج على ذلك تهدر قيمة فضائله الذاتية ، وأعماله الخيرة .

ويجب التفرقة بين وظيفة العقل ، ووظيفة الضمير ، ومجالات كل منهما. فللضمير حساسية بالخير والشر ، والمعروف والمنكر ، وهو الذي وضع قائمة الأخلاق والفضائل لحل مشكلة التعايش بين الناس هنا في الدنيا . أما العقل فمجاله البحث عن الأسباب والأسرار لحل مشكلات الفكر والاعتقاد .

ومن هنا يثبت القصور والعجز لدى المذاهب المادية الإلحادية المعاصرة التي تحاول حبس التطلع العقلي الإنساني في البحث عن حلول لمشكلة العيش وحدها بدون نظر لما وراء العيش المادي الموقوت المحدود من مسائل عقلية حول الكون وما وراءه ، وعلاقة الإنسان به ، ومبدأ كل منهما ومصيره .

نعم إن حياة الضمير الوازع إلى الخير ، والزاجر عن الشر . هي خلاصة حياة التدين العملي ، وهي التي تعني المجتمع ، ولكنها ليست كل شيء في حياة التدين على إطلاقه ، بل ليست أهم شيء فيه ، ولا بدّ لها من إطار عقلي صحيح أن الناس تعودوا ألا يفرقوا بين الإيمان والعمل عند الحكم على دين الأشخاص . لأن العمل هو جسم الإيمان ، والإيمان هو روح العمل .

غير أن ذلك لا يبيح لنا أن نقول إن العمل الصالح هو كل الدين ، وإنه يعفي صاحبه من اعتناق العقيدة الصحيحة التي تنسجم مع بناء الكون ومنطق العقل . ومن اتباع الشعائر والمراسم التي وضعتها تلك العقيدة للعبادات تنظيماً وتنسيقاً وعلامات في حياة المؤمنين ، وطابعاً وشعاراً لمناسكهم ، وتدريباً لهم على فضائل معينة ، وليست الشعائر والمراسم إلاّ لتدريب النفوس على التلاقي في نظام وتناسق جماعي على مظهر من مظاهر العبادة ، وإلاّ إخضاعاً لقواعد عامة لتلك الأفراد وتنظيمها جميعاً .

كذلك لا يغني أحداً أن يكون فاضلاً صالحاً ذا ضمير حي ، وعمل نافع عن أن يؤدي الشعائر والعبادات التي وضعها ونظمها الدين ليؤديها الأفراد والجماعات . كذلك لا يغنيه عمله الصالح ، وفضله الذاتي عن أن يقدم الاعتراف بسيد الكون أولاً . ورأي القرآن في هذا ، وهو الرأي الحاسم : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء) .

والواقع أن الإسلام في مفاهيمه الأساسية يستطيع أن يتحامى هذه الأخطار ، فلا يواجهها بمثل ما واجهها به الفكر الغربي .

وأن تظل الشخصية الإنسانية سليمة من عوامل الاضطراب والقلق والضياع والتفسخ . ومن عوامل قدرتها على الصمود أمام الأخطار أنها تتحرك في نطاق فكر موحد . طابعه الوسطية والتكامل . ومن شأن الأخلاق فيه أن يمثل جزءاً لا ينفصل ، وأن الالتزام الأخلاقي قائم على أساس الحرية .

وبالجملة فقد ربط الإسلام :

أولاً : بين الأخلاق والدين ، وميز بين الآداب بحسبانها (السلوك الاجتماعي والكياسة) وبين الأخلاق (أعمال الإنسان المنبعثة من نفسه بعد روية وإرادة) .

ثانياً : الأخلاق معرفة وعمل ، والعقل يستطيع أن يحكم فيما هو خير وشر .

ثالثاً : تبني الأخلاق على الاعتدال والتوسط ، ولا بدّ من الجمع بين فضيلة العلم والعمل . والأخلاق الحميدة مبنية على الإرادة والروية ، لا على الشهوة والانفعال النفسي .

رابعاً : المبادىء الأخلاقية في الإسلام لم تكن مجرد وعظية نظرية . بل مبادىء إيجابية حكمية نبتت من الواقع والتحليل العلمي للسلوك الإنساني ، ولم تكن تستهدف تكوين عادة الخير فقط . بل خلق وازع داخلي ، ومقاومة دافع الشر .

خامساً : أساس الأخلاق في الإسلام : الالتزام ـ والالتزام الخلقي في القرآن يقوم على مراعاة هذه الحقيقة المزدوجة (فاتقوا الله ما استطعتم) .

وبذا عادل الإسلام ووازن بين الاتجاهين : « الانطلاق والانضباط » ويتصل بهذا مفهوم الفكر الاسلامي كله : المؤمن لا يعمل عملاً مشروعاً إلاّ أمام ضرورة ملحة . والله يصفح عن الخطأ غير المتعمد . (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم) .

وفي هذا المجال يدعو مفهوم الأخلاق إلى اتقاء الشبهات (ولا تقف ما ليس لك به علم) .

(والحلال بينّ والحرام بينّ وبينهما أمور مشتبهات . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) . « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » .

ويرسم الرسول صلى الله عليه وسلم مفهوم الخير والشر : « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في الصدر ، وتردد في النفس » .

وهكذا يحتضن الإسلام مفهوماً مرناً وسطاً قائماً على الالتزام الخلقي « اتباع القواعد العامة مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء في نظام التفاصيل تبعا لتغير الظروف . ولكن لها جانب من المرونة في الاختيار والتصرف . ومنها مجال الاجتهاد الشخصي والاعتماد على العقل » .

القضية السابعة

الإسلام والأدب

(١)

من أهم الشبهات التي تثار ، ما يتصل بحرية الأدب ، وإطلاقه من قيود الأخلاق . وقد عرض لهذا كثير من الباحثين . منهم الدكتور (محمد محمد حسين) : الذي يقول في هذا الصدد : إن أكثر ما يذاع من هذا (الأدب الهدام) إن جاز لنا أن نسميه أدباً يتستر تحت اسم مذاهب فنية ، أو دراسات علمية فباسم الرومانتيكية والوجودية . كتبت ألوان من الأدب ـ شعره ونثره ـ يطبعها طابع الأنانية والانطواء على النفس الذي يورث الهم القاتل لكل همة حينا . فتجد النفوس السقيمة لذتها في الشكوى والبكاء ، وفي أن تحيا كالبوم والخفافيش في الظلام ، أو العكوف على الشهوات الصارف عن كل خير حيناً آخر ، وباسم الواقعية وباسم التحليل النفسي ظهرت ألوان من الأدب ومن القصص خاصة تخوض في أوحال الرذيلة ، وتعرض خفايا العورات ، وتجرح كثيرا من الفضائل بزعم انها تورث الكبت ، وتبرر كثراً من الرذائل باسم التنفيس ، وتسقط التبعية في كثير من الجرائم بزعم أن أصحابها مصابون بأمراض نفسية ، وباسم التحرر واستقلال الشخصية شاعت دعوة إلى إعادة النظر في كل موارثينا الخلقية ، ومعايرنا الاجتماعية ، وإلى الخروج على كل ثابت مقرر مما توفره التقاليد ، ويقدسه الدين ، وإلى أن يبني كل فرد لنفسه عالماً مستقلاً من القيم ، تصبح معه مقاييس الخير والشر فردية : فلا يكون هناك خير هو خير عند كل الناس . ولا يكون هناك شر هو عند كل الناس شر . وعندئذ لا يصبح هناك مجتمع . لأن الروح الجماعية

هي أساس كل تماسك إجتماعي ، لا يكون هناك إلا الفوضى والخراب ، وباسم البحث العلمي والموضوعية راجت ألوان من الدراسات الأدبية ، والنقدية ، موضوعها آداب قذرة ماجنة زعم الزاعمون ان من مقتضيات المنهج العلمي ان يحترمها الدارسون حين يتناولونها بالدرس . وأن لا يعلقوا عليها بما يغض من قدرها ، أو يسفه مذاهب أصحابها .

والواقع أن كثرا من الآداب والدراسات التي تتزيا في عصرنا هذا بزي الفن والعلم ، وتتستر تحت إسمها ليست من النزاهة في شيء ، فكثير منها موجه لخدمة مذاهب معينة ، وتدعيم اتجاهات مغرضة ، وتحقيق بعض الخطوات المرسومة في خطة من خطط هذه المذاهب والمصالح والاتجاهات . ومن شاء فليقرأ خطط الصهيونية العالمية الهدامة المشهورة باسم « بروتوكول حكماء صهيون » ليقرأ ما جاء في البروتوكول الثاني : (أما غير اليهود فإنهم لا يستفيدون من تجارب التاريخ التي تمر بهم ، ولكنهم يتمسكون بنظريات روتينية دون تفكير في النتائج التي يسفر عنها هذا المسلك . لذلك فنحن لا نعير غير اليهود أية أهمية . فليلهوا ما طاب لهم اللهو حتى ينقضي الوقت، وليعيشوا على أمل ملذات جديدة ، أو في ذكرى متع سالفة ، وليعتقدوا أن هذه القوانين النظرية التي أوحينا بها إليهم ذات أهمية قصوى . فبهذا الاعتقاد الذي تؤكده صحافتنا نريد من ثقتهم العمياء في هذه القوانين ، يجب ألا يكون هناك اعتقاد في أن مناهجنا كلمات جوفاء . فنحن الذين هيأنا لنجاح (دارون وماركس ، ونيتشه) ولم يفتنا تقدير الآثار السيئة التي تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود) .

وليقرأ ما جاء في البروتوكول الرابع : « إن لفظ الحرية » تجعل المجتمع في صراع مع جميع القوى . بل مع قوة الطبيعة ، وقوة الله نفسها « جل الله وعلا » على أن الحرية قد لا تنطوي على أي ضرر . وقد توجد في الحكومات وفي البلاد دون أن تسيء إلى رخاء الشعب . وذلك إذا قامت على الدين والخوف من الله . والإخاء بين الناس : المجرد من فكرة المساواة التي تتعارض تماماً مع قوانين الخليقة . تلك القوانين التي نصت على الخضوع . والشعب باعتناقه هذه العقيدة سوف يخضع لوصاية رجال الدين ، ويعيش في سلام ، ويسلم للعناية الإلهية السائدة على

الأرض . ومن ثم يتحتم علينا أن ننتزع من أذهان المسيحيين فكرة الله ، والإستعاضة عنها بالأرقام الحسابية ، والمطالب المادية .

ولنقرأ ما جاء في البروتوكول الخامس : ولكي نطمئن إلى الرأي العام يجب باديء ذي بدء أن نربكه تماما ، فنسمعه من كل جانب ، وبشتى الوسائل آراء متناقضة لدرجة يضل معها غير اليهود الطريق في تيههم فيدركون حينئذ أن أقوم سبيل هو ألا يكون لهم أي رأي في الشؤ ون السياسية . والسر الثاني الملازم لنجاح حكومتنا يقوم على مضاعفة الأخطاء التي ترتكب ، والعادات والعواطف والقوانين الوضعية في البلاد ، لدرجة يتعذر معها التفكير تفكيرا سلياً وسط تلك الفوضى .

ولنقرأ ما جاء في البروتوكول التاسع : ولكي نحطم التنظيات التي أقامها غير اليهود عاجلاً . فإننا قد دعمناها بخبرتنا ، وأمسكنا بأطراف أجهزتنا . فقد كانت الأجهزة تسير في الماضي بنظام صارم . ولكنه عادل . فأحللنا محله نظاماً متحرراً غير منتظم ، ووضعنا يدنا على التشريع ، وعلى المناورات الانتخابية ، وتحكمنا في إدارة الصحافة ، وفي نمو الحرية الفردية . والأهم من ذلك كله إشرافنا على التعليم . وهو المعول الرئيسي للحياة الحرة .

من هذه النصوص التي تفسر كثيراً مما يصطرع في العالم الآن من مذاهب وغل ، يبدو أننا لا نغلو في الغول حين نطالب بالاحتياط في قبول كل ما يرد على الناس باسم الفن والعلم ، وحين ندعو الناس إلى أن يعرفوا حدود طاقاتهم ، وإلى أن يحددوا ميادين العقل وميادين التجريب .

إننا ندعو إلى مصادرة البحوث النفسية والإجتاعية والخلقية . فذلك ما لا يدعو إليه مفكر يقدر نعمة العقل ، ولكننا ندعو إلى تقييدها بالدين ، لئلا تتفرق بالناس السبل . ولكي لا تمزقهم الخلافات الواسعة ، والمذاهب المتصارعة المتناقضة .

وليس الدين قيداً في حقيقة الأمر ، لأنه لا يعطل العقل ، ولكنه يحفظه من الضلال ، ويلزمه أصولاً وقواعد ، هي كالسور الذي يعصم السالك في الظلام من التردي في الهاوية .

وهي مثل قوانين المنطق التي لا يعتبر التزامها حداً للتفكير ، ولكنه عصمة له ، وهي مثل الدستور الذي لا يعتبر تقيد الفقهاء به ، في كل ما يقننون حداً من سلطتهم ، ولكنه ضمان لهذه السلطة أن تزيغ عن القصد ، عن علم أو عن غير علم .

وقد كان من أثر سيادة هذه المذاهب الفردية الهدامة أن شاع في شباب الكتاب ، وفي بعض شيوخهم موجة من النقد تهاجم الشعراء الذين يهتدون بالمجتمع وتتناولهم بالتحقير ، وتخرجهم من زمرة الشعراء ، والأدباء ، حين تصفهم - على سبيل الاستهزاء - بأنهم شعراء المناسبات ، أو بأن ما يكتبونه ليس أدباً . ولكنه وعظ ، وكأنه قد أصبح من شروط الأدب أن تخرج موضوعاته عن حدود الأدب ، وأن يلتزم التعبير عن جوع المنحرفين إلى الشهوات .

وقد كانت القصة هي أبرز ما استحدث من فنون الأدب بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تلبث أن طغت على سائر فنون الأدب حتى أخملت الشعر أو كادت ، ورحبت بها الصحف على اختلاف ألوانها ، وجعلها الكثير منها باباً من أبوابها الثابتة استجابة لرغبات جماهير القراء . الذين أقبلوا عليها إقبالاً شديداً ، وساعد على رواجها بروز المسرح ، ثم ظهور السينما تقدم صناعتها ، وأعان على هذا الرواج سهولة تذوق القصة ، وهي مع ذلك أكثر ملاءمة للشباب ، لأنها أقدر على توفير الأجواء الحالمة ، التي تلائم سنّ المراهقة خاصة ، مما يجعلها أقوى الفنون الأدبية تأثيراً عليه ، وأخطرها في توجيهه .

وقد زاد في خطورتها سهولة تناولها ، وصعوبة التمييز بين الجيد منها ، والرديء على غير العارفين من العلماء وناضجي التفكير . فما أسهل أن يملأ الكاتب - أي كاتب - صفحات وصفحات بقال وقالت ، وبحكايات ملفقة ، ولا سيما بعد أن هجر الناس اللغة الفصحية التي لا يستطيعها إلا المثقفون ، إلى لغة الأسواق التي لا يتميز فيها عالم عن جاهل ، باسم الواقعية ، وباسم الشعبية . لذلك . ولما ألف القصة من حرية واسعة في تصريف أحداثها ورسم شخصياتها أصبحت من أخطر الأدوات تأثيراً في المجتمع ، وتجرأ على كتابها القادرون عليها وغير القادرين ، والناضجون من أصحاب المواهب والتافهون من الاغرار

والجهال .

واندس بين هؤلاء كثير من مرضى النفوس ، ومن ذوي الاهـواء ، وممـن ينقلون حين يترجمون أسوأ ما قرأوا من قصص الغرب المبتذلة ولا يتكلفون حين يؤلفون أكثر من تغيير الأسماء . وبذلك أصبحت القصة معرضاً للنماذج المنحرفة الشاذة المثيرة لأحط الغرائز ، وتعبيراً عن أمـراض النفـوس ، وانعـكاس المعـايير والتنفيس عن الشهوات [1] اهـ .

وتقول السيدة (نازك الملائكة) في بحثها القيم عن الأدب والغزو الثقافي .

« يحرص الغزاة وأعوانهم من الشعوبيين على قتل المعنوية العربية ، وإحلال المعنوية الغربية محلها ، ويكادون اليوم ينجحون في ذلك . فقد طلع في السنوات الأخيرة أدب عربـي تنعـكس فيه سمات النفسية الأوروبية ، ومظاهـر الأدب الغربي . وقد استعان الغزاة في عملهم هذا بوسائل معنوية مكنتهم من اجتذاب الجيل العربي الناشىء الذي يملك بقلة عمله وتجاربه ، استعدادا فطرياً للتأثر . والوسيلة الكبرى للتأثير في اليافعين . هي استعمال القيم الرفيعة التي يحرصـون عليها مثل الإنسانية والحرية ، فباسم هذه القيم يتم تضليلهم .

أما الإنسـانية فإن الشر الـذي يتستـر وراءهـا اليوم . هو قولهـم (الأدب العالمي) وبه يوحون لليافعين أن هناك أدباً عالمياً يتخطى الحدود ، ويعبر عن نفسية الشعوب أجمعين . بمعزل عن ظروفها وشخصيتها ، وأن هذا الأدب لا يناقش ، وإنما يقبل في كل مكان ، فمن لم يقبله كان جامداً أو رجعياً ، أو جاهلاً . وهم يضعون على عرش العالمية مجموعة من الأسماء الغـربية في الغالـب ، ويسألـون الشباب أن يعجبوا بكل حرف يقوله أصحابها دونما فحص أو مناقشة .

والأدب الغربي قد يكون عظيم الشهرة . ذا تأثير في أوروبا كلها دون أن

---

(١) دكتور محمد محمد حسين : اتجاهات هدامة في الفكر الغربي المعاصر .

يعني ذلك أن آراءه تنفعنا ، أو تتفق مع مطاليب حياتنـا الاجتماعية والفـكرية . والواقع أن أغلب آراء (سارتر) تناقض روحيتنا وحضارتنا . فلا مصلحة لنا في اعتناقها . إلا إذا أردنا أن نهدم أنفسنا . ذلك أن (جـون بول سارتـر) : ناشر فلسفة الغثيان ، ومضمونهـا أن المجتمـع يغيض ، وأن وجـود النـاس حولنـا هو الجحيم ، وأن الأخلاق والمثل والتقاليد سخافات يتلهى بهـا السـطحيون ، وأن الحياة حواء فارغ ، فلا يستحق الاهتمام فيه إلا الجسد والجنس . وأن الإنسان غير مسؤ ول لا أمام الله ، ولا أمام الضمير ، ولا أمام المجتمع . ولقد انتهـى الجيل اليافع إلى تصديق خرافة العالمية ، فلـم يقف عنـد الإعجـاب بالأشـكال الأدبية واللفتات الفكرية . والأساليب التعبيرية . وإنما قلد النظرة ، واعتنق الآراء .

وأما القيمة الثانية التي يستغلونهافي تضليل اليافعين العرب. فهي الحرية ، وقد زعموا أنها معنى مطلق لا يتقيد بشيء ، فكل حرية أفضل من كل تقيد . وما من إلحاد إجتماعي وأخلاقي أفظع من هذا . فإن المطلق معنى لا وجود له في الحياة الإنسانية ، لأن منفعة الجماعات تتحكم فيه فتقيده وتشذبه .

وهذا الزعم يجعل الحرية تتعارض مع الفضيلة ، ولا ينبغي للأخـلاق أن يتعارض شيء منها مع شيء ، وحسبنا دليلاً على ذلك التعارض أن الحرية المطلقة للفرد تناقض مصلحة المجتمع .

ولذلك تقيد بحفظ حقوق الآخرين ، ومصلحة الجماعة كلها . وعلى هذا تبطل حجة الذين ينادون بحرية الأديب في نشر أدب الجنس والإلحاد . فإن هذا الأدب يهدم المجتمع ، ومن حق الجماعة ان ترفضه . فلا يحق للمواطن ان يطعن أمته في صميم كيانها الروحي والخلقي بدعوى حقه من الحرية .

وهكذا اتجه أدبنا الحديث بدوافع من الإنسانية ، وحرية الفكر . إلى ترديد آراء الغربيين ، دونما فحص أو مناقشة ، فانتشرت روحية التشاؤم في أدبنا . وشاع الإحساس بأن الحياة عبث . وأن العدم خير من الوجـود ، وأن المشاعـر الطيبـة « قيد » للإنسان ، وأن الإنسان غير مسؤ ول أمام شيء ، ولا يمكن للباحث المتأمل إلا أن يلاحظ مدى بعد هذه النظرة عن طبيعة الحياة العربية اليوم ، فنحن نمر بفترة خصيبة رائعة ، وما من شك أن الفرد العربي أحسن حالاً ، وأكثر أملاً مما كان .

فلا ندري من أين يأتي هؤلاء الأدباء بالعدمية واليأس ، وإنكار الحياة .

أترى حياتنا الأدبية تسير في اتجاه معاكس لحياتنا القومية ؟ .

ونبحث عن الجواب عند نقادنا ، فلا نجد لديهم أكثر مما نسمع من الناقد الغربي من أن هذا الجيل ـ كما يقولون ـ (ذو تركيبة مزاجية معقدة تعقد الحياة التي يحياها) فكأنهم لا يرون الفرق العظيم بين الفرد العربي والفرد الأوروبي . والواقع ان بيننا وبين الغرب ثلاثة فروق جوهرية .

الأول : أننا أبناء أمة تؤمن بالروح والروحيات ، وتضعها فوق المادة ، بينما ما زال الغرب يؤمن بالمادة والماديات . ومن مظاهر إيمان الفرد البسيط هنا بالروح أنه يتوكل على الله في أموره كلها ، فلا يعرف اليأس ولا القنوط ، وهو مؤمن بالحياة كل الإيمان . تنحدر إليه هذه النظرة من عهود سحيقة . وقد عرفنا في التراث العربي صفة الإيمان والتفاؤل ، فحتى شعر الزهاد كان مليئاً بالحياة بما فيه من تطلع إلى الله ، وإيمان بالأخلاق والتضحية ومساعدة الآخرين .

الثاني : إننا نختلف عن الغرب في الظروف التاريخية التي نمر بها ، فنحن نمر بفترة حياة وابتعاث تهتز لها أرضنا كلها . إن مشاكلنا القومية وزحفنا نحو فلسطين ، ومعركتنا في حرب الفقر . كل ذلك يمنحنا هدفاً يستغرق حياتنا وكياننا . والمعروف عند علماء النفس أن المشغولين لا يجدون وقتاً للقلق واليأس والإحساس بالفراغ .

وفي مقابلنا يجد الغربي نفسه فارغاً له كثير من الوقت وقليل من الأهداف . إن في حياته فراغاً روحياً عميقاً سببه عدم إيمانه بالله وخلو حياته من الهدف الكبير الذي يضفي الجمال والرونق على الحياة .

الثالث : آخر الفروق بيننا وبينهم أن الغربي يرى غذاءه يصل إليه عن طريق استعمار الأمم وسرقة قوتها . ومن ثم فهو يحس قلقاً غامضاً ، لا يعرفه العربي الذي يأكل القليل الحلال ، ويحمد الله وينهض إلى عمله .

***

إن هذه الفروق بيننا وبين الغرب تجعل نقلنا لموقف اليأس والعدمية ،

والفراغ أمراً لا معنى له سوى تخيلنا عن كرامتنا ومصلحتنا وشخصيتنا ، فكأننـا نبكي في يوم عيدنا .

فاللون الذي يغلب على حياتنا لون أخضر بهيج . وفي مثل هذا الإطـار المشرق يصبح الأدب المتشائم المعلق على الصلبان أبعد ما يكون . عن التعبير عن نفسية الأمة .

إلا أن أدباءنا وقفوا عن التعبير عن مشاعرهم ، وراحوا يكررون ما يقول الأديب الغربي . ا هـ .

القضية الثامنة

الإسلام والمجتمع

من أخطر الشبهات التي توجهها الفلسفة المادية الغربية إلى الإسلام شبهة الفصل بين الدين والمجتمع ، أو الدين والمدنية ، أو الدين والدولة في مفهوم الإسلام . وقد جرى بعض الباحثين المسلمين هذا المجرى ببعض دوافع السياسة الحزبية في الماضي ، أو ببعض المتابعة للفكر الغربي والنفوذ الاستعماري فقالوا : إن الإسلام شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه . أما ما بين الإنسان من المعاملات الدينوية ، وتدبير الشؤ ون العامة ، فلا شأن للشريعة الإسلامية به ، وليس من مقاصدها .

وقد واجه العلامة (فريد وجدي) هذا المفهوم فقال : « إن قاعدة فصل الدين عن السياسة هي قاعدة أوروبية محضة سبب حدوثها ان الدين في أوروبا توصل إلى تكوين سلطة مستبدة قادت العامة والملوك ، فصيرت الحكومات قرونا تحت نيرها ، ثم بدأت في إلقائه عنها ، ونشأت من ذلك حروب حتى تغلب الآخرون ، وقرروا فصل الدين عن السياسة ، فهل تنطبق هذه القاعدة على ديانتنا الإسلامية في شكلها الخاص .

ليس في كتابنا (أي القرآن) أن يكون لنا هيئة رئاسة دينية بإزاء هيئة رئاسة دنيوية . بل إن الإسلام رمى إلى هدم ما كان يسمى بالسلطة الدينية ، وقوض كل أساس يمكن أن تبنى عليه تلك السلطة . والإسلام قانون عام للأفراد والأمم على مثال القوانين الأخلاقية المعروفة .

ولكن مع هذا الفارق الكبير ، وهو أن الإسلام قانون شامل لجميع مطالب الروح والجسد ، وقابل للانطباق على كافة الأمم بتوحيد مراجعها ومقاصدهـا . ومعنى فصل الإسلام عن السياسة فصل الأخلاق العامة عن السياسة ، ولا يقول بهذا عاقل .

***

ويقول الدكتور (محمد البهى) : إن الإسـلام دين الله ، ورسالـة خاتـم الانبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يعرف الفصل بين دين ودولة ، وإنما يعرف الحياة الإنسانية للفرد وفي علاقته بغيره . ولا يعرف قضية للدين والعلم ، وإنما يعرف مؤمناً بالله يحكي صفاته في نفسه من : علم ، وخلـق ، وإبـداع . ويتقرب بما يحاكيه إليه جل جلاله ، ولا يعرف حكومة إلهية ، ولا رفعا لإنسان عن مستواه الإنساني ، وإنما يعـرف إنسانـاً يعيب ويخطىء في تقـديره وفي رأيه وفي علمه ، ولا يعرف تفرقة بين الناس على أساس من العنصر أو العرق ، وإنما يعرف أن الناس جميعاً سواء في الإعتبار ، وفي المسؤ ولية لله . وأن التفاضل بينهم هو في مدى تحقيق مستوى الإنسانية في تفكير المؤ مـن وسلـوكه وعملـه هو في التقـوى والعمل الصالح [1] .

وجملة القول في هذا : أن الإسلام يربط بين علاقة الإنسان بالله ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض ، ويوجه العلاقتين ، وهو لا يقف عند الجانـب الروحـي وحده ، ولكنه يشمل النشاط الإنساني بأسره . الفردي والإجتماعي . ومثـل هذه النظرة تمنع بطبيعة الحال الفصل بين أمور الحياة الدينية والدنيوية ، وتمنع الفصل بين ما لقيصر وما لله . فالارتباط في الإسلام بين الدين والسياسة عميق وأساسي . وهو في هذا يختلف عن الفكر الغربي الذي فصل بين مسائل الاعتقـاد ومسائـل الحياة العلمية . واعتبر كلا منهما ينتمي إلى مملكة مغايرة . لقد فصلت أوروبا بين الدين والسياسة نتيجـة تاريخ طويل من تحيز الكنيسـة التـي فرضـت الظـلام ، والتخلف والجمود باسم الدين . أما الإسلام فقـد حرض على العلـم والنهضـة والتقدم وفتح الآفاق أمام التطور .

---

(١) من بحث مستفيض عن (الدين والدولة) .

القضية التاسعة

الإسلام والروحية الحديثة

من الدعوات التي تسوقها قوى الغزو الثقافي والإستعمار الفكري ، دعوة الروحية الحديثة التي تعتمد على استحضار أرواح الموتى ، وهي دعوة تعارض مفهوم الإسلام في أنها تخضع عالم الغيب للتجريب « فهي تلبس مسوح العلم ، وتصطنع اسمه حين تزعم انها تجري التجارب على الإتصال بأرواح من ماتوا . وتدعى أن هذا هو سبيلها إلى رد الناس عن تيار المادية الطاغية . والواقع انها ليست حربا على المادية . كما يزعم أصحابها ، ولكنها إغراق فيها وإمعان في التمسك بها . لأنها لا تقنع بإخضاع المحسوسات للمنهج التجريبي ولكنها تتطاول إلى ما وراءها تريد أن تخضعه للتجربة . وإذا سلم الناس بذلك انتهى بهم الأمر إلى إنكار كل ما لا يمكن ثبوته عن هذا الطريق » .

« ومن المعروف [1] أن الصهيونية الهدامة تكمن وراء كل الحركات السياسية والإجتماعية الكبيرة في القرن الأخير . بل منذ الثورة الفرنسية . وقد لا تكون الصهيونية هي المؤسسة للدعوة الروحية وأشباهها . فبعض هذه الدعوات نشأ مستقلا عنهم بعيدا عن سيطرتهم ، ولكنهم تمكنوا من التسلل إليها ، وسيطروا عليها ، واستغلوها لصالحهم » والشيء الذي لا شك فيه أن الروحية في وضعها الراهن شرك من شراك الصهيونية العالمية الهدامة ، وآلة في أيديهم يسخرونها لهدم المسيحية والإسلام على السواء . وهدم العصبية بكل أشكالها قومية كانت أم دينية ، لكي يمهدوا لقيام دولتهم الصهيونية التي يتوهمونها وسط أنقاض الخراب

(١) راجع بحث الدكتور محمد محمد حسين (الروحية الحديثة : حقيقتها وأهدافها) .

العالمي ، والانحلال الشامل الذي يسهل مهمتهم في السيطرة على العالم كله ، على ما يتخيلونه .

ومن أقوى الأدلة على صلة الروحية بالصهيونية العالمية الهدامة المطابقة الكاملة بين مزاعم الروحيين وبين عقائد اليهود في تصور الثواب والعقاب خاصة ، فكلاهما يعتقد أنهما سيكونان في آخر الزمان على الأرض ، ويهاجم الروحيون جميعاً رجال الدين عامة مهاجمة قاسية تذكرنا بما جاء بالمادة الرابعة عشرة من مقررات حكماء صهيون .

(ويعرض فلاسفتنا كل مساوىء أديان غير اليهود . ولكن لن يحكم أحد أبداً على ديننا من وجهة نظره الحقة ، لأنه لا يسلم به إلماماً تاماً سوى رجالنا الذين لن يخاطروا في أية حالة بالكشف عن أسراره) . ويذكرنا كذلك بما جاء في المادة السابعة عشرة من البروتوكولات : « لقد عنينا خاصة بالعيب في رجال الدين غير اليهود والحط من قدرهم في نظر الشعب ، وأفلحنا كذلك في الإضرار برسالتهم التي تنحصر في تعويق أهدافنا والوقوف في سبيلها . حتى لقد أخذ نفوذهم ينهار مع الأيام » .

ومن أساليبهم الخبيثة في هدم الدين ما تخترعه دوائرهم من اسماء الفراعنة من قدماء المصريين والهنود الحمر من قدماء الامريكيين الذين يزعمون أنهم يحتلون مكان القيادة بين أرواح الموتى ، وينسبون إليهم مهمة ما يسمونه (الأرواح الحارسة) في جلساتهم ، وهي الأرواح التي تتولى تنظيم الكلام بين الأرواح المتكملة بزعمهم ، وتتولى في الوقت نفسه حراسة الجلسة من تدخل الأرواح المشاغبة . ومن الواضح أنهم يقصدون بذلك هدم الإسلام والمسيحية ، وزعزعة يقين الناس فيهما بتمجيد الوثنية الضالة الكافرة التي سبقتهما ، وتصوير هؤلاء الوثنيين بعد موتهم متمتعين بطمأنينة ونفوذ لا يتمتع به المتدينون بالإسلام والمسيحية . وقد سرت هذه الدعوى إلى المستغلين بالروحية من المسلمين الذين يمجدون الفرعونية والفراعنة في الوقت الذي يندودون فيه بعلماء الدين .

ومنظمات الروحية مع ذلك تشترك مع كل المنظمات التي تعمل في خدمة الصهيونية العالمية في أنها تهدم « الخلق » حين تهدم « الدين » فالدراسات الروحية

قد أصبحت أداة هدم كالدراسات النفسية المتحرفة سواء بسواء ، فالفرويديون يبررون الجريمة حين يصورون المجرم مريضا ، ويرجعون دوافعهم إلى عقد نفسية مستقرة . فيما يسمونه العقل الباطن . فليس هناك إذن ما يدعو إلى القصاص . بل ليس هناك ما يدعو إلى أن يخجل مجرم من نفسه ، ولا إلى ان ينبذ المجتمع مجرما ويطارده بالاحتقار ما دامت المسألة مرضا لا حيلة فيه .

والروحيون يذهبون هذا المذهب نفسه من طريق آخر ، فهم يبررون الجريمة بإرجاعها إلى ما يسمونه (المس الروحي) .

والمجرم في الحالين مكره على الجريمة يرتكبها تحت عامل داخلي عند الفرويديين ، أو تحت عامل خارجي عند الروحيين ، وكل منهما يهدم التقنين الخلقي من أساسه ، لأنه يمحو المسؤ ولية الفردية التي هي مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة . ومن الواضح أنه يمحو في الوقت نفسه الشرائع السماوية كلها . بل القوانين الوضعية أيضا ، فهو عود إلى الجبرية الضالة المفسدة للدين وللدنيا جميعا . وبمثل ما يفسد الروحيون على الناس دنياهم يفسدون عليهم دينهم بما يزعمون لهم من ان الجنة والنار فكرة عقلية او حالة نفسية . وأن الناس على اختلاف اديانهم ، وعلى إختلاف نحلهم وطبائعهم يعيشون فيما وراء الموت حياة هي نفسها حياتهم على الأرض ، وأن فرصة التفكير عن الذنوب لا تنقطع بموتهم ، وهم بذلك يهدمون أكبر رادع للناس عن الظلم والفساد . وهم في الوقت نفسه يزجون بأنفسهم فيما اختص الله ذاته سبحانه وتعالى بعلمه .

لا ينبغي ان يغيب عن بال الناس أن إطلاق الاتصال بالموتى وجعله في متناول كل إنسان ، والاستعانة بهم في علاج مرضانا ، وفي شؤ ون دنيانا المختلفة ، إفساد للحياة التي يقوم بعض عمرانها على التنافس واستباق الخيرات ، وعلى المحاولة المتصلة الدائبة المتكررة في سبيل التفوق ، وفي التغلب على الصعاب والانتصار على مصادر التعب والقلق . ومن بينها المرض ، وهو كذلك إبطال للحكمة في خلق الموت والحياة . وما قدر الله سبحانه وتعالى وقضى في إقامة الحجاب بينهما لحكمة يعلمها تنتظم بها حياتنا في الدنيا والآخرة .

وقد أغنى الله المسلمين عن التماس الهدى والخير في هذه المجازفات . فأنزل

عليهم كتابا لا يضلون إن تدبروه واتبعوه . فمن أعـرض عنـه والتمس الهـداية والرشاد في سواه ضل . وكان الشيطان له قريناً وساء قريناً . وما أرى أولئك إلا أن يختاروا بين الكفر والإيمان ، وبين الضـلال والإسـلام . إن الصـهيونية العـالمية الهدامة التي تجذب الخيوط من خلف الستار ، وتحرك الدمى التي نراها تتحرك على المسرح داعية الى « المجتمع الجديد » لا تريد أن تبقى من المجتمع الجديد شيئاً : لغته وأدبه وفنونه ونظمه ، وأنماط حياته ، وخلقه ودينه . كل شيء فيه . وبعض هذه الدمى يظن في نفسه ، وظن به الغافلون من الناس ، أنه هو الذي يتحرك ، وأنه هو الذي يقول ، وهو الذي يفكر ويعمل ، لأن الأيدي الهدامـة الخبيثـة لا تحركه بطريق مباشر ، فهو متأثر بما يقرؤه لأسماء كبيرة في أعين الناس من مروجي الدعوات الهدامة وهؤلاء يهدمون المجتمع القديم في كل ما ذكرته ، وما لم أذكره من مقوماته ليجعلوا مكانها (العالمية) . التي يلوحون بها للنـاس ، ويزعمونهـا مفتاح الأمن والسعادة والسلام ، ولن يكون بعد (عالمية) ولن يكون إلا الخراب . ولكن الخراب حائق بالمفسدين . وذلك وعد الله سبحانه وتعالى حيث يقول :

«وإذ تأذَّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

وحيث يقول تبارك وتعـالى : « وألقينـا بينهـم العـداوة والبغضـاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً . والله لا يحب المفسدين » .

« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ثانيـًا :

مشكلات الفكر

قضايا القيم ، التطور ، الحرية ، العقل ، التقدم ، العلوم والانسانيات ، التجديد ، الأصالة ، البطولة ، المأساة ، النبوة ،العبقرية ،الفنون الجميلة ،لقاء الأجيال ، الضياع ، الفلكلور ، الضمير .

مدخل إلى البحث

إن حقائق كثيرة ، ووثائق عديدة ، تكشفت في السنوات الأخيرة ، لها أثر كبير على كثير من الآراء والنظريات . والقضايا التي كانت تعد في نظر الكثيرين من المسلمات في مجال الفكر والثقافة والتاريخ . بينما هي شبهات زائفة صيغت في صورة براقة خادعة ، فبدت كأنما هي حقائق ، واستمر خداعها زمناً طويلاً ، وكان بعيد الأثر في تحقيق أهداف التغريب والغزو الثقافي الرامية إلى انتقاص قيمنا ، وزلزلة الثقة بمفاهيمنا وعقائدنا .

ومن شأن هذه الحقائق أن تدعونا إلى إعادة النظر من جديد في آفاق الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، وموقفها من الفكر الوافد .

ومن أخطر ما تكشف في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، تلك المخططات الاستعمارية الصهيونية السرية الرامية إلى تدمير المجتمعات الإنسانية ، وخاصة المجتمع الإسلامي العربي عن طريق طرح عديد من النظريات والمذاهب الوثنية والمادية المتصلة بالنفس الإنسانية ، والأخلاق والعقائد والتاريخ واللغة ، ومقارنات الأديان والتربية .

وقد قصدت هذه المخططات إلى محاولة تغريب العرب والمسلمين ، وتفريغ الفكر الإسلامي العربي من مقوماته وقيمه وذاتيته في بوتقة الفكر العالمي الوثني المادي ، والعمل على إسقاط الفكر الإسلامي والقيم الإسلامية ، وإخراج المسلمين والعرب من قيمهم ومقدراتهم وتذويبهم في الأممية والعالمية .

وقد جرى ذلك عن طريق خلق دائرة براقة تحمل لواء ما يسمى بالحرية

الفكرية والعصرية ، ثم عمدت هذه الدعوة إلى إعلاء شأن الماضي الفرعوني والإغريقي والجاهلي العربي ، وإحياء الأساطير ، وإعادة صياغة الوثنيات والفلسفات السريانية والمجوسية والباطنية ، وإحياء عشتروت ، وزيوس وباخوس . . . الخ . ثم عمدت هذه الخطة إلى إخراج التاريخ الإسلامي وبطولاته عن مفاهيمها الإسلامية ، وذلك بالتشكيك فيها ، أو إخضاعها للمفهوم المأسوي الإغريقي الذي يختلف اختلافاً واضحاً مع مفهوم التوحيد الإسلامي . ولم يقف الأمر عند هذا . بل إن هذه الخطة شملت طرح نظريات خطيرة في مجال العبقرية والأجناس . وفي مجال علم الدين المقارن ، وفي مجال تزييف الأخلاق والقيم ومفاهيم الحضارة والتاريخ والأدب .

وجرى ذلك كله من خلال نقطة انطلاق واحدة هي (المادية) التي ترفض الأديان والنبوات والرسالات السماوية ، وتدعو إلى بعث الوثنيات ، وأفكار الغنوصية والأباحية والإلحاد .

***

ولقد وضعت هذا المخطط قوى كثيرة هي : الصهيونية ، والاستعمار ، والمادية . وهي قوى كلها تجمع على العمل لسحق المسلمين والعرب ، والسيطرة على مقدراتهم وثرواتهم مع الحيلولة بينهم وبين امتلاك إرادتهم أو استعادة قوتهم وذاتيتهم .

وقد انطلقت هذه القوى من نقطة واحدة هي : إزالة شخصية (عالم العرب والإسلام) وتفريغ ذاتيته وإذابته في الأممية والعالمية ، واحتواء مفاهيمه وقيمه ، حتى يصبح تابعاً ليس من جهة مقدراته وثروته فحسب ، بل من خلال وجوده وكيانه وشخصيته .

ولقد جرى تنفيذ هذا المخطط منذ وقت بعيد ، وشاركت فيه القوى الاستعمارية ، والدولية ، والصهيونية ، واتخذت من التبشير ومعاهد الإرساليات والمحافل الماسونية أداتها . فقد انبث خريجو هذه المعاهد والمحافل ، فسيطروا على بعض وسائل الصحافة والثقافة والمدرسة ، واتخذوا منها في بعض الأقطار أداة على

تغيير فكر هذه الأمة ، وتزييف مضامينه ، وبعث الفلسفة الماسونية المادية التي تستهدف تدمير القيم والأخلاق ، والأديان ، وطرح عشرات من الشبهات والأشواك والأخطاء أمام المثقفين .

وقد استطاعت سموم هذه الشبهات أن تسري في النفوس والعقول ـ آنذاك ـ لأن الاستعمار قد فسح لها الطريق ، حين عمل على تحطيم الحصانة النفسية والروحية التي كانت تحمي النفس العربية الإسلامية من الغزو ـ حين ألغى دراسة الإسلام ، والعربية ، والقرآن من مناهج التعليم المفروضة ، والتي كانت جميعها أو أغلبها تدرس بلغة المستعمر : الأنجليزية : في مصر والسودان ، وفلسطين والعراق ـ والفرنسية : في المغرب كله وسوريا ولبنان .

فقد استطاعت قوى الاستعمار حين سيطرت على مناهج التعليم أن تفرغها من مفاهيم الإسلام الصحيحة ، وأن تباعد بين الشباب المتعلم ، وبين منهج القرآن الفكري والتربوي والاجتماعي ، ثم حولت مفهوم الإسلام إلى مفهوم لاهوتي قاصر لا يمثل عظمة الإسلام الجامع (ديناً ونظام مجتمع) .

ومن ثم دخلت مفاهيم الإسلام زيوف كثيرة ، واختلطت بمفاهيم الوثنية والمادية والأديان الوضعية غير السماوية ، التي خرجت عن التوحيد والتقوى .

***

لقد كان الإسلام في ذاته يحمل من الأصالة ما يجعل فكرة متميزاً عن فكر أي أمة أخرى . هذه الأصالة التي استمدها من وحي السماء ، ورسالة النبوة ، وكلمات الله المنزلة .

ولقد كانت نقطة البدء في هذا المخطط كله كلمة واحدة هي : إخراج المسلمين والعرب من مقومات فكرهم . هذه المقومات التي أمدتهم في كل أزمة . وما تزال وستظل تمدهم ، بالقوة والصلابة والصمود في وجه كل غزو وإزاء كل قوة خارجية .

وما دام المسلمون والعرب متمسكين بمقومات فكرهم التي استمدوها من

القرآن أساساً ، فإن أي قوة غازية . أو مسيطرة تعجز ـ كما عجزت مرات على طوال التاريخ الإسلامي ـ عن أن تقف في وجههم ، وإنهم إذا عادوا إلى مصادرهم ومنابعهم ، فإنهم سيكونونُ قادرين على الصمود في وجه أعتى قوى الأرض ، ومواجهتها وسمعتها .

ولذلك فإن العمل الخطير ـ في تقدير حركة التغريب ـ هو تزييف هذه المقومات ، وإشاعة الشبهات حولها ، ومسخها وضربها بمفاهيم أخرى على سبيل خلق الشكوك والريب ، وكذلك إفساد المصادر نفسها بالإسرائيليات القديمة والجديدة ، وإفساد القائمين على هذا الفكر بالتبعية والولاء والطموح إلى المناصب والثراء ، وإفساد من تلقي إليهم بتفريغ مناهجهم المدرسية من (روح الإسلام) .

***

ومن ثم يصبح ما يتبقى من مظاهر الإسلام كدين لاهوتي بدون قيمة حقيقية ، ولا قدرة له على التصحيح ، ومن ثم فهي لن تحمي هذه النفوس والعقول من أهواء المغريات التي يطرحها بريق الحضارة تحت الأضواء وحول النار ، نار الشهوات واللذات والمتع والمغريات مع سريان مذاهب الإباحة والإلحاد ، وتشبع الثقافات بها ، وترويج القصص الجنسية لها .

ومن شأن وسائل الإغراء بالصورة العارية والكلمة المكشوفة أن تقدم في هذا المجال ما لا يدع للنفس العربية الإسلامية ، ولا للعقل العربي الإسلامي مجالا للبحث عن قيم الأخلاق والايمان والتوحيد ، ظنا منهم أنها ستذوب كلها تحت ضربات معاول الهدم الصارمة . ذلك هو لب المخطط الخطير الذي فرضته القوى الاستعمارية الصهيونية على عالم العرب والإسلام ، واستطاعت خلال خمسين عاماً أن تغرقها فيه إغراقاً ، بينما زحفت قوى الغزو الصهيوني واستطاعت في غفلة مؤقتة أن تسيطر على فلسطين . فالقدس .

وإن أخطر ما يواجه العرب والمسلمين اليوم أنهم قد يتحركون من داخل دائرة الفكر الذي فرضه عليهم النفوذ التغريبي الخطير . ولذلك فإن أول علامات

اليقظة والمقاومة هي التحرر من مقاييس التغريب ، ومذاهبه ، والمفاهيم التي حاول أن يفرضها ـ وهي زائفة أصلاً ـ من أجل تدمير النفس العربية الإسلامية ـ واحتواء العقل العربي الإسلامي .

إن أول علامات اليقظة أن نكشف هذا المخطط ، وأن نعيد النظر في المفاهيم الخاطئة والمصطلحات المنحرفة والشبهات المطروحة . (وهذا ما سنحاوله في هذه الدراسة) ذلك أن أصالة الذاتية العربية الإسلامية الجذور الصلبة المؤمنة ، تتمثل في أنها لم تستسلم أبداً ، وأن هناك ضوءاً كاشفاً أخذ يدحض هذه الشبهات . وهو ضوء قد امتد على الزمن ، ولم يتوقف ولم ينقطع ، استيقظ قبل الغزو الاستعماري . وما تزال الأحداث تمده بالقدرة على المقاومة . ولقد كانت أزمة ١٩٦٧ واحتلال القدس عاملاً هاماً في التفاته إلى الحقيقة التي ليس بعدها حق . التفاتة إلى المصادر الأصيلة لوجوده وكيانه وحياته ، فقد كشفت له الأحداث والتجارب أن بلسم جراحه ، وضياء روحه لن يكون إلاّ من داخله ، لن يصل إليه عن مصدر آخر غير المصدر الأول ، الذي تشكل منه عند ما بزغ ضوء الإسلام ، وأن آية النصر ما زالت هي الاستمرار من المنابع الأصيلة ، وأن أمة ما لن تستطيع أن تعود إلى الحياة ، ولا أن تصمد في وجه الغزاة ، إلا إذا التمست الضياء من أعماقها ، من داخلها ، من كنزها المدخر . الذي إن زهدت فيه حيناً ، وتطلعت إلى ما في أيدي الآخرين ، فإنها قد آمنت أخيراً بعد الصدمات والتضحيات أنه لا سبيل أمامها إلاّ التماس المنابع الغنية ، والمصادر الثرية التي كونت الذاتية الإسلامية العربية وشكلتها أول مرة ، ووضعت لها مقومات حياتها وقوتها وإنبعاثها مرة أخرى كلما ألمت بها الأحداث ، وادلهمت حولها الخطوب . إن المصدر الحقيقي هو « القرآن » ونقطة البدء هي « التوحيد » . وفي هذا الضوء ننظر في هذه الشبهات التي طرحها التغريب ، ونعيد النظر في هذه القضايا والنظريات .

***

ونحن نذكر هنا جيداً كيف قام كفاح المسلمين ، فلم يتوقف لتحرير الفكر الإسلامي من هيمنة الثقافة والعقلية التي سلطها عليه الفرس واليونان والهنود ، كان إيمانهم بابتعاث شخصيتهم الإسلامية العربية ، والحيلولة دون أن تذوب

وتتلاشى ، هو مصدر كل نصر وقوة وحياة .

إن المحاولات الدائمة لإخراجنا من إطار فكرنا الإسلامي العربي لم يتوقف منذ أكثر من خمسين عاماً ، وهي تتشكل كل يوم في صورة أو أخرى ، حمل لواءها الاستعمار والتبشير . والاستشراق والشعوبية والتغريب والغزو الثقافي ، وحاولت انتهاز كل نكبة أو نكسة لتجديد دعوتها المسمومة التي تحاول أن تلقي أمتنا في تيه مظلم لاضياء معه ، ولا نور حين تدعونا أن نتحرر من كل المقدسات والقيم ، وأن نتخلص من الماضي كله ، وأن نزدري العقائد ومفاهيم الأديان السماوية ، وتعمل على دفع النفس العربية الإسلامية عن الخروج عن ذاتيتها ومزاجها النفسي بخروجها عن الأخلاق والإيمان والتوحيد .

ولقد جرت منذ نكسة **١٩٦٧** أقلام كثيرة بكلمات ماكرة ، تبعث اليأس ، وتدعو إلى الخروج عن القيم والأديان ، وتزدري التاريخ والتراث والشريعة واللغة ، وهي دعوات باطلة لأنها تصدر ممن لا يؤمنون بهذه الأمة ولا يريدون لها الخير .

ولقد طرحت هذه الدعوات أفكاراً ومذاهب وآراء أثارت الشبهات في صدور بعض شبابنا وعقولهم ، فحق لأداة التصحيح أن تظهر ضياء الحقيقة ، وأصبح ضرورياً أن تحرر القيم ، وتصحح المفاهيم ، وتكشف البواعث والغايات التي تكمن وراء هذه الشبهات المسمومة .

***

إن الهدف هو « تغريب الفكر الإسلامي » ووضعه في قيود الوثنية والمادية والإلحاد والإباحية .

ولكن الفكر الإسلامي صاحب الأصالة المستمدة من جوهره الناصع القرآني ، ومن ماضيه الطويل ، وجذوره العميقة الثابتة قادر على أن يدفع عن نفسه هذه الموجة الطاغية ، كما دفع الموجات المتوالية السابقة ، وانتصر عليها . ذلك لأنه يستمد من معين التوحيد ومن الحق ومن الفطرة ومن القرآن الذي يفرق بين الحق والباطل ، والذي نزل للإنسانية هادياً في حيرتها . فقد جاء القرآن

تصحيحاً لكل المفاهيم والمذاهب والدعوات التي صرفت مفهوم الرسالة السماوية الحقة ، التي جاءت على أيدي رسل الله ، فكشف عن كل عوامل التحريف ، ووضع لنا القواعد التي لا تبلى في مواجهة أخطار التغريب والتزييف . لقد أقام الإسلام عالماً من الحق والإيمان في مواجهة عالم الباطل ، فحق عليه أن يجالد أخطار الوثنية والإلحاد ولا يتوقف عن المجالدة على مدى الزمن صامداً قادراً مستمداً أسانيده وحججه من ذلك المعين الصادق . لقد جاء الإسلام بعد أن تشكلت للوثنية المادية فلسفة ومناهج ومذاهب كشف عنها القرآن ، وزيفها وأبان وجه الحق فيها ، وما تزال موجة الوثنية تقوم في غيبة الحق وتعلو وتنشر جناحها ، ثم يجيء المصلحون الأبرار من علماء المسلمين فيكشفون الزيف ويردون الحق إلى نصابه .

ونحن الآن نعيش في موجة ضارية من هذه الموجات ، استطاعت أن تلبس لباس العلم والفلسفة ، وأن تقيم باطلها على أساليب براقة خادعة في عالم اضطربت مقاييسه ونظمه ، فحق على المسلمين وفرض عليهم أن يتقدموا ويحملوا مشعل التوحيد والإيمان لتحرير المناهج وتصحيح الآراء ، ليحق الله الحق ويبطل الباطل ، ويتم الله نوره ، ويعلي عالمه ، ويذل عالم الوثنية المادية .

وإذا بدا أن المادية والوثنية مسيطرة اليوم ، فإنما هي جولة من جولات الباطل ، ثم ينكشف الحق واضحاً والحق ظاهراً (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) .

إن أهم أهداف الفكر الإسلامي في العصر الحاضر ، وكبرى تحدياته هي : تصحيح المصطلحات ، وتحرير القيم من مفاهيم وافدة أو زائفة تريد أن تحل محل المفاهيم الأصيلة ، وسنة مخططات التغريب ترمي إلى إحلال « مفاهيم دخيلة » بدلاً من « المفاهيم الأصيلة » التي يراد إبعادها عن مجال الحياة والفكر .

ذلك أن أولى مهام الغزو الثقافي هو تزييف الحقائق وتمويهها ، وإفساد مضامينها . ولذلك كانت صيحة حركة اليقظة منذ أكثر من مائة عام . هي المناداة بالتماس الأصول والمنابع ، وأن لا نمتص أي شيء قبل عرضه على مقاييس فكرنا . ولقد كان المسلمون والعرب على مدى التاريخ ، كلما تدلهم الأحداث ، وتحيط بهم

أزمات الغزو الخارجي يتنادون بالعودة إلى المنابع ، فالتماس المنابع هو الأصالة وهو الضوء الحقيقي الهادي إلى الطريق ، دون شك أو ريب ، دون خوف أو تردد .

(تركت فيكم أمرين ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنتي) .

لقد طرحت في السنوات الأخيرة « مفاهيم » جديدة وافدة لقيم عالمية ، وجرت محاولات لتصوير هذه المفاهيم بصورة علمية ، لها بريق متوهج ، وطابع لامع . وذلك في محاولة لإحلالها في مكان مفاهيمنا الأصيلة لتلك القيم . ولقد بدأ بعد وقت ليس بالقصير (عدم تقبل) الذاتية العربية الإسلامية ، والمزاج النفسي للعرب والمسلمين لهذه المفاهيم الوافدة مهما بدا من بريقها وازدهارها .

***

وقد اتصلت هذه المفاهيم بكثير من قضايا الفكر ، وخاصة منها نظريات التطور ، والحرية ، والعقلانية ، ومفهوم القيم والتقدم والتجديد والأصالة ، وعلاقة مناهج العلوم بالإنسانيات والمجتمع .

كما اتصل ذلك بمفاهيم البطولة والنبوة ، ومفاهيم المأساة التراجيديا والفن ، واتجه أكثر الحديث نحو الشباب فيما يتصل بلقاء الأجيال أو صراعها ، وفيما يتعلق بالأساطير والأدب ، ومفهوم الحضارة ، وامتد إلى ما يتصل بالترجمة وبالمصطلحات المتعددة كالضمير والنرفانا وغيرها .

وتشكل هذه المجموعة من المفاهيم قضية واحدة تتفرع إلى قضايا ، ويمكن أن يطلق عليها جميعاً « قضية تصحيح المفاهيم » وتحرير القيم والكشف عن أخطاء المصطلحات .

ونحن أمام هذه المفاهيم على رأي واضح محدد : هو أن لكل قيمة من القيم مفاهيم مختلفة ونظريات متعددة تختلف باختلاف الأمم والشعوب التي تستمد مفاهيمها من تراث طويل قوامه عقائد وتاريخ ولغة ومزاج نفسي .

هذا فضلاً عن أن ما يقدم لنا ليس حقيقة علمية ، أو مفهوماً عالمياً مقرراً

يمكن تطبيقه على النفس الإنسانية عامة ، أو على المجتمعات قاطبة ، وما من قضية تطرح في مختلف مجالات الفكر والعقائد والثقافة إلاّ ولنا «نحن المسلمين» نظرية أصيلة فيها ومفهوم شامل ، ومنهج متكامل ، وما من جديد يمكن أن يقال إلاّ ويجب النظر فيه في ضوء مقاييسنا وقيمنا . ولقد كانت النظرة الإسلامية هادية للبشرية كلها منذ أن فجرت طاقاتها قبل خمسة عشر قرناً ، لأنها استمدت مفهوم قيمها من مصدر واحد هو : الفطرة الإنسانية القائمة على التوحيد والإيمان بالله ، والتي اتخذت من الالتزام الخلقي قاعدة لحركتها .

لقد قدم الإسلام للبشرية منهجاً متكاملاً للفكر والحياة والمجتمع والحضارة ، وهو منهج تطبيقي عملي وليس منهجاً نظرياً أو مثالياً هو : منهج القرآن الكريم القائم على الأصالة والربانية والحق .

فنحن في كل مجال يتحتم علينا أن نقف ونسأل عن مفهومنا لكل ما تطرحه النظريات المختلفة .

إن النظرية الوافدة دوماً هي من صنع قوم آخرين ، أقاموها على مقياس مجتمعهم ، وابتدعوها في ظل تحدياتهم الواقعية والتاريخية جميعاً . هذه التحديات التي ربما دفعتهم إلى الانفصال عن مناهج الأديان ، والتماس الحلول من الفلسفات . أما نحن . فإن الأمر لدينا يختلف .

***

لقد جاءت تبعية المسلمين والعرب للفكر الوافد نتيجة للاستعمار ، وقامت عن طريق إرادة مقيدة في ظل سيطرة النفوذ الأجنبي على التعليم والصحافة والثقافة . ولم تكن هذه التبعية اتجاهاً طبيعياً ، ولا رغبة أصيلة .

ولقد كان الفكر الإسلامي - دائماً - ولا يزال متفتحاً لثمرات الفكر البشري ، ولكنه كان قادراً - حتى في أشد مراحل الضعف والتخلف - على المحافظة على ذاتيته . والحيلولة دون انصهاره في الفكر العالمي .

***

ونستطع هنا أن نضع واحدة من الوثائق الكثيرة التي تكشف هدف الحملة على الإسلام ، وهي ما نشرته جريدة « التيمس » فقالت : كان الاعتقاد قديماً أن الإسلام هو دين شعوب الصحراء . وقد يتقدم إلى الحضر ، وما كان أحد يصدق أنه يستطيع أن يخترق المناطق الاستوائية ، وأن يصل إلى جنوب إفريقيا . وقالت : ويختلف الغربيون في اتجاههم الفكري نحو مستقبل الإسلام في أفريقيا . فمن قائل أن تقدم الإسلام لن يضر بالمصالح الاستعمارية ما دام يسير (أي الإسلام) في الخطوط التي رسمها له الاستعمار . بينما يرى آخرون ضرورة « الحد من تقدم الإسلام » عن طريق نشر البدع والخرافات . « أي نشر البدع المخالفة لأصل الإسلام لإفساده وإزالة حقيقة الإسلام عنه على بقاء إسم الإسلام عنواناً له) . حتى يكون ذلك بمثابة حائل يقف أمام ضغط الاسلام المتزايد .

وهكذا يؤكد هذا النص . أن هناك محاولتين في مواجهة الإسلام .

(الأولى) أن يتحرك الإسلام في الخطوط التي رسمها له الاستعمار . أي في دائرة التغريب والغزو الثقافي ، ومع العمل الدائم للتبشير والاستشراق .

(الثانية) هي : نشر البدع والخرافات ، وتحريف المفاهيم والقيم . وهذا ما يطلق عليه (هدم الإسلام من الداخل) وإن نظرة واحدة إلى هدف التغريب كما صوره دهاقنة الاستعمار والنفوذ الغربي . ليؤكد هذا المعنى . فهم يهدفون منه إلى « إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية ، وتنفر من الدين ، وتعمل على إبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه » . وبذلك تعمل من خلف ستار دون أن تواجه المشاعر الدينية بالعداوة السافرة . وعندهم أن أبرز معالم التغريب . هي غرس مفاهيم ثقافية وتربوية في نفوس المسلمين تخلق فيهم نزعة الاحتقار لقيمهم ، والاعتزاز بقيم الغرب .

***

وتتصل هذه المفاهيم بتحريف التاريخ الإسلامي ، وتشويه مبادىء الإسلام وثقافته ، وانتقاص الدور الذي لعبه في تاريخ الثقافة الإنسانية ، ومحاولة خلق شعور بالنقص في نفوس المسلمين يحملهم على الرضا والخضوع للنزعات

والمذاهب الغربية . وكذلك العمل على طريق المناهج الدراسية ، ووسائل الثقافة والفكر على توهين القيم الإسلامية ، والغض من اللغة العربية ، وتغييب هذه القيم ، وإحلال قيم أخرى بدلاً منها ، بحيث تصبح هذه القيم الجديدة معتقدات عامة .

وبالجملة فالتغريب محاولة لحمل (عالم العرب والإسلام) على قبول ذهنية الغرب والانصهار في بوتقة فكره ومفاهيمه ، والتحرك من خلال المناهج والأساليب والوسائل التي فرضها على العقل الإسلامي العربي . والنفس الإسلامية العربية . وهذه هي أخطر مراحل التغريب .

ذلك لأن خطر سيطرة فكر على فكر هي نقله من دائرة فكرة وأساليبه ومزاجه النفسي وترويضه على التحرك في دائرة الفكر الوافد المسيطر .

***

ولذلك فإن أول خطوات التحرر من نفوذ التغريب والغزو الثقافي هو فرز المفاهيم الوافدة والكشف عنها وتنحيها ، وتحرير الفكر الإسلامي منها ، وإعادته إلى التماس مفاهيمه الأصيلة للقيم بدلاً من المفاهيم الدخيلة . ونحن إزاء ذلك كله لا بدّ أن نواجه الحقائق الآتية :

(أولاً) أن كل ما كتبه الغربيون من حملة على الدين ، فإنما كان من المقصود بها هو دين الغرب أساساً .وأن نقل هذه القضية إلى الفكر الإسلامي هو نوع من التمويه . ذلك أن الفكر الإسلامي لم يعرف في تاريخه كله أزمة خلاف بين الدين والعلم ، أو صراع بين الأخلاق والمجتمع . أما مفهوم الغرب فقد كونته ظروفه التاريخية من جهة وطبيعة فهمه للدين والحياة من جهة أخرى ، بالإضافة إلى موروثاته الوثنية اليونانية .

ومن أكبر الأخطاء : أن مشاكل الغرب وقضاياه التي مرت بظروف مختلفة نقلناها وكأنها حقائق . وأن نظرياته المطروحة للبحث ، وفروضه في مجال النفس والأخلاق والتربية ، حاولنا أن نؤمن بها وكأنها علم مقرر أو أمور ثابتة .

(ثانياً) أن أموراً كثيرة قد جرى طرحها وفهمها من خلال مقاييس الغرب ، وللغرب مقاييس في مجال التاريخ واللغة والعقائد ، ولنا مقاييس مختلفة ، ومفتاح مقاييسنا الأصيل هو : تكامل القيم ، وترابطها كوحدات منتمية إلى أصل واحد .

(ثالثاً) إن من أبرز قواعد مقاييسنا أن الإنسان يعيش في دائرتين متصلتين :

دائرة مادية ، ودائرة معنوية . وأنه جماع الروح والمادة والقلب والعقل ، ولذلك فقد جاءت رسالة الإسلام إنسانية ، وليست روحية صرفة أو مادية صرفة .

(رابعاً) أن تاريخ أي أمة هو وحدة كاملة ، متصلة الحلقات ، وكذلك يمثل تاريخ فكرها وحدة لها ذاتيتها وكيانها ومزاجها النفسي والاجتماعي .

(خامساً) أن هناك محاولة دائمة لترديد كلمة العقائد الموروثة في باب الانتقاص أو التقليل من شأنها . وهي كلمة يراد بها أساساً الغض من شأن الأديان والقيم الأساسية . والمعروف أن العقائد الموروثة صنفان : أصيل وزائف . وحي وميت . وهي في إطلاقها دون تحديد نوعها . إنما تريد بالتمويه أن تخدع الناس عن غايتها . أما في الفكر الإسلامي . فالعقائد الموروثة أصيلة لأنها مستمدة من القرآن ، ولا سبيل إلى التخلص منها . أما العقائد الزائفة . فتلك هي التي حاربها الإسلام نفسه كالوثنية والأساطير ، وعبادة الفرد ، وعبادة البطولة ، وإنكار ترابط الدنيا والآخرة ، أو إنكار البعث والجزاء .

(سادساً) والقيم ثابتة ومتغيرة ، وليست هناك قيم تخضع للتطور الدائم المطلق ، والقيم الأخلاقية ثابتة ثبوت الإنسان نفسه ، في تركيبه وخلقه ، وهي لا تتغير بتغير المجتمعات أو الأزمان .

وإنما تتغير القيم الصغرى المتصلة بالتقاليد والعادات وغيرها .

(سابعاً) هناك تفرقة واضحة في مفاهيم الفكر الإسلامي بين مقاييس العلوم ، ومقاييس الإنسانيات والنفوس . مقاييس العلوم : مقاييس مادية ، وهي مستمدة من التجربة والاختبار الدائم المتماثل الذي لا يتغير . وهذه المقاييس لا تستطيع أن تخضع الإنسان ولا المجتمع ولا النفوس والأخلاق إلى نتائجها .

ومن الحق أن يقال : إن للعلوم المادية مقاييس ، وإن للإنسانيات مقاييس أخرى . فإذا حاولنا تطبيق مقاييس العلوم في مجال النفوس أخطأت وأفسدت ولم تصل إلى غاية علمية أو حقيقة.

وبعد فنحن في ضوء الإسلام ، وفي ضوء مقاييس الإسلام ، نستطيع أن نواجه هذه المجموعة من مشاكل الفكر على النحو الذي واجهنا به قضايا العصر .
والله المستعان .

(١) قضيــة القيــم

ما هي القيم : هل هي ثابتة أم متغيرة .

إن القيم تتشابه في مختلف الثقافات إسما ، ولكنها تختلف مضمونـا . لكل قيمة مفهومها ، المختلف بين أمة وأمة وبين فكر وفكر . فما هو مفهوم الإسلام في قضية الفكر . وما هو مفهومها المختلف عن الفكر الغربي ؟ .

وقد إنتقل مصطلح القيمة من مجال الاقتصاد الى مجال الاجتماع ، وارتبط منذ اليوم الأول باسم الخير ، والخير الأسمى ، واعتبـر الفلاسفـة القيم في صميمهـا انســانية . ومندمجـة في السلوك الانساني نفسه ، فهي ليست مجردة مستقلة في ذاتها ، ولا منفصلة عن الانسان نفسه ، بحيث يتخذ من سلوك الفرد دليلا على القيمة التي يؤ من بها . وقالوا : إن الإنسان حامل القيم، وهي بخلاف الموجودات، فإنها كونية مستقلة عن الإنسان بعيدة عنه .

والقيم روحية ، ومـادية ، ونفسية ، واجتماعية ، وذاتية ، وموضـوعية . وتتمثل مفاهيم القيم في مجموعتين : قيم ثابتة ، وقيم متغيرة . والقيم الثابتـة لا تخضع للأزمان ، ولا للبيئات ، ولا تتغير بتغير الأماكن ، ولا العصور ، فهي قيم مرتبطة بالإنسان من حيث هو إنسان مشكل من روح ومادة . ومن جسم ونفس . وهذه هي القيم الكبرى المرتبطة بالمعتقدات والأديان والأخلاق ، والتي تقوم على أساس إنساني خالص ، قوامه الحب والإخـاء . والرحمـة . أمـا القيم الأخـرى المتغيرة ، فإنها تختلف باختلاف الزمـان والمكان ، وتخضـع لاختـلاف الظـروف الاجتماعية والبيئية .

وهذا المفهوم العلمي للقيم هو مفهوم الإسلام . وقد أقر الإسلام القيم النفسية والاجتماعية والمادية جميعا ، في تكامل يستهدف تغطية حاجات الإنسان ، ويرتفع به عن المطامع والأهواء . وكان الإسلام واضح التركيز على القيم البشرية انطلاقا منه بالإنسان من أصدق منطلقاته ، وهي الفطرة . فقد دعا الإسلام الى الزواج والشراب والزينة والطعام والعمران ، وركز حول ذلك الجانب الاجتماعي قيما ثابتة ، وجعل لها ضوابط . أهمها التوسط ، وعدم الإسراف . وأقر الإسلام كل مطالب النفس والجسم في مختلف مجالات الحس والغرائز ، ولم يحرمها . وإنما اختط لها الطريق المشروع بالزواج ، وإباحتها في حدود الاعتدال (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا[1]) . (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق[2]) . (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة[3]) .

وإنما حرم الإسلام الزنا ، والربا ، والخمر ، والميسر ، والميتة ، ولحم الخنزير . وحرم القتل ، وانتهاك الأعراض ، وذلك تكريما للنفس البشرية ، وارتفاعا بها عن الحيوانية ، وحماية لها من المهلكات ، وحياطة لهذا الكيان الإنساني (نفسا ، وجسما ، وروحا) من أن يدمره الإسراف في الملذات . أو الخروج عن الاعتدال .

***

وبذلك وضع الإسلام نظاما للقيم يختلف في كثير من عناصره ومواده عن الأنظمة التي عرفتها حضارات الرومان والفرس ، والأديان السالفة . وبذلك نحى النفس الإنسانية ، وحماها عن أخطار كثيرة .

(أولا) حماها من أخطار الزهادة ، واحتقار المادة ، وقتل النفس وحرمانها من الملذات التي أباحها الله لها .

---

(١) من آية ٣١ ـ سورة الأعراف .

(٢) من آية ٣٢ ـ سورة الأعراف .

(٣) من آية ٢١ ـ سورة الروم .

(ثانيا) حماها من إسراف اللذات والشهوات ، وتدمير الأجساد والمجتمعات نتيجة لضعف قدرة قادتها على حمايتها والدفاع عنها .

(ثالثا) رفع النفس الإنسانية عن العبودية لغير الله ، ونحاها عن أن تستعبدها الشهوات واللذات ، أو يستعبدها الحكام ، وأصحاب الرئاسات على النحو الذي عرفته المجتمعات ، اليونانية والرومانية . والفارسية القديمة التي كانت ترى كل ما سوى الأمراء عبيدا وخدماً . وإقطاعا وملكا خاضعا للقتل والإذلال دونما رحمة ولا كرامة .

***

لقد جعل الإسلام أساس القيم : التوحيد والتقوى والعدل والكرامة الإنسانية . والإيمان بالله . ونادى بالحرية والعلم والعمل . ودعا إلى السلام والإخاء ، وجمع بين عمل الدنيا وعمل الآخرة (وواءم) بين القوى المادية والروحية ، وأقام منطقة وسطى بين الإفراط والتفريط . بعيدا عن الشهوات المدمرة ، والزهادة المدمرة ، بين الترف المفسد ، وبين الحرمان القاتل . وازن الإسلام بين مطالب الروح ومطالب الجسم ، ودعا إلى التوسط والاعتدال . ومعنى هذا أن الإسلام لم يعتبر القيم المادية قيما مبغوضة أو محتقرة أو مرفوضة ، ولكنه جعلها على قدم المساواة مع القيم النفسية والروحية ، وجعل كمال الإنسان في تكامل قيمة من حيث هو نفس وروح وجسد .

ولم يمنع الإسلام من تطوير القيم الصغرى المرتبطة بالبيئات والأزمنة دون المساس بالقيم العليا الثابتة فقبل أن يكون للبادية قيم تختلف عن قيم المدينة ، وقبل أن يكون لمصر من الأمصار قيم تختلف عن قطر آخر ، هذا التفاوت والاختلاف في القيم الصغرى جائز ، بل هو ضروري في تقدير الشريعة الإسلامية . والفقه الإسلامي بشرط عدم الخروج عن القيم الكبرى التي أقرها الإسلام ، وتحركا في دائرة التوحيد والتقوى والعدل والإيمان بالله .

***

ومن هنا اختلف الفكر الإسلامي مع الفكر الغربي فيما أطلق عليه نظرية (سلم القيم) أو ترتيب القيم ، ومن شأن فكر كل أمة من الأمم أن يختار الأسلوب الذي يراه في النظر إلى القيم . وإذا كان الفكر الغربي يرى أن للقيم قائمة ، وأن ترتيب هذه القيم صعودا ونزولا تختلف باختلاف العصور والجماعات . فإن الفكر الإسلامي لا يعترف بغير مفهومه في تقسيم القيم إلى : ثابتة ومتغيرة .

أما القيم الثابتة فهي ثابتة أبدا . لأنها تتصل بالاسلام وليس الإسلام دينا وضعيا يتطور مع الزمن كما تتطور الأديان الوضعية والفلسفات . وإنما هو دين سماوي يدعو الناس إلى أن يتطوروا هم ليتلاءموا معه . وليلقوا به، ولما كان الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان . فإن هذه القيم الثابتة متصلة بهذا الكيان ، مستجيبة لحاجاته وحامية له .

ولا شك أن الدعوة إلى تغيير قائمة القيم ، أو ما يسمى (سلم القيم) هي واحدة من الدعوات التي حملت لواءها الفلسفة المادية . ومن ورائها دعاة تدمير القيم الإنسانية ، وإحلال مفهوم التطور المطلق والحرية غير المحدودة من أجل تدمير القوى البشرية التي تستطيع أن تصمد في وجه محاولة السيطرة على العالم ، ومهما قال دعاة هذه النظرية من أن ظروف العيش ، أو تطور المجتمعات ، أو تغير الأسباب الاجتماعية أو الاقتصادية ، أو تحول الأمم من الزراعة إلى الصناعة . ومن شأنها أن تقيم أخلاقا جديدة . فإن ذلك كله لا يستطيع أن ينفي أن الإنسان نفسه في كل هذه المراحل المختلفة . هو الإنسان بطبيعته وتكوينه وتركيبه النفسي والعقلي خاضع لقيم عليا ثابتة . أما تطور المجتمعات والأمم والاقتصاد والاجتماع . فإنه لا شك يحدث تغييرا مقررا ومعترفا به . وهو ما يتصل بالقيم الصغرى أو القيم غير الثابتة . تلك التي تتغير بالانتقال من المجتمعات الزراعية الى المجتمعات الصناعية .

وليس من شأن هذا التغير أن يحطم قيمة من القيم العليا . كأن يسمح بإلغاء الزواج مثلا ، أو تحليل الربا ، أو إطلاق العلاقات الجنسية ، أوالتململ من العبادات أو الخروج في دائرة المعاملات عن الأصول الثابتة في الاقتصاد أو التربية أو الشريعة أو النظم الاجتماعية .

إن الإسلام يفسح صدره للتغيير والتطور الذي يحدث باختلاف الأزمنة والبيئات ، وأن القيم التي قررها هي قيم مرنة متقبلة لكل تغير في التفصيلات والفروع . أما أن تكون الدعوة إلى تغيير سلم القيم مدعاة الى تحطيم القيم الثابتة الأساسية . فهذا ما لا يقره الإسلام . ذلك أن الأمر ليس هو متابعة القيم للحضارة في كل تطوراتها . بل هو حماية الأنسان من أن تدمره الحضارة .

***

وأبرز ما يرتفع في سلم القيم الثابتة في الإسلام :

التوحيد ـ والأخلاق ـ والعدل ـ والتقوى ـ والإيمان بالله .

فلا يقر الإسلام دعوة ما تحاول أن تصدع هذه القيم ، وإذا قيل إن للمجتمعات الصناعية أخلاقا غير المجتمعات الزراعية . فإن ذلك لا يعنى بأي حال تقبل التحلل الأخلاقي ، أو إلغاء أنظمة المجتمع أو التربية ، أو إباحة الربا أو غيره ، وإنما يعنى أن تختلف أساليب العيش في السكن ، وصناعة الطعام والمواصلات والري . وإقامة الأفراح ، وتبادل المصالح ، ولكنها لا تقضي بحال على القيمة الأساسية المتصلة بالعبادات أو الأخلاق ، أو أنظمة المعاملات ، وقوانين الشريعة الإسلامية .

إن النظام الاجتماعي القائم على الأسرة هو نظام فطري أساسي لا تستطيع نظرية (سلم القيم) أن تهدمه أو تحطمه ، مهما تحدث دعاة التغريب في سخرية أو تشكيك عن عفة المرأة . ذلك أن نظرية دور كاريم القائمة على القول بأن الفطرة ليست في الزواج ، هي نظرية زائفة ، ولا يقرها منصف واحد من علماء الاجتماع في الشرق أو الغرب . وإنما يعرف الناس أن دور كايم هو أداة من أدوات الصهيونية العالمية التي حملت لواء الدعوة الى تدمير النفس الإنسانية أخلاقيا ، وإلى تزييف التفسير الإنساني للتاريخ ، والى مهاجمة الأنظمة الاجتماعية الثابتة كنظام الأسرة والدين . ولقد أكد التاريخ البشري في مساره الطويل سلامة هذه القيم في حياة الإنسان .

***

أما الذين يرون أن ما أصاب العرب والمسلمين من شأنه أن يدعو إلى إعادة النظر في كثير من القيم ، فنحن معهم في هذا . ولكن بمفهوم آخر . ذلك هو أن المسلمين والعرب كانوا قد تخلوا عن القيم التي وسدها لهم الإسلام . وأن هذا هو مصدر هزيمتهم ونكستهم ، وأنهم لو عادوا الى سلم القيم الإسلامي ، وأقاموا صرح القيمة الثابتة على النحو الذي ارتضاه لهم الإسلام ، لكان ذلك مصدرا هاما في القدرة على مواجهة خصومهم ، والانتصار عليهم .

إن أزمة القيم في عالم المسلمين والعرب تدعونا إلى التماس مفهومنا الأصيل ، والتخلي عن المفاهيم الزائفة الوافدة التي حاولت أن تكتسح مفهومنا . وتسيطر على مجتمعاتنا وكياننا . ويمكن القول على الإجمال بأن اتجاه الفكر الغربي إلى تدمير القيم . إنما جاء نتيجة للآثار التي أحدثها مفهوم القيم الروحية المسرفة في الزهادة والرهبنة والدعوة الى تحريم اللذات الحسية ، وقمع الغرائز والإشادة بالعزلة عن الحياة ، وتعذيب الأجساد ، فكان ما نرى من فلسفة تحتقر كل القيم الأخلاقية والدينية إنما هو : رد فعل للإسراف الذي فرضته القيم التي عرفها المجتمع الغربي، ولم تكن في الحقيقة مستمدة من الرسالات السماوية ، أو الكتب المنزلة .

ومن هنا كانت الحملة على هذه القيم وتحطيمها والانفتاح على الحرية المطلقة ، وتغليب اللذات والشهوات . ولكن الإسلام اعترف بالنوازع البشرية في مختلف جوانب مطالب الجسد المادية . وأباح للغرائز المختلفة حرية العمل في حدود الضوابط التي أقامها . والنظم التي وضعها حفاظا لها . فإنه غير مطالب باجترار مثل هذه المفاهيم أو الدعوات .

(٢) قضيّة التطوّر

ما أظن أن كلمة من الكلمات في الفكر الحديث شغلت الأذهان ، مثلما شغلته كلمة « التطور » . إن التطور ظاهرة طبيعية . ولكن هل هو مطلق أم مقيد ، وهل يرى الفكر الإسلامي أن التطور قانون مستقل . أم أنه مرتبط بقانون آخر هو الثبات .

وقد نشأت فكرة التطور في مجال الفكر والثقافة نتيجة للخطوات التي اتخذها خلفاء (دارون) الذين نقلوا فكرة التطور من مجال الدراسات البيولوجية إلى مجال الدراسات الاجتماعية . وقد جاءت قوى ذات أهداف معينة ، فركزت على فكرة التطور ، وأعلنها إعلاناً خطيرا دفعها إلى مجال العقائد الثابتة مع إفرادها بالسلطان على كل القيم والمقدرات الأخلاقية والاجتماعية . وكان ذلك جريا مع الاتجاه المادي الخالص الذي يحاول أن يتنكر لكل ما سوى الحس والمادة من قيم .

ومن الحق أن فكرة التطور ـ المادي والمعنوي ـ لا يمكن أن تسير في غير نطاق واضح ، أو إطار محدود ، أو فلك معلوم .

وأن هناك استحالة علمية في أن تجري حركة التطور عشوائيا في غير نظام أو قانون يحكمها . ومن هنا يبدو الفرق بين رأي العلم وبين آراء الفلاسفة ، ويتكشف الفارق بين الاتجاه العلمي ، وبين أهواء القوى التي تتخذ من النظريات العلمية والفلسفية أسلحة لتحقيق أغراض بعيدة المدى . والمفهوم العلمي الصحيح هو : أن هناك عناصر ثابتة ، وعناصر يجري عليها قانون التطور . وأن تناسقا يجري بين عناصر الثبات وعناصر التطور .

وهذا المفهوم العلمي نفسه يطابق مفهوم الإسلام في نظرية التطور والثبات . فالفكر الإسلامي يؤمن بثبات الأصول العامة ، والقواعد العليا مع تطور الجزئيات والتفاصيل والفروع .

***

ويستمد الفكر الإسلامي مفهومه للتطور والثبات من قانون التوازن الذي يحكم الموجودات جميعا . وعنده أن هناك عنصرين . أحدهما يمثل الثبات والاستقرار ، والآخر يمثل التحول والانتقال ، وأنه لا سبيل إلى إلغاء أحدهما ، ولا سبيل إلى القول بالتطور المطلق ، وإنكار عنصر الثبات . ولا بد من الارتباط بين العنصرين ، وإقامة التوازن بينهما . وأنه من المستحيل عقلا ومن المناقضة لقوانين الوجود والحياة أن يتوقف أحدهما ، أو أن ينفصل . ولا أن يستعلي أحدهما ، ويسيطر . فالثبات والاستقرار هو الجمود ، والتطور المستمر هو الفناء . وهناك ترابط واضح بين الجمود والحركة ، وبين القديم والجديد ، وبين الميت والحي .

فالحياة ناجمة من موت ، والجديد منبثق من قديم . والفكر بعامة يتطور . ولكنه يظل ثابت الأصول والمقومات . والفكر الإسلامي ثابت الجوهر . متغير الصورة . وفي الفقه يجري التطور بالنسبة للأحكام الفرعية دون الأصول . وفي الشريعة أصول ثابتة لا تخضع لقوانين التطور ـ كالربا ، والزنا ، والقتل ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ـ فهذه من القوى الثابتة التي لا تتأثر بالتطور ، ولا يستطيع التطور مهما بلغ من قوة الحركة أن يقضي عليها أو يختصرها ، أو يحولها عن وجهها الصحيح . وكذلك في نظام الكون نجد القوى الثابتة ، ونجد القوى التي تتحول وتتحرك . والأصول الثابتة ليست خاضعة للتطور . هذا هو مفهوم الإسلام وهو مطابق للمفهوم العلمي تماما ، ولكل مفاهيم العقل والمنطق . أما المفهوم المطروح في أسواق الفكر الغربي ، والذي وصل صداه الى الفكر العربي الإسلامي ، فهو مفهوم فلسفي خطير لم يقم على أساس علمي ، وإن أخذ منطلقه من نظرية « دارون » في التطور البيولوجي ، وعمد إلى نقله إلى ميدان الاجتماع والفكر .

ولا شك أنه بهذه النقلة إنما يستهدف غاية خطيرة ، هي واحدة من أهداف الفلسفة المادية الوثنية التي تحاول أن تسيطر بقوة على الفكر البشري كله ، وتفرعه من مفاهيم الإيمان والأديان والرسالات السماوية ، وتدفع به بعيدا إلى نهاية خطيرة يجدها واضحة وضوحا لا مرية فيه . لكل من راجع بروتوكولات صهيون أو نصوص التلمود ، او اتصل بالمحاولات التي جرت منذ عصر التنوير في سبيل إخراج الفكر الغربي المسيحي الأصل من كل القيم ، ودفعه إلى مجال المادية المغرقة . وتشكل هذه المحاولة : فلسفة واضحة متكاملة تهدف إلى تدمير قوى الأديان والتوحيد والأخلاق والإيمان بالله ، ودفع الإنسانية كلها إلى الدمار بتحطيم قيمها ومعنوياتها وتفريغها من كل القوى التي تحملها على التماسك في وجه الغاية الصهيونية البعيدة المدى ، وهي السيطرة على العالم . ولقد كانت نظرية التطور هي المنطلق الخطير للقول بأن كل شيء يتحول ويتغير ، ولا يبقى على حاله ، وأنه يبدأ في أول الأمر ضعيفا ، ثم ينمو . ثم جرت محاولة تطبيق ذلك على الأديان والأخلاق . ومنها انطلقت النظرية التي تقول : بأن الأخلاق تتطور مع العصور . وأن الأديان تتطور مع البيئات . والقول بهذا مخالف كل المخالفة للحقائق العلمية الصحيحة ، ومعارض لنواميس الكون والحياة .

لقد كان الترويج لمذهب التطور على هذا النحو ، خروجا به من المجال العلمي الصارم الى المجال الفلسفي الذي لا يخضع لأي سند علمي أو عقلي . ومن مذهب التطور انطلقت كل المذاهب والدعوات والفلسفات المادية ، فقد اعتبره المتشبثون به قاعدة لعلوم جديدة هي : مقارنة الأديان ، وتفسير الأخلاق والنفس والأخلاق والقوميات والاقتصاد والاجتماع .

ومن هذا أخذت هذه العلوم تخضع للمناهج التي تخضع لها العلوم المادية ، بينما يتناقض هذا مع أبسط قواعد المنطق والعقل .

ولقد كان القول بالتطور المطلق سبيلا الى نزع القداسة عن الأديان والقوانين والقيم والأخلاق والسخرية منها ، والدعوة الى التحلل والإباحية . وإنكار مقومات المجتمعات والعقائد على النحو الذي كشفت عنه نظريات « فرويد » و « دوركايم » وغيرها .

ولقد هوجمت نظرية التطور المطلق ، في المحيط الاجتماعي والفكري هجوما علميا ، ودحضت بمنطق عقلي واضح . ولكن أصوات دعاتها المسرفين في استغلالها . ظلت أعلى الأصوات ، لأنها لم تكن أصواتا طبيعية ، وإنما هي أصوات تدفعها قوى بالغة القدرة في مجال النشر والإعلان .

***

ومن أبرز من دحضوا أخطاء نظرية التطور المطلق : « الدكتور موريسون » الذي أجاب بعد بحث مستفيض على السؤال المطروح .

« إن حقائق الأشياء الثابتة لا تتغير . وإنما الذي يتغير هو الصورة فقط »

ومضى يضرب الأمثلة في المجالات المختلفة . إن نزعة الطعام لم تتطور ، وإنما الذي تغير هو صورة الطعام -

- إن نزعة اتخاذ المساكن لم تتطور ، وإنما الذي تغير هو صور البيوت .

- إن نزعة اللباس وستر العورة لم تتطور ، وإنما الذي تطور هو صورة اللباس .

- إن نزعة القتال والصراع فطرية بشرية لم تتغير ، وإنما الذي تغير هو صورة القتال .

وقال : إن التطور إنما هو في الصور والهيئات لا في الحقائق . لأن الحقائق ثابتة لا تتغير . وأن القول بأن « لا شيء ثابت على الإطلاق » نظرية زائفة ، كما هاجم الكثيرون تطبيق فكرة التطور على الإنسان والقيم . والمعروف أن الدعوة إلى التطور المطلق قد حمل الدعوة إليها رجال موصومون ، لهم صلة التبعية بالمحافل الماسونية . وبذلك فهي من نتاج فكرة السيطرة على العالم ، وتدميره التي كشفت عنها بروتوكولات حكماء صهيون .

وإذا راجعنا البروتوكولات الثانية فإنه يستطيع أن يلقي الضوء على هذه الاتجاهات : يقول : (لاحظوا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه . قد رتبناه من قبل وأن الأثر (غير الأخلاقي) لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحا لنا على التأكيد).

ولقد جرى كثير من الكتاب وراء بريق نظرية التطور ، وربما بحسن النية دون أن تتبين لهم أبعاد الخطر من القول بالتطور على إطلاقه ، بعيدا عن مفهوم الإسلام الجامع دائما بين التطور والثبات . وهو جمع يقوم على أساس علمي صحيح .

ذلك أنه من السذاجة النظر الى التطور بعيدا عن القيم الثابتة ، وبمعزل عن الأصول الأساسية لفكرنا ومقدراتنا . والدعوة المسمومة الى التطور ، إنما تحاول أن تقضي على التراث والقديم ، ومنها العقائد والأديان والأخلاق .

فالجديد لا يمكن أن يقوم إلا على القديم ، والحاضر ثمرة الماضي ، والحي يخرج من الميت .

وغاية ما ندعو إليه هو أن لا نقف عند الماضي أو القديم أو الميت وقفة الجمود .

وفي ضوء هذه النظرية لا يمكن القول بتطوير اللغة وتطوير الأذواق ، وهو يعني تطوير الوسائل والأساليب والأطر ، مع الاحتفاظ بجوهر القيم .

***

وقد فرق الباحثون المسلمون بين التطور والتطوير ، وعارضوا القول بأن التطور معناه تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له .

فالتطور يشمل أي تغيير يحدث في أوضاع الجماعة سواء في اتجاه تقدمي تصاعدي ، أو في اتجاه عكسي تنازلي . ثم هو فوق ذلك ينبني على أن دوافع هذا التغيير وعوامله ، إنما يكون منشؤها ذات الشيء ، ومردها إلى ما فيه من طاقات طبيعية .

أما التطوير فهو على عكس ؟ذلك ، يختص أولا بالتغيير التصاعدي الذي يهدف دائما الى طلب الكمال والحياة الأفضل ، ويتأثر بدوافع خارجية عن طبيعته ، والقوة الخارجية هي : القيادات الإصلاحية ، والدعوات التقدمية[1] .

---

(١) راجع بحث الدكتور محمد بيصار في كتابه : العقائد والأخلاق .

وهذا يعني المواءمة بين أصول الفكر الإسلامي بما يقوم عليه من تشريعات وقيم ، وبين ما يتجدد في المجتمع تحت إلحاح من عوامل التطوير الضروري في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ومن هنا أمكن القول بأن التطور لا يمكن أن يكون قانونا تقدميا . أي أن كل طور أفضل من الطور الذي سبقه .

***

ومن ناحية أخرى فقد واجه الفكر الإسلامي الأخطاء التي انطوت عليها نظرية التطور ، التي ارتبطت أساسا بالمفهوم المادي الذي استخلصه الفلاسفة من نظرية دارون ، والذي قام على أساس إنكار وجود الخالق ، والقول بنشأة الكائنات الحية نشأة طبيعية ، والفكر الإسلامي يثبت الخلق لله لا للطبيعة ، ويقرر وقوع البعث في الآخرة ، مع الإيمان الكامل بالغيب .

وقد واجهت النظرية من الباحثين المنصفين معارضة في أغلب جوانبها فقال (كرلس مورلسون) إن نظرية « أن الإنسان أصله قرد » قد كذبها العلم الحديث لما بين النوعين من بعد شاسع . ففي الإنسان خواص لا توجد في القرد منها قدرته على التفكير ، ووجود الوحدات الجماعية من القبيلة والأمة ، والحزب ، والدين . ومنها خواص بيولوجية .

وأنكر (الدكتور والاس) أن لا يكون الإنسان قد تم على طريقة التطور والارتقاء حيث قال: إن الارتقاء بالانتجاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان . ولا بد من القول بخلقه رأسا ، وقال: (فرجو) إنه قد تبين لنا من الوقائع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيدا . فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان من سلالة قرد أو غيره. وقال أجاسيز: إن النشوء لا يتم إلا وفقا لخطة إلهية حكيمة . وإن الاصطفاء الطبيعي إذا ما حل محل الخلق الإلهي ، فإن الإنسان يكون قد جرد من روحه، وغدا آلة صماء.

وإن التفسير الحرفي لنظرية دارون يفسح المجال لتأليه سوبرمان نيتشه ، وتمجيد القوى البدنية على أنها الأساس الوحيد للسلوك بين الناس .

« إن الفكرة التي يعتنقها الدارونيون عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضا اعتباطيا يتعارض مع الآراء الفسيولوجية الرصينة » وأكد الباحثون أن دارون لم يورد ضمن نظريته أن الإنسان يرجع في أصله إلى القرد . وأن الذين زعموا ذلك هم غلاة الماديين الذين ألصقوا هذا القول بمذهب دارون لشهرته العلمية ، ونفى هكسلي تلميذ دارون أن الإنسان قدانحدر من القرود. وأن الإجماع بين العلماء ـ لا الفلاسفة ـ على أن الحياة لم تحدث مصادفة . وأنها حدثت بقدره الله وإرادته . وهكذا ينكشف هدف تزييف النظرية وسوقها إلى الغاية التي يريدها الماديون ، وعلى رأسهم (لا مارك) وهيكل الذي دعا إلى تأليه الطبيعة . ومن ثم انتقلت إلى مجال الاجتماع ، والفكر على أيدي هربرت الذي حاول تطبيق نظرية التطور على العالم كله ، وتحويلها من النظرية الإحيائية إلى نظرية اجتماعية . ثم جاء الدكتور (شبلي شميل) في مصر ، فحمل لواء هذه الدعوة ، وترجم كتاب (بختر) الذي يعد من غلاة الماديين ، وحاول أن يطبق نظرية التطور في مجال الفكر والاجتماع . وقد عارضه علماء الدراسات الطبيعية أنفسهم من أمثال يعقوب صروف وغيره ولم يكن شبل شميل متخصصا أصلا في هذه الدراسات بل كان طبيبا .

وقد راجت هذه النظرية فترة وإن وجدت المعارضة والنبذ منذ اليوم الأول من العلماء المتخصصين أنفسهم ، ثم لم تلبث أن سقطت ورفضها الفكر الإسلامي ، وعجز دعاة المادية عن أن يجدوا لهم دليلا علميا يؤكدون به موقفهم .

***

ولقد أكد الفكر اسلامي أن التطور الذي التمسته المذاهب الفلسفية المادية بمعنى إطلاق الحريات الاجتماعية والفكرية على النحو الذي يصل الى الإلحاد والإباحية ، ليس من مفهوم الإسلام ، ولا هو متقبل من الفكر الإسلامي . وأن هذا النحو من الفهم ، إنما قام في الغرب سبنسر في ظروف محلية خاصة ، وليس له قيمة حقيقة في مجال القيم الإنسانية .

ولقد دارت مناقشات متعددة حول التطور والثبات بافتراض أن هناك

تناقضاً حتمياً، بينهما، والواقع أن الثبات يبدو نظريا نقيض التطور والحركة ، ولكننا إذا أنعمنا النظر من الناحية العقلية والعلمية . وجدنا أن للتطور والحركة ضوابط ، هذه الضوابط بطبيعتها ثابتة باعتبار المقومات والدوافع الأساسية للحركة والتطور . فالقطار والسيارة والطائرة والصاروخ كلها أجسام متحركة ، ولكنها في نفس الوقت محكمة الصنع بضوابط ثابتة تنظم حركتها وتيسر اندفاعها باستمرار ، ولولا هذه الضوابط الثابتة لكانت الحركة عشوائية أقرب إلى الفوضى ، ولما تولدت الحركة قط .

فالقطار يخرج عن مساره إذا أهملت صيانته ، واختلطت ضوابطه ، وفقد أحكام صنعه ، والصاروخ ينفجر في قاعدته إذا اختلت هذه الضوابط .

كذلك المجتمع الإنساني ، فهو مجتمع دائب الحركة والتطور . ولكن هناك ضوابط أساسية ثابتة تنظم حركته وتحكم اتجاهه .

ومن هنا يتقرر أن التطور ليس قانونا أخلاقيا ، وليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه . بل التطور قانون اجتماعي واقعي ، ولا يقتضي مطلقا تفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة . وأن الفكر الإسلامي ثابت الجوهر متطور الصور . وقد أعطى الإسلام مبادىء ثابتة ، وترك للناس القدرة على التحرك من خلال الفروع والتفاصيل ، وأقام قيما أساسية لا سبيل الى تطورها ، أو الخروج عنها ، وهي أشبه بالعمد في البناء .

(٣)

قضيــة الحريّــة

« الحرية » مصطلح حديث، ولكن هو من الكلمات التي يتشابه مفهومها وتفسيرها بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي. ما هو مفهوم الإسلام للحرية، وهل يقر الإسلام إطلاق الحرية، أم يضع لها الضوابط. وما هو مفهوم الحرية في بروتوكولات صهيون؟.

ومن المصطلحات التي استطارت في العصر الحديث كلمة « الحرية » وهي كلمة عذبة محببة إلى النفوس ترجع جذورها البعيدة إلى الأديان والرسالات السماوية في إطارها الصحيح القائم على الجمع بين الحرية والمسئولية، وقد أولى العرب والمسلمون هذه الكلمة في العصر الحديث اهتماماً كبيراً في مواجهة حركتهم نحو مقاومة الاستعمار والنفوذ الأجنبي، والاحتلال الذي كان يسيطر على أراضيهم ومقدراتهم. وأصبحت هذه الكلمة مرادفة للوطنية، وشعاراً للمقاومة، وسلاحاً في وجه الغاصب والظالم، وفي وجه الاحتلال والاستبداد، وفي وجه كل طغيان، وكانت الثورات المختلفة التي قامت تتخذ من «الحرية» علماً لها وشعاراً.

***

غير أن كلمة الحرية لم تلبث أن بدت على أقلام بعض الكتاب. ومن خلال بعض النظريات والفلسفات والدعوات الأجنبية، وهي تحمل صورة أخرى تختلف اختلافا واضحاً عن هذا المفهوم. بل وتتعارض معه أحياناً. وذلك حين ارتفعت

الأصوات بالدعوة إلى الحرية المطلقة في مجال الاجتماع والفكر والسلوك. وصاحبها القول برفع القيد على كل إنسان ليمارس ما يشاء من شئون، دون تقرير واضح للمسئولية أو التبعية، أو حدود ما يملك الآخرون، واتسع نطاق هذه الدعوة الضارة المستحدثة إلى القول بحرية التربية، وحرية العلاقات بين الجنسين، وحرية الفنان والكاتب، ودخل زيف كثير على هذه العبارة ذات التاريخ المجيد في مقاومة الظلم والاستعمار والاستبداد.

وجرى كثير من الكتاب والمثقفين وراء البريق، وخدعتهم الكلمات التي تهز الحس، وتحرك الغرائز، وتدعو إلى الانطلاق من كل قيد، دون أن يقدر هؤلاء جميعاً مدى الأخطار التي تتعرض لها الأمم والشعوب، ومدى الآثار والنتائج التي تترتب على الدعوة الضارة.

ولا شك أن من وراء هذا الانحراف في فهم الحرية. وهذه الدعوة إلى إطلاقها الاندفاع بها لتدمير قيم النفس والأخلاق، ولا شك أن من وراء ذلك خلفية خطيرة، وهدف مسبق، ومحاولة مسمومة، تستهدف تدمير قوى الأمم وشبابها ومقدراتها. وحين ترجع إلى بروتوكولات حكماء صهيون. تجد إشارة واضحة إلى سلاح «الحرية» «والتحررية» في تحقيق الغاية الخطيرة التي تستهدفها الصهيونية العالمية.

***

يقول البروتوكول الأول: (كنا نحن أول من نادى في جماهير الشعب بكلمات «الحرية، والعدالة، والمساواة» وهي كلمات لم تزل تردد إلى اليوم، ويرددها من هم بالببغاوات أشبه، ينقضون على طعم الشرك من كل جو وسماء، فأفسدوا على العالم رفاهيته كما أفسدوا على الفرد حريته الحقيقية، وكانت من قبل في حرز من عبث الدهماء). ويقول (وفي جميع جنبات الدنيا كان من شأن كلمات «حرية - عدالة - مساواة» أن اجتذبت إلى صفوفنا على يد دعاتنا وعملائنا المسخرين، من لا يحصيهم عد، من الذين رفعوا رايتنا بالهتاف. وكانت هذه الكلمات هي السوس الذي ينخر في رفاهيته الأميين (أي غير اليهود) ويقتلع الأمن والراحة من ربوعهم، ويذهب بالهدوء. ويسلبهم روح التضامن).

وقد أعطت النظريات الفلسفية التي صاغها الدائرون في تلك الصهيونية للتحرية معنى يتسق مع الدعوات التي حمل لواءها فرويد، وسارتر وغيره. وهي (انسلاخ الفرد من كل ما تواضع عليه المجتمع من آداب وقوانين في رغباته وشهواته[1]).

ويمكن رد كلمة « الحرية » في تطورها الفلسفي الغربي إلى الثورة الفرنسية ، التي قادها رجال المحافل الماسونية . من أجل تحطيم القيود التي كانت تفرضها المجتمعات الأوربية على اليهود من حيث التعامل والإقامة والعبادات وغيرها.

***

ثم كانت هذه الكلمة من بعد ذلك منطلقاً لمذهب سياسي واقتصادي اتسمت به الرأسمالية الغربية. هي مذهب الليبرالية، أو الحريين. كما كان يطلق عليهم ناقلوا هذا المذهب إلى الفكر الإسلامي العربي ، ويقوم هذا المذهب على ما تقوم عليه الأنظمة الديمقراطية الغربية : ويؤ من الليبراليون بالفردية . فالفرد هو العنصر الأساس في الاقتصاد، ويدعون إلى توافر أقصى حد للحرية الفردية . وقد جاءت دعوة ماركس ونظريات الاجماعيين من بعد كرد فعل للنظرية الفردية، فأعلوا من شأن الجماعة والمجتمع ، وقد حاول الاحتلال أن ينقل إلى العالم الإسلامي هذه الأنظمة الليبرالية الغربية، فأخفقت كثيرا في معظم البلاد التي طبقت فيها، وظهر الخلاف الواضح بين مفاهيم الإسلام السياسية، وبين مفاهيم الليبرالية الغربية التي فرضها النفوذ الأجنبي باسم الاحتلال. وكان من الطبيعي أن تفشل هذه الأنظمة، لأنها لا تمثل المزاج النفسي والاجتماعي للمسلمين والعرب، ولا تنبع من قيمهم وعقائدهم وذاتيتهم.

وكذلك جرت الدعوة إلى الحرية في الفن والأدب، وارتفعت أصوات بالدعوة إلى حرية الفكر، وصدرت في الثلاثينات مجلة تحت اسم العصور كانت تكتب على غلافها هذه العبارة:

---

(١) راجع محمد خليفة التونسي.

(٢) بروتوكولات حكماء صهيون.

(حرر فكرك من كل التقاليد والأساطير الموروثة حتى لا تجد صعوبة ما في رفض أي رأي من الآراء، أو مذهب من المذاهب، اطمأنت إليه نفسك، وسكن إليه عقلك ، إذا انكشف لك من الحقائق ما يناقضه) . وكانت هذه دعوة إلى دحض الأديان والعقائد والقيم، وهي تبدو في موعدها وأهدافها وأسلوبها جارية مع النصوص التي نقلناها من بروتوكولات صهيون. فقد اتخذت الصهيونية الدعوة إلى الحرية سلاحاً لها لتدمير كل العقائد والقيم التي جاءت بها الأديان السماوية، وتحت اسم (التقاليد والأساطير الموروثة)

وما تزال هذه العبارات تجري إلى اليوم على أقلام دعاة التغريب. منذ أن رددها داعية المادية والإلحاد : الدكتور شبلى شميل قبل أكثر من تسعين عاماً، وحمل لواءها الكثيرون تحت أسماء مختلفة منها: الدعوة إلى التسامح، والدعوة إلى حرية الفكر، والدعوة إلى التقدم. وكانت كل العبارات المسوقة من (رجعية وتأخر وجمود وتعصيب) . إنما تعنى كلمة (الدين) دون أن تستطيع التصريح بها.

***

وكان الهدف الأساس هو خلق « ثقافة عربية » تقوم على أساس الفكر الغربي منعزلة عن الفكر الإسلامي، وقيم القرآن، والإسلام ، والشريعة الإسلامية . وذلك كمقدمة للانصهار في الفكر الغربي ، وفقدان الذاتية والشخصية الإسلامية العربية.

ونحن حين نرجع إلى مفهوم «الحرية» في الإسلام نجد وضوحاً وتكاملاً وسماحة لا تصل إليها مفاهيم الفلسفات التي تصدت للحرية منذ جون ستوارت ميل . إلى سارتر. فالحرية في الإسلام هي: التحرر من قيود الوثنية، واستعباد الإنسان، للإنسان، وهي ضد عبودية (الأوثان ، وضد الرق ، وضد العبودية لأي كائن كان وهي حرية الفرد وحرية الجماعة.

وهي حرية الكلمة ، وحرية الضمير تجمعها آية واحدة من القرآن : (لا إكراه في الدين[1]) فهي حرية الاعتقاد والقول والتفكير.

---

(١) اية ٢٥٦ ـ سورة البقرة.

وكما دعا الإسلام إلى (تحرير الفكر) دعا إلى تحرير الجسم . فالإسلام هو أول صيحة لمحاربة الرق، وحصره في أضيق نطاق كمقدمة لتصفيته، والحرية السياسية واحدة من حريات الإسلام، وتقوم على الشورى . غير أن الإسلام يعطى للحرية ضوابطها وتحفظاتها التي تضمن حرية الغير. فالإسلام حين يقرر إطلاق الحريات للأفراد، فإنه من ناحية أخرى يشترط ألا يكون في ذلك طغيان على حريات الآخرين، أو إضرار بمصالح الجماعة.

***

وحرية العقيدة حيث لا إكراه في الدين . إنما تعنى كفالة الإسلام لحرية عقائد أهل الكتاب . ويدعو الإسلام إلى الحرية من كل القيود، قيود العبودية الفكرية والجسدية ، كما يدعو إلى حرية الإنسان من قيد الجهل والخرافة، ويدعو إلى حرية المرأة في التعليم ومفهوم الإسلام هذا أوسع أفقاً، وأبعد مدى من مفاهيم الحرية لدى فلاسفة الاجتماعيين والليبراليين على السواء.

ويصل الإسلام إلى الغاية في تقرير الحرية حين لا يبقى الإنسان عبداً لشهواته وأهوائه ، أو عبداً لغير الله . فلا يخضع لسلطان غير سلطان الخالق، ويأنف أن يكون عبداً لإنسان مثله ، فلا يقبل الذي لمن هو مثله ، ويأنف من الإحساس بأن الرجل أقل من سواه . فلا فرق بين الكبير والصغير ، والغني والفقير، والأبيض والأسود . إلا بالتقوى والعمل.

وقد شهد المنصفون من كتاب الغرب بدور الإسلام في حرية الفكر، وكيف أطلق العقل الإنساني من قيوده، ودفعه إلى الخروج من آثار الوثنية:

يقول: « بارتلمي سانهلير»: إن الإسلام قد أحدث رقياً عظيماً جداً، فقد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد ، وبين أيدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة ، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، ثم إنه بتحريمه الصور في المساجد ، وكل ما يمثل الله قد خلص الفكر الإنساني من وثنية القرون الأولى ، واضطر العالم، لأن يرجع إلى نفسه ، وأن يبحث عن الله خالقه في صميم روحه».

وأشار جوستاف لوبون في مقارنة بين الإسلام وبين غيره فقال: (إن الإسلام هو الذي علم الإنسانية كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين «وقد كان يظن أنهما لا يجتمعا).

بل لقد كانت حرية الفكر في الإسلام واضحة وضوحا لا حد له في كل الأعمال التي تتناول الأديان الأخرى ، وكان مبدأ «الإنصاف» واضحاً في هذا المجال.

وقد أشار (هاملتون) إلى ذلك عند تعرضه لدراسات مقارنات الأديان فقال: العرب هم أول من ألفوا في الملل والنحل، لأنهم كانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى . وحاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالبرهان والحجة، ثم إنهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام عن ديانات توحيدية، ويحظى ابن حزم بالنصيب الأووفر.

وقد كتب أبو الريحان البيروني في أديان الهند في القرن الخامس من الهجرة ، فلم يمس عاطفة أحد من أهلها ، وكان إذا كتب عن نحلة يوهمك أنه هو أحد أبناء تلك النحلة، لتلطفه في وصف شعائرها.

وكان كتاب العرب يذكرون جميع المحالفين بكل حرمة، وفي كتاب طبقات الأطباء لأبن أبي أصيبعة، وطبقات الحكماء لابن القفطي، وطبقات الأدباء لياقوت، والوافي بالوفيات للصفدي، وفي تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي أمثلة لهذا التسامح. فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامريين والمجوس كأنهم أبناء ملة واحدة.

ننقل هذا عن مستشرق لنقارن به ما يقوله عالم غربي آخر يصف موقف قومه من الأمم الأخرى. ذلك هو جوستاف لوبون الذي يقول: «إن حرية الفكر في الغرب تختفي لدى الأوربي عندما يمتد فكره إلى بحث فكر العالم الإسلامي. فالمفهوم الصليبي العميق الأثر في النفس الأوربية يحول دون حرية الرأي إذا كان موضوع البحث هو الإسلام».

***

وقد تأكدت هذه النزعة على أسنة أقلام كثير من الباحثين الذين ردوها إلى طابع الاستعلاء الغربي الذي لا يعترف بالإنصاف أو الفضل لغير ذوي الأجناس البيضاء، وهي نزعة قديمة عرفتها روما حين قال حكيمها: (روما سادة وما حولها عبيد).

ولقد أفسح الإسـلام في تاريخه الطـويل للملل والنحـل. باب السجـال والجدل والمناقشة، وسمح بعض الخلفاء بذلك في مجالسهم، ولم تكن دعوتهم إلى حقهم إلا عن طريق البرهان والإقناع، مع السماحة للمخالف، بينما لم تحتمـل أوربا مثل هذا السجال، فكانت من آثاره معارك عنيفة مثل معركة سانت بارتلمي وغيرها. وقد كان مفهـوم حرية الفـكر في الإسـلام واضحـاً صريحـاً: لم يقبـل الإسلام محاولة الإغراء بحرية الفكر على أساس التحرر من الأخلاق، أو التحرر من القيم، أو اتهام الموروثات بالزيف. ولكن دعا إلى البرهان والعقل، فحرر الإنسان أولا من رق التقليد الأعمى، ورباه على حرية الفكر، واستقلال الإرادة، ودعاه إلى التخلص من عبادة الأهواء وطالبه بالدليل، ونعى عليه الجهل والظلم والمتابعة بغير إقناع، فهي حرية فكرية تتقيد بالحق والدليل، وتقوم على قواعـد النظر والاستدلال بعيدا عن الأهواء والأوهام.

وهي تختلف اختلافاً واضحاً عما دعا إليه الماديون والغربيون الذين يدعون الناس اليوم إلى التحرر من الأساطير الموروثة، وهم يعنون بها الإسلام، وإلا فأين هذه الأساطير الموروثة اليوم؟. وقد فصل الإسلام بينها وبيننا بأربعة عشر قرنا حين جاء القرآن الكريم بالحجة الواضحة، وزيف كل دعوى الوثنية والمادية والإباحية مما كان قبله.

***

وفي هذا المجال نذكر تلك الشبهات المسمومة التي حاول خصوم الإسلام طرحها حين قالوا بأن دماء سفكت واضطهاداً وقع لبعض أعلام الفكر في الإسلام من أجل فكرهم. والحـق أن الإسـلام لم يضطهـد مفـكراً لفـكره. وإنما جاء القصاص حين وصل الأمر إلى حدود التآمر والاتصال بخصوم الدولة الإسلامية.

وإن كثيرا ممن وصفوا بأنهم قتلوا ، عاشوا أحراراً لم تمسهم يد، على الرغم مما كانوا يصدرون عنه من هرطقة وضلال ، حتى ثبت عليهم بالدليل مراسلتهم لدولة أجنبية، واتصالهم بالقرامطة والحشاشين أو غيرهم .

ولقد قال أبو العلاء المعري، وابن الراوندي، وأبو بكر الرازي وغيرهم ما لم يقل مثله: فولتير ، وروسو . دون أن يصيبهم أذى ، ولم يرد في التاريخ الإسلامي من علماء حرفوا من أجل معتقداتهم ، كما فعلت أوربا في ديوان التفتيش.

(٤) قضيّة العقل

لا مشاحة أن « العقل » مصطلح معترف به في كل فكر ، وفلسفة . ولكن هناك فوارق عميقة بين مفهومه في الفكر الإسلامي، وبين مفهومه في كل فكر وفلسفة . ما هو مفهوم نظرية المعرفة الإسلامية ذات الجناحين : القائمة على العقل والوجدان ، وما وجه الخلاف بينهما . وبين نظرية الشرق القائمة على الإشراق والحدس ، ونظرية الغرب القائمة على المادية والمحسوس وحده! .

من أهم القضايا التي تثار في مجال الفكر الحديث (قضية العقل). ولقد كانت الدعوة إلى تحكيم العقل ، وإعلاء العقل من الدعوات التي غذاها الفكر الغربي الحديث ، وهو اتجاه علمي صحيح ، إذ اجرى وفق منهج المعرفة الإنسانية الجامع بين العقل والقلب.

ولقد قدم الاسلام للإنسانية هذا المنهج الجامع الشامل، ليحقق به أصول المعرفة الحقة، بعيدة عن قصور المناهج العقلية الخالصة، أو المناهج التي تعتمد على الوجدان والقلب.

فقد تنازعت الفكر البشري دعواته: احداهما تقول بالعقل وحده، والأخرى تقول بالوجدان، ثم جاء الإسلام ليقرر بأن منهج الفكر والمعرفة الصحيح الكامل هو المنهج الجامع للعقل والقلب معاً.

وقد اعتمد منهج العقل على العلم، وعلى المحسوس وعلى الماديات، وعلى كل ما يدخل في بوتقة المعامل، وأغضى إغضاء تامًّا عن عالم الغيب (الميتافيزيقيا)

اغضاءاً تاما، وأنكره إنكاراً كاملاً . وبذلك تجاهل في الحقيقة جانباً كبيراً من المعرفة لا سبيل إلى فهم الحياة فهما صحيحا دون الاعتراف به.

وجاء الوجدانيون بعض دعاة الصوفية، والإلهام والاستشراق وغيرهم ، فقرروا أنه لا سبيل إلى فهم الحياة والوجود إلا عن طريق القلب وحده، وأنكروا مكانة العقل.

وظهرت مذاهب فلسفية تؤ يد هذا الاتجاه ، ومذاهب أخرى تؤ يد ذلك الاتجاه . وعند النظرة الصحيحة نجد أن كلا من النظريتين عاجزة عن بلوغ أصول المعرفة الحقة.

***

ولقد جرى الفكر الإسلامي طورا مع هذا الاتجاه ، ومرة مع الاتجاه الآخر ، وفي كلا الأمرين كان مجانبا لمنهجه الأصيل، ومفهومه الكامل، ذلك أن أبرز ما يتمثل به الفكر الإسلامي هو كمال النظرة وشمولها وجماعها . والعقل أداة من أدوات المعرفة لها مجالها وميدانها وطريقها الذي استطاعت أن تنطلق فيه، وفي حدود هذه المقدرة استطاع أن يقدم الكثير، غير أن هناك ميادين عجز عن اقتحامها، ومناطق لا تؤ هله قدراته على اختراقها، وقضايا لا يستطيع الحكم فيها.

هذا الجانب هو عالم الغيب الذي صوره الحق تبارك وتعالى في القرآن الكريم، وأمدنا بحقيقته عن طريق الوحي، وأمرنا أن نؤ من به، فالعقل يقبله ، ولكنه لا يستطيع وحده أن يصل إلى الحكم فيه ، لأن أدانه ليست مؤ هلة لهذا الغرض ، فالعقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفا للغطاء في جميع المعضلات .

والعقل في حقيقته نور في القلب، ومهمته أن يعرف الحق من الباطل، والخير من الشر، والحسن من القبيح، في ضوء الوحي، وليس خارجه.

ومن هنا كان خطر الدعوة المثارة إلى تمجيد العقل، وتأليه العقل ، وإعلاء العقل، واعتباره سبيلا وحيداً في البحث أو الحكم على الأشياء، وهو من الدعاوي

التي يحمل لواءها دعاة المادية ، ويهدفون بها إلى هدم عالم كامل هو عالم الميتافيزيقا . أما في الإسلام فإن هناك ترابطا بين العقل والوحي أو العقل والقلب . والعقل وحده لم يستطيع أن يصل بالذين اعتمدوا عليه إلى معرفة كل الحقيقة ، وأدى إلى انحرافهم . وكذلك أخطأ الذين نحوا العقل، والتمسوا المعرفة الباطنة عن طريق المذاهب الإشراقية أو غيرها.

***

ومن هنا جاء اكتمال النظرية الإسلامية للمعرفة جامعة بين العقل والقلب ، جامعة بين عاملي الغيب والشهادة. ولا شك أن العقل له مجاله في ميدان العلوم والتجريب وآفاق الكيمياء والتكنولوجيا وغيرها . وقد كان له دوره الضخم الذي استطاع به المسلمون بناء المنهج العلمي التجريبي حين تخطوا المرحلة النظرية التي وقفت عنها دراسات الفلاسفة قبل الإسلام.

وقد كانت نظرية المعرفة الإسلامية الجامعة بين العقل والقلب مصدر النصر الذي حققه المسلمون حين وصلوا إلى قاعدة لم يسبقهم إليها سابق . وهي قاعدة (جرب واحكم) في مجال الطب والفلك والهندسة والكيمياء .

ومن هنا سار العقل والقلب في الفكر الإسلامي في إطار واحد ، دون أن يقع بينهم ذلك الصدام الذي عرفه الفكر الغربي ، ودون أن تتمزق الجبهة الواحدة إلى جبهتين ، على النحو الذي نراه في التفرقة الغربية بين العلم والدين . ولقد أكد العلماء المسلمون القاعدة التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم حين قال (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه[1]) .

فكان ذلك دعوة إلى التمحيص والإقناع ، وهي التي أوصلت المسلمين إلى إجراء التجربة . وقد أقام المسلمون تجاربهم العقلية والعلمية تحت راية الوحي . وفي ظلال مفهوم الإسلام الجامع بين العقل والقلب والروح والمادة .

---

(١) هذا الحديث مما جاء به في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا كان منطق المسلمين في الترابط بين العلم والدين واضحاً ، فالأصل في العلم : العقل ورائده التجربة الحسية ، ومن ثم فالعلم يمتد في مجال واسع ، ويحقق فيه انتصارات ضخمة ، ولكنه يقصر عن إدراك سائر حقائق الكون ، وخاصة عالم الغيب ، والعلم في مفهوم الإسلام يأمر أهله أن لا يعادوا ما يجهلون من الحقائق ، وأنهم في جانب الغيب لهم منهجهم في الإيمان به عن طريق القلب المصدق في الوحي ، والعقل شاهد ومقرر .

***

والإسلام صديق للعلم بما تضمنه القرآن الكريم من نصوص نحض على طلب العلم ، والتمرس به . وليس للعلم الصحيح أن ينكر الدين ، فيحكم على شيء ليس من مفهوم بحثه ، ولا هو من داخل ضمن دائرة نظرياته التجريبية الحسية . وما كان للعلم أن يخرج عن وظيفته ، وهي البحث والاستطلاع والملاحظة للظواهر الطبيعية ، ولا يقول بالنفي أو الإثبات لما يجهله من الحقائق الكامنة وراء الظواهر ، وما يقرره علماء المعامل يؤكد عجز العلم . وبالتالي العقل عن أن يكون قادراً على الإحاطة الكاملة ، أو الفهم المستقل للكون والحياة .

ويقول العلامة « كرلسون » : إن العلم لا يعطينا في مجموعة إلاّ معارف مهمة للغاية ، وكذلك من جهة العلل الخفية التي لا تتعلق بها تجاربه ، وقد قرر العلماء في شبه رأي موحد . على أن العلم يعجز عن أن يفسر ظواهر الأشياء ، أو يعللها . ولكن يصفها ويقررها ، ومهمة العلم في تقديرهم قاصرة على وصف الظواهر وتقريرها لا تعليلها . وقد كان في أول النهضة يهتمون بمعرفة (لماذا) . ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات ، وعقم نتائجها . ومن ثم رجعوا في تواضع إلى إقرار الحقيقة ، فالعلم عندهم لا يفسر شيئاً ، وإنما هو يربط وينسق ، ويلاحظ ملاحظة منهجية ، وبالتالي يصف ويقرر ، وليس هذا فهماً للأشياء . ولكنه تعرف عليها ، ويقرر العلماء الآن أن المعرفة العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة ، وأعمال البشر ، وعلاقاتهم التي يمكن استخدام المشاهدة والتجربة لاكتشاف قوانينها ، والعلم يعترف الآن بأن العقل

البشري لا يستطيع أن يدرك شيئاً عن طريق الحواس ، ولذلك فكل ما يقع وراء الحس والعقل ، لا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو يعرف عنه شيئاً .

وهم يقررون أيضاً أن حقائق العلم ليست مطلقة ولا أبدية ، وإنما هي حقائق نسبية ، والبحث العلمي في صراع لا ينتهي بين الإنسان والطبيعة ، فكلما إزداد الإنسان معرفة لقوانين الطبيعة إزدادت سيطرته عليها ، وما زال العلماء يتساءلون . هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة ؟ . لقد قطع العقل أشواطاً بعيدة خلال ثلثمائة سنة فهل استطاع التوصل إلى الحقيقة ؟ .

ومعنى هذا أن العلم رغم تقدمه لم يستطع بعد أن يحل المشاكل الكبرى المتمثلة في أصل الكون ونهايته وطبيعته المادية ، ومنشأ الحياة وخلود الروح .

ومعنى هذا أن العقل جهاز له مقدرته المحدودة ، وطاقته التي تقف به على أبواب عالم الغيب . وهذا قرار العلماء المعمليين الحاسم الواضح ، فلماذا إذن يسرف الفلاسفة ، وحملة لواء المادية والوثنية ، وخصوم الأديان في الدعوة إلى العقل ، وإلى إعلاء العقل وإلى اعتباره الواسطة الوحيدة للمعرفة الإنسانية الكاملة ؟ . الحق أن هؤلاء الذين يحملون هذه الدعوة ليسوا بعلماء ، وما يقولونه ليس علماً ، وإنما هو فلسفة تدخل في نطاق واضح . هو نطاق المادية التي حددت موقفها مسبقاً من الله والعالم الآخر والنبوة والرسالات السماوية التي لا سبيل إلى أن نقتنع بها .

(٥) قضية التقدم

ما هو مفهوم « التقدم » في الفكر الإسلامي ، وما وجه الخلاف بينه وبين مفهوم التقدم في الفكر الغربي وهل التقدم مادي خالص ، أم أنه تقدم شامل : مادي وروحي ونفسي وإجتماعي .

وهل تستطيع الحضارة أن تحقق للإنسان هناءه ، وهل يقتصر مفهومها على التقدم المادي وحده ؟ ! .

ولا ريب أن كلمة (التقدم) اليوم من الكلمات البارزة التي تكاد تطبع العصر كله بطابعها . وقد استلفت القول أن استعمالها إنما يعني دائماً نوعاً واحداً من التقدم :

هو التقدم في مجالات الحضارة ، ووسائل العيش ، وأساليب الحياة ، والجوانب الاقتصادية والعلمية . أي التقدم المادي وحده .

وهو تقدم مطلق غير محدود ، يرى أن لا تقف أي حواجز دونه ، أو معوقات في سبيله ، وهو يهدف عادة فيما يرمي إليه القائلون بهذا المصطلح ومرددوه : ما يسمى بالرفاهية .

ولا شك أن التقدم قانون أصيل في تاريخ الإنسان ، ولكنه لا يقف عند الجانب المادي وحده ، ولا يفترض الاغضاء عن قيم كثيرة في سبيل اندفاعه إلى آخر المدى .

وترى النظرية الغربية في التقدم أن حركة نشأت مع الثورة الصناعية في

القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وأنه مرتبط بنظرية التطور ، وأنه لذلك يقدم على أساس مادي ، وجوهره هو سيطرة الإنسان على الضرورات الإنتاجية والسيطرة على الطبيعة . وأنه بهذا المفهوم يحقق للمجتمع البشري السعادة والحرية ، وتختلف النظرية الإسلامية في مفهوم التقدم عن النظرية الغربية في مفهوم التقدم نفسه ، فمفهوم التقدم في الإسلام يدفع الإنسان دائماً إلى أمام ، ويؤكد القيم الإنسانية العليا الثابتة ، وأنه (وهذا الجانب الأهم والأكبر) يعني التقدم المادي والروحي معاً ، وأنه لا يضحى بالجانب الروحي في سبيل المادي ، ولا يعلي من شأن الجانب المادي وحده ، أو يفرده بالاهتمام .

***

فالتقدم في مفهوم الإسلام : نفسي ومعنوي ومادي ، وسياسي واقتصادي واجتماعي . وفي كل مجال التقدم المادي يكون هذا التقدم مشروطاً بالقيم الأساسية والأخلاقية بغير إذلال للخلق ، إيماناً بأن الحوافز المعنوية تعطي التقدم المادي قيماً عليا .

وقد علت أصوات ظالمة تحاول أن تقنع المسلمين والعرب بأن الدين (أي الإسلام بمفهومه دينا ونظام مجتمع) معوق عن التقدم ، ومانع من النهضة ، وأن على المسلمين والعرب إذا أرادوا التقدم أن ينفصلوا عنه ، ولا ريب أن تلك الأصوات ليست صادقة في دعوتها . وأيضاً ليست صادقة من الوجهة العلمية الصحيحة ، وذلك أن خروج أمة من مقدراتها وقيمها ومزاجها النفسي لن يكون بحال من الأحوال عاملاً من عوامل تقدمها . وإنما يكون عامل استعبادها وإذلالها وانصهارها في بوتقة النفوذ.الاستعماري الواسع الذي يريد أن يحتويها .

***

لقد كانت الدعوة إلى إعلاء مفهوم التقدم المادي في عالم الإسلام والعرب بالتخلف من عوامل التقدم المعنوي أو بتحرير التقدم المادي من الضوابط الأخلاقية ، وعوامل التقوى والإيمان ، مؤامرة ضخمة حتى يصبح العرب

والمسلمـون للاستعمار أسـاس قياداً ، ولينصهـروا في بوقـة العـالمية ، فتضيع شخصيتهم وتنمحي طوابعهم ، وهي دعوة مضللة زائفة ، وليست صادقة ، لأن أوروبا تفعل ذلك . لقد عادت أوروبا إلى جذورها وقيمها اليونانية والروحانية حين اندفعت تبحث عن أسباب التقدم .

وإذا كانت أوروبا ، أو الغرب عامة قد انفصل عن الدين . فذاك ، لأنه اعتبـر المسيحية دخيلـة عليه ووافـدة ، وأن تشكيلـه النفسي كان قائماً من خلال الفلسفة اليونانية والأنظمة الرومانية . أما في عالم الإسلام والعروبة . فإن الأمر يختلف . فإن هذه الأمة قد تشكلت قبل أربعة عشر قرناً . والإسـلام جزء من كيانها . من حيث هو دين وعبادة للمسلمين ، ومن حيث هو نظام وثقافة ومنهج حياة للمسلمين وغيرهم ، ولأهل هذه البقعة جميعاً .

***

ولا يمكن لأمة تشكلت ، والدين جزء منها ، فكان عميق الأثر في كيانهـا العضوي . وقد صاغ مزاجها النفسي وذاتيتها أن تخلص منه من بعد . إلا إذا أعيد تشكيل هذه الأمة من جديد ، ولأمـر ما نزلـت الأديان الثلاثـة الكبـرى في هذه المنطقة .

ولذلك فإن محاولة إخراج المسلمين والعرب من الدين بعامة ، أو الإسلام خاصة . إنما هي تجربـة مستحيلـة ومضـادة لاتجـاه التـاريخ ، ومعارضـة لروح التقدم ، ومخالفة لما انطبع عليه مزاج المسلمين وذوقهم ، وما تشكل عليه أدبهـم وفنهم ، ومناهج الحياة في مجتمعهم .

هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى . فإن الإسلام ـ مخالفاً لغيره مخالفة تامة لم يكن عامل تأخير أو جمود . بله عامل تقدم . وليس الإسلام هو الذي وقف ويقف أمام تقدم العلم أو تطور المجتمعات ، أو نهضة الأمم ، لأنه كان بطبيعته المصدر الأول بالبحث العلمي والمنشيء الأسـاسي للمذهـب العلمـي التجريبـي الحديث . بل إن الحضارة الإسلامية التي أقامها . إنما كانت نتاج الإيمان بالله ،

وتحقيق دعوة الله الداعية إلى النظر في الآفاق ، واستطلاع أسباب القوة والعمارة في الأرض .

وقد أكدت كل الأحداث التاريخية والدراسات العلمية . أن الإسلام قادر على إعطاء طابع الحركة والبناء في مجال التقدم في ظل مفهومه الجامع المتكامل .

مفهوم التقدم على جميع الجبهات ، دون إعلاء الجانب المادي وحده ، أو تضحية الجانب المعنوي من أجل الجوانب الأخرى . ومن هنا سقطت النظرية الوافدة التي حملها كثير من الكتاب ، والتي كانت تدعو إلى تبرير مفهوم التقدم الغربي - هذا المفهوم المسموم الذي يفتح الباب لذوبان المسلمين وملاشاة شخصيتهم . ولقد حاول بعض الباحثين تقرير نقطة الخلاف بين مفهوم التقدم الإسلامي ، ومفهوم التقدم في الغرب . فقد أشار العلامة (مسمر) الفرنسي إلى ذلك حين قال :

إن تقدم العلوم في الغرب في وقتنا هذا حصل رغماً عن الدين ، أما في دين الإسلام فالعكس من ذلك أنه - أي الدين الإسلامي - لا يستطيع أن يبقى على قيد الحياة إلاّ بانتشار العلوم ، فإن بين الإسلام والعلوم رابطة كلية ، والغربي إذا صار عالماً ترك دينه . أما المسلم فإنه لا يترك دينه إلاّ إذا صار جاهلاً ، وبأي وجه يمكن نسبة التقدم الحالي في الغرب إلى الدين ، والحال أنه ما جاء إلاّ بعد خمسة عشر قرناً من ظهوره ، وبأي وجه يمكن نسبة تأخر المسلمين الحالي إلى دينهم . وفي عام ٧٤٢ م أي بعد مائة وإحدى عشرة سنة من وفاة (محمد عليه الصلاة والسلام) كانت دولة الإسلام أكبر من دولة الإسكندر المقدوني ، وفي عام ١٥٦٦ م عند وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين ، ومن هذا يظهر أن عظمة الإسلام امتدت ألف عام ، وكل من يعرف أنه لا يمكن الوصول إلى مثل هذه الدرجة من الأمور السياسية والحربية إلاّ بالعلوم والتجديد .

***

وقد أشار إلى مفهوم التقدم وارتباطه بالإسلام العلامة : جوستاف لوبون حين قال للشباب العربي والمسلم ممن زاروه في منزله بباريس في أوائل هذا القرن :

(إن السبب في انحطاط الشرق هو تركه روح الدين ، وتشبثه بالعقائد الباطلة ، وإن قوة الدين قوة أدبية ، كما أن الشعب الذي يريد الرقي يجب ألا يقطع الصلة التي تربطه بماضيه ، وأن العلوم الحديثة لا تفيد المسلمين إلاّ إذا اقترنت بدينهم ، ولم تنفصل عنه . اهـ . وإذا وصف المسلمون في العصور الأخيرة بالتخلف ، فليس هناك من دليل علمي يؤكد أن الإسلام كان مصدر هذا التخلف . بينما هناك عشرات الأدلة العلمية على أن هذا التخلف كان مصدره انحراف المسلمين عن الإسلام في مناهج حياتهم الاجتماعية والسياسية والتربوية وغيرها .

وتكذب كل الوقائع ما يذهب إليه كتاب الاستعمار ، ودعاة التغريب . وخصوم العرب والمسلمين من أن التخلف في العالم الإسلامي إنما يعود إلى جوهر الإسلام الداعي إلى التقدم والنهضة ، والذي حين طبق تطبيقاً صحيحاً ، بهر الدنيا بما قدم من آيات العلم والفن ، وما شكلت حضارته من حياة كانت غاية في السماحة والحيوية والإنتاج والبناء في شتى المجالات في الحياة .

وقد ارتبط تخلف المسلمين تاريخياً بالتخلي عن أصول الإسلام ومفاهيمه ، والانحراف عن طابعه وجوهره ، والتماس أساليب وافدة لم تزد المسلمين إلاّ تأخراً وجموداً .

إن الأسلوب الذي اتخذه قادة المسلمين في تدبير شؤون الدولة ، وبناء الحضارة من شأنه أن ينقض مزاعم الذين يتحدثون عن جوهر الإسلام دون أن يتعمقوا مضامينه الحقيقية ، ودعوته إلى التقدم الكامل المعنوي والمادي ، فقد حمل المسلمون أمانة العلم والحضارة ألف عام . وقدموا للإنسانية منهج المعرفة الإسلامية ذي الجناحين : القلب والعقل . كما قدموا لها المنهج العلمي التجريبي نواة الحضارة الحديثة .

وقدموا للإنسان منهجاً في الاقتصاد والقانون والاجتماع والتربية ، قام على التوحيد والأخلاق والإيمان ، لن تجد الإنسانية مثيلاً له مهما أبدعت من أيدلوجيات ، ومذاهب وفلسفات ، وسوف تعود إليه في القريب مقتنعة بأنه منهج التقدم الأصيل .

(٦)

قضيــة العلوم والإنسانيات

هناك منهجان لكل منها مقاييسه وأدواته في الفهم والبحث ، منهج العلوم الذي يقوم على تجربة المعمل، ومنهج الإنسانيات الذي يقوم على مقاييس تختلف عن تجربة المعمل، لأنها ترتبط بالإنسـان الـذي لا تحـده مقـاييس المادة، ولا مقـاييس الحيوان ، إن أخطر ما تطرحه الفلسفة المادية أنها تتخذ مقاييس العلوم المادية أساساً للتطبيق على الإنسان الذي هو: روح ومادة وعقل وقلب.

وان من أخطر النظريات التي صدرت عن الفلسفة المادية إخضاع العلـوم الإنسانية لمناهج الـرياضيات والمناهـج التجـريبية، أو إخضـاع الإنسـان نفسـه لتجارب الحيوان.

وقد كان من المقرر أساساً لدى الباحثين والعلماء أن هناك ثلاث مجموعات من العلوم:

* العلوم الرياضية، ويتبع في بحثها المنهج الرياضي.
* العلوم الطبيعية والبيولوجية، ويتبع في بحثها المنهج التجريبي.
* أما العلوم الإنسانية والاجتماعية فهي لا تخضع للمنهج الـرياضي. ولا المنهـج التجريبي، وإنما تخضع لمنهـج خاص يتـلاءم مع طابعهـا النفسي والوجدانـي والذاتية.

ذلك أن موضوع العلوم الرياضية والطبيعية هو المادة والطاقة والحياة . أما العلوم الإنسانية والاجتماعية فإن مادتها هو الإنسان سواء أكان فرداً أوجماعة أو شعباً أو أمة.

وإذا كانت العلوم الطبيعية تحتكم إلى التجربة العلمية في الفصل بين الفروض المختلفة ، فإن العلوم الإنسانية والاجتماعية لا تملك ما يملك العلم الطبيعي من التجربة العلمية . ذلك أن هذه العلوم الإنسانية تتصل بالنفس والروح والعقل ، وكلها لا تخضع للقوانين التي خضعت لها المادة ، ولا للقوانين التي أمكن استخلاصها من دراسة الحيوان ، فالإنسان حيوان وزيادة، وكل القوانين التي تطبق على الحيوان لا تصلح له، لأنه أكبر منها. وأبلغ أخطار هذه النظرة التي تحاول أن تخضع العلوم الإنسانية والاجتماعية لتجارب الرياضية ، أو تجارب الحيوان أنها تحاول اعتبار الإنسان قيمة مادية خالصة، بينما يزيد الإنسان على الحيوان شيئاً آخر كبيراً «هو العقل» مناط التكليف ، ومعقد الأمانة التي حملها، والمسئولية الأدبية والتبعية الأخلاقية[1].

***

ومن هنا تقف على أخطر خلاف جذري بين مفهوم الإسلام، ومفهوم الفكر الغربي . ومن هنا كانت مناداة الفكر الإسلامي منهج خاص لدراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية يستمد مفاهيمه من الإنسان نفسه. ومن سنن الله في الكون، وهو علم منفصل عن العلوم المادية والبيولوجية والرياضية، له مقوماته وقوانينه. ومن هنا فإن الإسلام يطرح قضية العلم جميعها في ضوء مفهومه المخالف للمفهوم الغربي.

***

فما هو العلم، وما هي الفلسفة؟ .

يجيب على هذا الدكتور الغمراوي فيقول : ليس كل ما ينسب إلى العلم ينتمي إليه ، ولا كل ما ينتمي إلى العلم مفروغ من إثباته . بل كما أن في العلم الحقائق التي لا شك فيها. فإن فيه أيضاً القضايا المفتقرة إلى الإثبات . أما حقائقه

(١) راجع دائرة معارف فريد وجدي، وكتاب الأستاذ الغمراوي بين الدين والعلم.

فهي مفردات المشاهدات في ميادين العلم المختلفة، وما يستنتجه العقل منها حسب قوانين التفكير الفطرية، ولكن كل ما ينتمي إلى العلم من هذا النوع هو علم.

والفروض التي يقدمها العلم في ميادينه المختلفة ملتمسا بها تفسير مشاهداته هي عنده فروض رهن التجربة والامتحان، وهذه بعينها هي التي يستيقنها المشغفون بكل جديد، وموقفهم هذا تلقاء العلم يشبه مواقف العوام تلقاء من يكبرون من الأبطال الخزافيين أو الحقيقيين، والذين يكثرون باسم العلم، وليسوا منه، هم في التعصب إخوان العوام، ينتصرون لكل جديد، كما ينتصر العوام لكل قديم ، أولئك هم عوام الخواص.

***

ومن هنا يصل الفهم الإسلامي للعلم إلى منطلق للعلوم الإنسانية والاجتماعية هو «علم الفطرة» هذا المنطلق الذي يحقق التطابق بين العلم والإسلام، وأن مقياس الأدب والفن والحياة جميعا . إنما يقوم على التطابق بين هذه المفاهيم، وبين الفطرة التي فطر الله الناس عليها. (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم[1]).

يقول الدكتور الغمراوي: إذا قدر للإنسان في علومه المختلفة أن يحيط بالفطرة فسوف يستطيع أن يهتدي إلى فلسفة غير فلسفة الحاضر. عندئذ يرى الإنسان أن سنن الله في الكون واحدة في اطرادها وتناسقها، وفي دقتها وصرامتها ، لا سبيل إلى تغييرها، أو الإفلات من عواقب مخالفتها سواء ذلك من ناحية المادة أو الطاقة فيها، وناحية النفس والروح في الأفراد والجماعات.

فإذا كان العلم قد اكتشف سنن الله الفطرية في المادة، فإن عليه أن يهتدي إلى سنن الله في الإنسان والمجتمع. لقد تحقق الكشف عن سنن الفطرة في المادة ، وبقي أن نكتشف سنن الفطرة في الروح، روح الفرد ، وروح الجماعة . إن كتاب الله فاطر الفطرة بخير بما جهلته الفلسفة ولم يدركه العلم.

---

(١) سورة الروم من آية ٣٠.

فإن لله سننا لا تتخلف جرت في الأولين بالإهلاك حين عصوا واتبعوا أهواءهم ، وهي جارية لا شك في الآخرين. (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها[1].)

ونحن إذا حاولنا أن نحدد موقف الإسلام من هذه الحضارة نجد أنها بعيدة جدًّا عن أن تكون مثلاً أعلى للمدنيات، فإن المدنية الكاملة يجب أن يكون بينها وبين الفطرة من الاتفاق ما يجعلها في الواقع جزء من الفطرة التي فطر الله عليها الكون. وآية ذلك أن يكون فيها ما في سائر النظم الكونية من الاتساق والانسجام والتوافق والتماسك ، وهذا لا يتحقق لأي مدنية من المدنيات. إلا إذا قامت على الحق في جميع نواحيها ، وكانت نظمها النافذة منطبقة على قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها وشيوع الخلل والاضطراب في النواحي الاجتماعية من هذه المدنية، هو دليل شيوع الباطل في هذه النواحي . ودليل بعد هذه النواحي عن الفطرة.

***

وقد نعى كثير من الباحثين نظرة العلوم المادية إلى الإنسان ، ومحاكمتهم إلى القوانين التي اكتشفوها في مجال العلوم أو الحيوان، وكان أقصى ما وصل إليه علماء المادة هو القول بأن الإنسان ما هو إلا ظاهرة من الظواهر العامة. ولذلك فلا بد أن يخضع في حياته الاجتماعية إلى قوانين المادة والحيوان . ومن هنا نشأت مذاهب علم النفس الفرويدي، والوجودية ، وفلسفات متعددة تحاول أن تحاكم الإنسان (الذي هو روح ومادة) إلى ما يحاكم به الظواهر المادية.

وهنا نقطة الخطأ التي أحدثت ذلك الاضطراب العجيب الذي يعيشه العالم والحضارة من خلال أزمة القصائد والفراغ والضياع.

---

(١) سورة الحج آية ٤٥.

(٧)

قضيّة التجديد

ما هو مفهوم القديم والجديد بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي . وهل التجديد مطلق أم أنه يقوم على قواعد مضبوطة . وهل التجديد في الآداب كالتجديد في العلوم؟ .

إن الإسلام يطرح للتجديد مفهوما أكثر عمقا، وأوسع مدى، وأكثر اتصالاً بمفهومه القائم على الوسطية والتكامل والحركة .

وكلمة « التجديد » من المصطلحات التي اختلف فيها الرأي ، وأطلقت إطلاقا جريئاً دفعها إلى الانحراف، واتكأ عليها النفوذ الاستعماري والتغريب في محاولة لإلقاء الكراهية والازدراء للتاريخ واللغة والتراث. واتهام هذه القيم جميعاً بالتخلف .

وكان معنى التجديد في نظر دعاته : (الانفصال الكامل عن كل قديم، والاتجاه الشامل إلى كل جديد دون تحفظ أو اختبار) .

وفي مواجهة التجديد كانت هناك الحملة على التقليد واتهامها بالرجعية . غير أن امتداد هذه الدعوى وبلوغها أقصى مدى التحدي، كشف عن خلفيات الداعين لها، وأهدافهم بما ارتبطت به هذه المصطلحات من غايات بعيدة المدى، ومطامع لا حد لها ربطتها بالتغريب والنفوذ الاستعماري .

***

ذلك أن الدعوة الحقة حين تدعو إلى التجديد لا تفصله عن القديم، ولا تعزله عن الماضي . بل تجعل من الماضي سبيلاً إلى الجديد. ومن التطور رابطة بين القديم والحديث.

والغربيون أنفسهم الذين يحاولون دعاة التجديد «المطلق» التماس مناهجهم، إنما يفهمون التجديد على هذا النحو، متصلا بالقديم نابعا منه مستمداً من جوهره ، فلا انفصال مطلقاً بين الأصالة والتجديد ، أو بين الماضي والحاضر، وقد اعترف أصحاب النهضات والحضارات بذلك الترابط الأكيد بين الماضي والحاضر. القديم والجديد، وذلك استمداداً من مفهوم علمي أصيل. هو أن الأصول الأساسية في بناء كل جديد.

وقد ذهب العلماء العقليون والتجريبيون معا ـ وهم أبعد الناس عن أوهام الفلسفة ـ إلى أن المعنى الحقيقي لكلمة (جديد) هي فكرة نقد شيء في طور التحول في حين أن كلمة (قديم) تعني الموجود الساكن الموضوع مسبقا، وأن كلمة (قديم) استعملت عن العرب بمعنى الموجود لم يزل.

***

وتجمع المفاهيم العلمية للتجديد، على أن التجديد في الآداب كالتجديد في العلوم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون بين الماضي والحاضر ، حيث يبنى العمل في حاضره على أساس العمل في ماضيه، وأن التجديد هو إبداع الحي في آثار الميت . ولا شك أن التجديد قانون طبيعي ، وقانون ثابت ، فإن لم يكن تجديد فتدهور وانحطاط ، وشأنه في الفكر هو شأنه في الكائنات الحية ، بيد أن له أصوله، ومقوماته ، وقواعهد التي تقرر بأنه لا ينفصل عن أرضيته وقاعدته، ولا ينقطع عن تطوره الطبيعي.

ولقد أكد الباحثون المنصفون قيمة القديم . فقال كارل بيرسون : إن من أقوى المؤثرات التي تحفظ الثبات الاجتماعي وتحول دون تخلخله. تلك الصفة التي

نبغضها، صفة الجمود على القديم ، لا بل نقول بأن العداء الصارخ الذي تقابل به الجماعات الإنسانية كل الفكرات الجديدة لمن أخص تلك المؤثرات . وهذه الصفات هي بمثابة الكور المتلظية نيراناً، والتي بدونها لا نستطيع أن نفصل بين المعدن الصحيح والنضلات الزائفة . وهي التي تحمي الجسم الاجتماعي من أن يترك معرضا لتغيرات تخريبية فجائية . قد تكون غير مفيدة آناً ، أو بالغة أقصى الضرر آناً آخر.

أما المحافظة فهي قانون طبيعي وسنة كونية، وهي التي تحمي الأمم من آثار الغزو الخارجي، وبها استطاع العرب والمسلمون الصمود في مهاب الغزو التتري والصليبي والاستعماري جميعاً، وهي التي تحمي شخصيات الأمم من أن تزيف أصالتها، أو تمسخ ذاتيتها.

***

ولقد كانت ظاهرة المحافظة في فترة الضعف والتخلف من أشرف الظواهر في تاريخ الأمم، فهي قد تمثلت في نوع من الانطواء على الذات في مواجهة الأخطار الجائحة، فكانت روح المحافظة إذ ذاك نوعا من الدفاع عن الذات، وهي التي حفظت للمسلمين والشعوب لغتهم وشريعتهم وتاريخهم.

وقد أكد علماء التاريخ المنصفون جميعا ، بأن ظاهرة المحافظة التي مرت بالفكر الإسلامي خلال الغزوات التترية والصليبية والاستعمارية، هي بمثابة موقف حضاري أصيل ، مكن من صيانة القيم من الانحراف والانهيار في ظل إعصار دخيل يدمر كل شيء. أما «التقليد» فإن للفكر الإسلامي إزاءه موقف واضح. ذلك أن التقليد هو المتابعة بغير يقين عقلي، أو اقتناع برهاني، والمقلد في مفهوم الفكر الإسلامي لا يعد عالما. ذلك أن العلم إنما هو المعرفة الحاصلة عن دليل . وقد ذم الإسلام أصحاب الرأي الذي لا يستند إلى دليل. وقد رفض الإسلام مبدأ التقليد والتبعية. وأكد أن التقليد يمنع من «الأصالة» وأن المعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية.

ويقف الفكر الإسلامي من «التقليد» موقفاً واضحاً في كلا مجاليه : تقليد القديم . أو تقليد الوافد:

* تقليد القديم بغير برهان.
* تقليد الوافد الأجنبي بغير ضرورة.

وكلاهما يجب أن تتحرر منهما الأمم التي بلغت مرحلة الرشد الفكري، وتسقط فيهما الأمم الضعيفة ، وأخطر الأمور ان تدعي الأمم إلى التحرر من تقليد قديمها لتقع في تقليد الأجنبي عنها، وكلاهما يفسد الشخصية والذات. ولكل أمة ثقافتها وقيمها ومزاجها النفسي والاجتماعي، فلا تحتاج إلى تقليد أمة غيرها في أسلوب تفكيرها، أو تعتنق قيمها ومفاهيمها.

ولقد كان الفكر الإسلامي متفتحاً دوماً على ثقافات الأمم دون أن يتخلى عن مقوماته. ولا شك أن التغريب إنما يستهدف من الدعوة إلى «التجريد المطلق» بمقاييسه المسرفة البعيدة عن الأصالة والتكامل، ومن هجومه على القديم إنما يريد أن يدفع العرب والمسلمين إلى الانصهار في ثقافات الأمم، والخروج من مقوماتهم وشخصيتهم.

ذلك أن لكل أمة فطرتها وثقافتها الخاصة التي تقوم على أساس تراثها. ولقد حذر الإسلام من خطر التقليد في كلمة رسول الله الجامعة. (لتتبعن سن من قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه[1] .)

قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى.
قال: فمن؟

***

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي: إذا كان المسلمون يطلبون النجاة فليطلبوها داخل الإسلام لا خارجه، وهم يخطئون طريق الرشد إذا قلدوا الغرب في نظمه الاجتماعية.

---

(١) أورده الإمام ابن كثير في تفسيره.

إن التقليد رق. وقد حرر الإسلام منه الإنسان إلى الأبد. ذلك أن التقليد هو أداة الانحطاط. وأن أخص خصائص التقليد هو الاتباع من غير روية، ولا فهم، والاقتناع لا عن تفكير. ولكن عن ثقة السائل بالمسئول، والتابع بالمتبوع. وقد تبرأ الإمام الشافعي من تبعة من يقلده، فيأخذ برأيه دون أن يقف على دليله. ا هـ.

وبالجملة فإن التقليد هو إبطال وظيفة العقل. ولقد جرى المسلمون والعرب شوطا طويلاً في السنوات المائة الأخيرة في تقليد الغرب دون حصانة في الحفاظ على مقوماتهم، ودون استنارة في تقليب ما يأخذون، وكانوا إزاء ذلك كله في موقف المضطر (تقليب) الذي لا يملك إرادته الحرة، أما اليوم فإن الأمر يختلف. فقد انكشف كثير من الحقائق أمام العقل العربي الإسلامي! وكان للأحداث الخطيرة أثرها في إعادة النظر في كثير من النظريات التي تقبلها البعض على أنها مسلمات، بينما هي تطريات تحتمل الخطأ والصواب.

***

وصدق «تارد» الذي عرض لمثل هذه المعاني في كتابه (قوانين التقليد) حين قال: إن الفكرة التي لا تتفق مع أفكارنا، والتي تصطدم في نفوسنا بعقيدة أو تضاء رغبتنا أو حاجتنا، هي فكرة مرفوضة لا نقلدها، ففي اللغة لا نقبل الكلمة ولا نحبها إلا إذا استجابت لحاجة الفكرة، وإلا إذا وقعت على ما نعتقده وما نحسه في نفوسنا.

والقانون المقبول هو ما استجاب لعقائدنا، وما سد نقصاً في حاجتنا.

(٨)

قضيـة الأصـالة

ما تزال قضية الأصالة من القضايا الخطيرة : علاقة الأصالة بالتجديد ، وعلاقتها بالتاريخ وعلاقتها بالتبعية . ولقد خاضت الأقلام فيها وطرحت مفاهيم متبانية مستمدة من النظرية الغربية . غير أن الإسلام له نظرته للأصالة ومفهومه لها .

ولا شك أن مفهوم الأصالة من هذه المفاهيم التي اختلف فيها الفكر العربي الإسلامي عن الفكر الغربي ، تقديراً وعمقاً . ذلك أن الفكر الغربي الذي ساقته نظرية التطور سوقاً إلى الإيمان بالتغير الكامل ، لم تعد تهمه من قضية « الأصالة » إلاّ ظلالها . بينما يركز تركيزاً كبيراً على « التجدد » ، ولا يرى أن « الأصالة » تمثل أكثر من البعد التاريخي للتحول .

ولذلك فإن النظرة إلى الماضي يخالطها كثير من الإحساس بالاستغناء أو محاولة التمرد على القديم ، وذلك جرياً مع التاريخ الطويل الذي واجهت به أوروبا ماضيها اللاهوتي ، وتراثها المتصل بالدين والزهادة والرهبانية التي هاجمتها مهتلف النظريات الحديثة ، وحملت عليها الفلسفات حملة عنيفة .

ومن هنا كان إحساس الفكر الغربي بالأصالة ضعيفاً خافتاً ، لأنه فصل تماماً بين فكرة الحديث ، وبين ذلك التراث حتى أنه حين أنكر هذا الماضي ، وتحرر منه ارتد مرة أخرى إلى الارتباط بالوثنية الإغريقية ، وجددها وأحياها حتى اتخذ من أساطيرها أصولاً لنظريات علم النفس والوجودية . فقد اعتمد سارتر وفرويد في أغلب النظريات التي حاولوا إعطاءها طابع العلم على أساطير اليونان الخرافية .

وإذا كان هذا هو موقف الفكر الغربي الحديث إنفصالاً عن التاريخ والتراث القديم . فلا بدّ أن يكون مفهوم الأصالة باهتاً ومضطرباً .

***

أما مفهوم الأصالة في الفكر الإسلامي فقد كان دائماً بمثابة أساس البناء ، فالتجدد قوة من القوى التي اعترف بها الإسلام بإسم « الاجتهاد » وجعلها علامة على الحركة واليقظة ، وجعلها مرتبطة بالأصالة رباط القديم بالجديد ، والماضي بالحاضر ، فالأصالة هي ذلك التراث النقي ، والميراث الحي الذي تشكل عليه الفكر الإسلامي استمداد من القرآن أولاً ، والسنة الصحيحة تفسيراً له وتطبيقاً . ثم نما الفكر الإسلامي حلقة بعد حلقة ، وعصراً بعد عصر في ظلال الأصالة لم ينفصل عنها ولم ينقطع ، وامتدت شرايينه على مدى العصور ، وظل محافظاً على أصالته في أحلك الأزمات ، وأسوأ فترات الضعف والتخلف ، وكان القرآن الكريم هو الدم الذي يجري في هذه الشرايين لم ينقطع ولم يتوقف .

فالأصالة في مفهوم الفكر الإسلامي « تجدد » متصل يتجه نحو الكمال ، ويحفظ القيم الأساسية ، وينميها ، ثم هو مقاومة دائمة لدوافع الانحراف والتخلف معاً . فالأصالة ترتبط بالتجدد في نفس الوقت الذي ترتبط فيه بمقاومة التبعية .

***

والفكر الإسلامي حين ينفتح على « المعاصرة » لا ينسى أبداً قيمة وذاتيته التي لا تذوب أو تنصهر في معرض النقل والاقتباس . فالأصالة لا تحد من المعاصرة والتجديد ، ولكنها تعمل على تحرير القيم من التبعية والتقليد . ذلك أن أخطار الشعوبية في تاريخ الإسلام القديم ، والتغريب في تاريخه الحديث ، إنما كانت تحاول أن توسع مجال المعاصرة بحيث تقضي على الأصالة ، أو تذيب القيم الأصيلة للفكر الإسلامي في بوتقة الأممية .

ولقد كان الإسلام في تاريخه كله قادراً على تحقيق الالتزام بالعصر والتقدم

والتجديد دون أن يفقد الأصالة . وليست الأصالة تشبثاً بالماضي ، أو تعصباً له ، وليست هي تقديس للتاريخ ، ولكنها إيمان بالقيم الثابتة ، وتأكيد للوجود الذاتي ، ومحافظة على كيان الأمة في أصالة فكرها .

***

ذلك أن الأخطار والتحديات التي واجهت الفكر الإسلامي والثقافة العربية في العصر الحديث كانت جميعها تحاول أن تقضي على مضمون الأصالة على النحو الذي هو مفهوم هذا الفكر .

وفي طريق القضاء على الأصالة كانت الدعوة إلى « التساهل[1] » الذي دعا إليه كثير من كتاب التغريب بإسم التسامح من تقبل الآراء الغربية ، أو (تحرير الفكر[2]) بحيث تنسى مقررات فكرك وعقائدك في سبيل تقبل الرأي الوافد .

إن الدعوة إلى تغليب العصرية على الأصالة دعوة مسمومة ، والقول بأن الأصالة هي التاريخ ، هو قول زائف ، ذلك أن الأصالة في الفكر الإسلامي العربي إنما تمثل تلك الحصيلة الضخمة التي أقامها القرآن الكريم ، ونماها الأئمة ، والأبرار من مفكري الإسلام على مدى أربعة عشر قرناً ، وهي ليست تراثاً قديماً . وإنما هي ميراث حي متجدد لم يتوقف عن الحياة لحظة واحدة في مواجهة تطور المجتمعات والحضارات ، وكان (ولا يزال وسيظل) قادراً على العطاء .

***

إن كلمة « العصرية » في الفكر الغربي تحمل صورة الانسلاخ من العقائد ، والتحرر من القيم ، ولسنا نحن الذين نقول هذا . بل تقوله إحدى الكاتبات الغربيات اللائي انكشف لهن نور الحقيقة .

تقول الكاتبة الأمريكية المسلمة « مريم جبيله » : إن البلاد المسلمة قد وقعت فريسة مصطلحات خاطئة . ومنها مصطلح « العصرية » . وقد جنى هذا المصطلح على الإسلام جناية كبرى .

---

(١) فرح أنطون - مجلة الجامعة م ٤ سنة ١٩٠٣ .

(٢) مجلة العصور ١٩٣١

فالعصري يراد به رجل لا يرضى بالإسلام ديناً معقولاً مفهوماً لدى العالم أجمع ، كما يراد به رجل يحاول أن يفسر الدين والعقيدة تفسيراً جديداً يثبت به أنه ليس هناك تعرض بين القيم الإسلامية . وقيم الحضارة الغربية . إن الرجل العصري وإن لم يتفق والإسلام إلاّ بإسمه يطلق حكمه على الإسلام على أساس مباديء وأهداف استوردها من الغرب ويظنها - شعورياً أو لا شعورياً - أرفع من المباديء الإسلامية . وكل شيء من الإسلام يناقض تلك الأهداف المستوردة .

ولا شك أن العصرية أو العصرنة فكرة تغريبية خطيرة يراد بها تحريف الأصول الإسلامية لتبرير الواقع الحضاري القائم بما فيه من مخالفات ومعارضات لمفهوم الإسلام أو مفهوم الدين بعامة .

فالعصرية محاولة فرض مباديء وأهداف غربية ترمي إلى إحتواء الفكر الإسلامي ، وجعله خاضعاً للواقع الغربي في قيمه ومذاهبه مع تجاهل واضح لما بين الفكرين الإسلامي والغربي من تباين عميق في قضايا كثيرة ، وأنه لا سبيل لتحقيق « العصرنة » إلاّ بإخضاع الفكر الإسلامي للفكر الغربي ، وهو ما لا يمكن أن يحدث .

***

فالفكر الإسلامي بأصولة القائمة على التوحيد كان دائماً قادراً أن يحتفظ بذاتيته الخاصة ، يأخذ من الفكر البشري ويترك . وقد عجزت كل القوى - في أحلك الظروف والأوقات - أن تصهره أو تخضعه أو تفقده مقوماته .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد استطاعت أن تحتوي الديانة والفكر اليهودي . ثم احتوت الديانة والفكر المسيحي ، فإنها قد عجزت عن أن تحتوي الإسلام والفكر الإسلامي الذي أخذ منهاورفض، واستطاع بعد صراع طويل أن يتحرر منها ، وأن يكشف عن منطقه وذاتيته مستمداً أصول ذلك كله من القرآن الكريم نفسه . وإذا وقف الإسلام موقف « الثبات » والصمود أمام محاولات احتوائه ، أو صهره ، ووصف ذلك من دعاة التغريب أنه الجمود أو التعصب ، وهي عبارات ظالمة لا يستطيع الخوف منها أن يذل الإسلام وفكره للسيطرة الغربية .

وقد أكد كثير من المفكرين الغربيين المنصفين ما ذهبنا إليه من أن الإسلام والفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي ، والبلاغة العربية لا يمكن تفسيرها في ضوء المذاهب الغربية .

***

أما إذا كانت (العصرنة) تعني دفع الإسلام والفكر الإسلامي والثقافة العربية إلى مواجهة الحياة العصرية ، والالتقاء بالحضارة العالمية ، والفكر البشري أخذاً وعطاءًا . فإن ذلك أمر قائم لم يتوقف يوماً ما . فقد كان الفكر الإسلامي دوماً فكراً مفتوحاً قادراً على الأخذ والعطاء . وكان له آفاقه المنظورة ما يمكنه من الالتقاء بمختلف النظريات الحديثة البناءة التقدمية في مجال الاقتصاد والقانون والاجتماع .

ولم يكن الإسلام بقيمه الثابتة عاجزاً يوماً عن الحركة والتقدم والعطاء . بل إن هذه القيم الأساسية من عقيدة وشريعة وأخلاق كانت هي أقوى الحوافز لإعطاء البشرية قيمة إنسانية أعلى من مفهومها المادي الخالص .

***

وليس من شأن الإسلام أبداً . ولن يكون أن يبرر إنحراف الفكر الغربي ، أو الحضارة الغربية القائمة ، أو يقبل من مفاهيمها ما يختلف مع جوهر التوحيد ، أو ما يتعارض مع أصوله القائمة على دحض الربا والإباحية والالحاد والوثنية .

لقد استطاع الإسلام أن يحرر الإنسانية من أعظم أغلالها ، وهي الوثنية ، واستطاع الفكر الإسلامي أن يتحرر من العبودية لغير الله وحده . وبذلك أطلق مفاهيم الحرية والعدالة التي عجزت الحضارة الغربية عن إطلاقها ، والتي باتت معضلة العصر ، وأزمة الإنسان المعاصر . هذا فضلاً عن أن تكامل الإسلام جامعاً بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة قد أعطاها قيماً عقلية ونفسية ، وسعت مجال إنسانيته وسماحته ، وقضت على كثير من الصراعات والأزمات ، وخاصة أزمة القلق والضياع التي يعاني منها الفكر الغربي .

أما التراث الإسلامي العربي فهو ليس قديماً متحفياً منفصلاً عن الواقع ، ولا عن المجتمعات . بل هو ميراث حي مليء بالحيوية ، لم يتوقف عن التفاعل في المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً كاملة ، دون انفصال ، أو توقف ،وهو تراث بناء تقدمي ما تزال مفاهيمه نابضة بالحياة قادرة على عطاء البشرية .

(٩)

مَفهُوم البطـُولة

ما تزال حركة الغـزو الثقـافي والتغـريب تطـرح مفـاهيم وافـدة لمفهـوم البطولة . ولا ريب أن للبطولة في الفكر الإسلامي مفهوماً مبايناً لمفهومها في الفكر الغربي . ولقد خلـد المسلمـون البطولـة تخليد عمـل ، وكرهـوا وثنية البطولـة ورفضوا الأحجار .

و « البطولة » قيمة من القيم الإنسانية . غير أن لها في كل فكر مفهومـاً ، ومفهومها في الفكر العربي الإسلامي يختلف عن مفهومهـا في الفـكر الغربـي ، وكذلك كل القيم واحدة في الإسم ، متباينـة في المفهـوم ، ومرجـع هذا التبـاين اختلاف البيئات والثقافات والأديان والأصول الأساسية التي قام عليها فكر الأمة ، وتشكلت عليها ذاتيتها ومزاجها النفسي والاجتماعي .

ويرجع مفهوم البطولة في كل فكر بشري إلى العوامـل التـي شكلـت هذا المفهوم ، والتاريخ الذي أثـر فيه واستفـاض عنـه ، وأن الوعـي بهـذه الأصـول والعوامل من شأنه أن يضعنا على الحقائق التي تختلف فيها الرؤ ية ، ووجهة النظر بالنسبة للبطولة ، وما يتصل بها من مفاهيم الزعامة والعظمة ، وما يقوم من تفرقة واضحة بين النبوة والعبقرية ، وما يتبع هذا من مفهوم للمأساة وللفن ، وللتصوير المسرحي لشخصية البطل ونهايته ، وفي فكرنا الإسلامي يبدو الأمر واضحاً وضوحاً جلياً ليس فيه خفاء ، فنحن نكرم البطولة ، ونضعها موضع التقدير ،ولكنا نختلف عن الفكر الغربي في أساليب تقديرها وتكريمها .

***

ونحن نجعل أسس تقدير البطولة عملها لا شخصها . ولذلك فنحن نكرم العمل الذي هو بمثابة الإضافة الحقيقية التي قدمها لأمته وللإنسانية . وهذا هو ما يسمى بالتخليد المعنوي . الذي يقوم على تقدير الكلمة أو العمل ، ولا ينصب أبداً على تقدير الفرد أو تقديسه ، أو وضعه في صورة يبدو معها في مجال التأليه ، أو ما يشبهه على النحو الذي عرفه الإغريق قديماً حين رفعوا أبطالهم إلى مصاف الآلهة ، وأنصاف الآلهة ، أو على ما يفهمه الفكر الغربي الذي يستمد أصوله من النظرة الإغريقية التي ترمي إلى تجسيد الأبطال في صورة مادية ، والذي يرجع أصلاً إلى الطابع الوثني الذي يطبع فلسفات اليونان والهنود .

أما الإسلام ومنه يستمد الفكر الإسلامي أصوله وقيمه ، فله طابعه الذاتي المجرد ، ومفهومه الصريح الواضح لهذه القيمة الإنسانية . فبطولة الإسلام : هي بطولة فكر لا بطولة أحجار وتماثيل ، فليس في الإسلام هياكل تدمر ، ولا بعلبك ولا الأهرام ، وليست (تاج محل) في الحقيقة تصويراً صادقاً لمفهوم الإسلام ، ولكنها إنحراف عنه . وقد أوفى الكثير من الباحثين هذا المعنى ، وفي مقدمتهم الدكتور عبد السلام العجيلي الذي يقول :

ربما عد البعض هذا الفهم نقصاً ، ولكني أعتبره من مزايا العبقرية ، فلم يخلف العرب (والمسلمون) على الحجارة ما خلفته الأمم الأخرى . فأوان الحضارة العربية لم تنحتها من حجارة ، ولم تسجلها الصخور . بل سجلتها الأعمال الحية .

ويبدو هذا المعنى واضحاً من وراء الوعي ، في قول عمر بن عبد العزيز لرجل كتب يستأذنه في بناء سور للمدينة حين قال : « حصن مدينتك بالعدل » . وكم من سور يزوره السائحون وهو مبنى على أساس من الظلم والجور ، ويمتد أثر هذا المفهوم إلى الفن الإسلامي كله .

يقول الدكتور العجيلي : إن فن العمارة العربية لم يتميز بالضخامة والرسوخ . بينما يتميز بالجمال والدقة وخفة الظل ، فهو لم يقصد به بأنه يطاول الدهر ، وإنما أريد به أن يكون متعة للعين والروح .

***

ومعنى هذا غلبة المعنويات على الماديات في طابع الفن والبطولة . ويصل هذا المعنى إلى غايته بالقول بأن الذوق الإسلامي العربي لم يتعلق بالتصوير كفن من الفنون الجميلة . لأن الروح الإسلامية لا تميل إليه ، ولأنه لا يتفق مع فطرتها التي تجد مجالها الفني في « الكلمة » وليس هذا مفهوم الذوق العربي وحده ، ولكنه في الحق إنما يمثل مفهوم الفكر الإسلامي الأصيل المستمد من جوهر الإسلام والقرآن أصلاً ، وربما أخذ به العرب وعمقوه ، وإن تخلف في أحزاء أخرى نتيجة غلبة الفلسفات الوثنية السابقة للإسلام . والفن الذي تعلق به العرب وأخلصوا له قبل نزول القرآن الكريم هو الشعر ، لأنه أرضى رغبتهم في الحيوية والاستثارة . وجاءت الموسيقى إمتداداً للشعر ، واتصالاً به . والفارق بينهما هو الفارق بين السذاجة والترف .

وجملة الرأي أن الطابع العربي الإسلامي في الفن والحضارة هو طابع الحيوية والروح العلمية ملخصاً في كلمات قليلة .

« أعمال خالدة لآثار خالدة » .

***

ولقد حرر الإسلام مفهوم البطولة من الأسطورة ، كما حرره من وثنية التكريم . وذلك أن الإسلام قد ضرب قاعدة من أعظم قواعد تقدير البطولة في العصور السالفة . تلك هي فكرة « عبادة البطل » أو تأليهه أو وضعه في مصاف القدرة الخارقة . فالبطل في الإسلام ليس مقدساً ، ولس أسطورياً .

والمثل الأعلى في البطولة الإسلامية هو النبي **صلى الله عليه وسلم** . المؤ يد بالوحي ، والذي لا ينطق عن الهوى ، ومع ذلك فقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع أن النبي بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ويتوفاه الله ، وأن مفهوم الخلود الجاهلي والوثني لا ينطبق عليه . وإنما الخلود خلود الأعمال والبطولة بطولة الأعمال .

***

ولقد رفض الإسلام تأليه النبي تحريا لمفهوم التوحيد والإيمان بالله الواحد الذي له وحده حق العبودية والقداسة والاستعلاء الذي لا يصل إليه البشر .

ومن هنا : فقد حارب الإسلام مفهوم « عبادة الفرد » أو الغلو في تكريمه ، أو الإسراف في تقدير ذاته وجعل البطولة كلها ، والتكريم كله للعمل وحده .

وبذلك حرر النفس الإنسانية من عبادة الفرد ، ومن الوثنية التي صنعت عشرات الآلهة ، وأنصاف الآلهة في الأمم الوثنية ، وخلقت عبادة الأصنام والأوثان .

***

وأنكر الإسلام المبالغات التي كانت تضفي على البطل من ميزات خارقة ، أو صفات عالية تفوق قدرات الإنسان الطبيعية ، وكلها تدخل في نطاق الأساطير .

وقرر الإسلام أن هذه النظرة إلى الإنسان البطل تجافي الحقيقة ، فإنه من المستحيل على الفرد مهما أوتي من قدرة وفطنة وذكاء أن يكون له نفوذ الإله القادر الذي له وحده مقاليد الأمور . ولقد ارتبطت عبادة الفرد في بعض الأمم بالعبودية التي كانت تتيح للملوك والسادة والأمراء حق التصرف بالاستغلال والموت والبيع للعبيد ، الذين تحت إمرته .

هذه العبودية التي انتشرت في العالم القديم (بابل وأشور) . وسمرفند ومصر . والهند والصين . ثم بلغ هذا النظام العبودي أوجه عند الإغريق في القرن السادس ، ووصل في روما إلى أقسى صورة قبيل ظهور الديانة المسيحية .

وقد دافع فلاسفة اليونان الكبار عن هذه العبودية ، وأقرها أكبرهما (أرسطو وأفلاطون) ودافعا عنها دفاعاً حاراً .

وقد بلغ عدد العبيد في روما عشرون مليوناً مقابل **٢١٤** ألف مواطن حر . وكان في أثينا أربعمائة ألف عبد ، بينما يبلغ سكانها الأحرار **٢١** ألف مواطن ، وحيث قامت الحضارة الرومانية بمعابدها وأبنيتها الشاهقة على أساس العبودية . وكذلك الأمر في الزراعة ، حتى توفي الامبراطور أوغسطس عن أربعة آلاف

عبد . وقد حطم الإسلام مفهوم العبودية . ودعا إلى الأخوة والمساواة ، وحرر معها مفهوم البطولة الذي كان مرتبطاً بالمفهود العبودي.

ولقد أعطى الفكر الغربي لمفهوم البطولة صوراً مختلفة منها: العبقري العظيم النابغة والقديس والبطل وأجرى ماكس شيلر الفيلسوف الألماني مقارنات واسعة بين هذه المفاهيم.

وجرت مناقشات واسعة حول التاريخ وصانعيه : واختلفت نظرية الغربيين الليبراليين أصحاب مفهوم الديمقراطية والفردية عن مفهوم الماركسيين الاجتماعيين أصحاب مفهوم التفسير المادي للتاريخ ، وانقسم الرأي حول مفهوم توماس كارليل الذي أورده في كتابه : (الأبطال وعبادة الأبطال) وبين مفهوم نيتشه الذي تحدث عن الإنسان الأعلى ، ومنه صدر مفهوم التفسير المادي .

أما عباد البطولة فيقولون : إن التاريخ في جوهره عبارة عن سير العظماء . وأن التاريخ من صنع العباقرة ، وأن العظيم هو البطل الذي غير مجرى التاريخ .

***

ويرى أصحاب نظرية التطور : أن التاريخ سلسلة من الحوادث ، وأن العظماء نماذج للبيئة التي يعيشون فيها . وأن الظروف التي تخلقهم . وأبرز رجال النظرية المادية في البطولة : (هوبرت سبنسر) الذي يقول : إن الإنسان خاضع لمحيطه ، ويتطور بتطوره ،وأن التطور المادي هو أساس المجتمع ، وكلا الرأيين مسرف في اتجاهه مغال في تقديره للبطولة أو ضدها ، ومفهوم الإسلام للبطولة أقرب إلى الصدق والاعتدال . فالإسلام لا يعطي البطل كل هذا التقدير ، ولا ينكر أثره في المجتمع ، ولكنه يرى أنه من صنع المجتمع ، وثمرة له ، ثم هو مغير للمجتمع ، وأن البطولة ترتبط بإنكار الذات ، وبالقيمة الأخلاقية .

وقد حاول الأساذ (أرمان) أن يتحدث عن بطولة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في هذا المجال فقال : لقد أخفقت محاولاتي الكثيرة لإيجاد مؤ رخ واحد يستطيع البرهنة على أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم . كان وليد الحالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تسود الجزيرة العربية في القرن السابع

بعد الميلاد ، ولم أجد بين المؤ رخين أيضاً من يقدر أن يقول : لو لم يبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم لكان من الطبيعي أن يستعاض عنه بشخص يقوم بنفس المهمة التي اضطلع بها .

***

فقد قام محمد صلى الله عليه وسلم بأعمال خارقة حين جعل أبناء الصحراء أمة تمكنت من المحافظة على المدينة ، وقدمتها إلى نصف أرجاء المعمورة .

وقد رسم القرآن الكريم صورة للبطولة تحدد مفهومها : فكل الأبطال الذين عرضهم القرآن : أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ، ولا يحنون رؤ وسهم للعدوان ، ولا يخافون بل يقفون دائماً موقف الصمود والمقاومة مرفوعي الرؤ وس .

فقد كانت رسالتهم دائماً هي رسالة التقدم والبناء . ومن هنا فقد عجزت قوى العدوان عن أن تقتلعهم أو تنتصر عليهم ، وكانت المقاومة عندهم إيماناً من أعماق النفس ، وسلاحاً في اليد يعملان معاً في اقتناع كامل بأنهم أصحاب رسالة .

لقد كان البطل دوماً في مفهوم الإسلام : « إستجابة » لحاجة المجتمع والأمة ، وفق نواميس تكوينها التي قامت عليها ، ينبعث في وقت الأزمة من أعماقها ، ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ويقود أتباعه إلى مرحلة جديدة من مراحل العمل فوق موجة من موجات التقدم .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وسيظل ـ النموذج الإسلامي الأعلى للبطل ، وكانت صورته دائماً وتجربته وعلمه موضع القدوة والأسوة طوال فترات التاريخ الإسلامي ومراحله ، وما يزال حتى اليوم موضع القدوة عند كل بطل وقائد . فهو الذي كان إذا اشتد البأس اتقى الناس به ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، وهو الذي وجده الناس عائداً من مصدر الصوت الذي أفزع المدينة على فرس عرى ، عندما خرجوا يلتمسون الخبر ، وهو الذي وقف في (حنين) كالطود بعد أن تفرق أنصاره على إثر هجمة مفاجئة من العدو ينادي الناس . (إليّ

إليّ . .) وهو الذي كان يفرق دائماً بين موقفه في الغار ، ولا قوة معه يلتمس نصر الله ، وموقفه في بدر ومعه القوة ، وحيث توجد القوة فهو وجل أن يكله الله إليها ، فهو يلتمس من الله نصراً مجرداً من الأسباب ، وهو البطل الذي لم تذهله الأحداث . والقائد الذي لم يهزم قط ، وقد كون بمكة خلال ثلاثة عشر عاماً جيلاً من القادة المغاوير . رباهم على البطولة والإيمان والتضحية ، فكتبوا صفحات بارعة من المجد ، وظل هذا الرعيل موضع إعجاب الأجيال المتوالية .

ولقد استمد المجاهدون الأبطال من الرسول أبرز مفاهيم البطولة ، وسر عظمة صلاح الدين ، ونور الدين التماسهما من روح النبي ومفاهيمه وأسلوبه ، وهو نفسه مصدر النصر الذي حققاه .

ما تزال هناك فوارق عميقة حول الشخصية والقدر ، الفكر الغربي الذي يستمد مقوماته من وثنية اليونان والرومان في ضوء هذا المفهوم تقوم المأساة التي تفرض الصراع بين الإنسان والإله ، والتي تنتهي دائماً بهزيمة الإنسان . ولا شك أن هذا مفهوم وافد ، ومناقض تماماً لمفهوم الإسلام في البطولة وفي علاقة الفرد بخالقه الرحيم .

ويحاول الفكر الغربي أن يفرض على المسرح والقصة والبناء الفني للأبطال مفهوماً يقوم على أساس انتهاء القصة أو البطولة بمأساة او فاجعة ، ويقوم هذا التقدير الفني والنهاية الحتمية لكل قصة بطولة على أساس مفهوم وثني إغريقي قديم مصدره ما حاولت الآداب اليونانية من افتراضه من صراع بين الآلهة وبين الإنسان ، وهو افتراض يستمد وجوده من تاريخ طويل يقوم على أساس الأساطير ، وتقديس الأبطال ، وعبادة الفرد ، وتحويل بعض الأبطال القدامى إلى آلهة وأنصاف آلهة ، وما يتصل بذلك من توزيع الإختصاصات بين الآلهة ، فمنها آلهة الحصاد ، وآلهة الجمال ، وآلهة الخمر ، وغير ذلك مما تزخر به الأساطير اليونانية التي اتخذها الأدب الغربي الحديث أساساً له ومصدراً .

***

وقد أضيف إلى ذلك محاولة تصوير حياة بعض الأنبياء على هذا النحو من وقوع المأساة والقتل ، وهو ما يسمى نهاية الصراع بين القدر والإنسان والمفترض أن

---

(١) التراجيديا تعبير فني غربي عن ما يسمى في القصة « المأساة » وهي عكس الملهاة .

يسقط الإنسان في هوة المأساة والهزيمة . وقد جرت محاولات في الأدب العربي الحديث لإدخال هذا المفهوم إلى المسرح العربي ، وعمد بعض كتاب القصة إلى إخضاع البطولات الإسلامية ، والشخصيات العربية لهذا المفهوم ، وجملة ما يذهبون إليه يتعارض مع مفهوم الإسلام والثقافة العربية ، ويتعارض مع طبيعة الفكر الإسلامي ، والمزاج النفسي العربي الذي كونه القرآن الكريم ، وقام على أساس الإيمان بالله وعقيدة « القدر » بوصفها قوة دافعة ، أما المفهوم الغربي الذي يقوم على أساس عجز الإنسان أمام القدر ، بمعنى أن الإنسان دائماً في موقف المغلوب ، وأن الإنسانية واقعة تحت ضغط قدر لا يرحم .

***

هذا المفهوم لا يعرفه العرب والمسلمون ، واستمدادا من مفاهيمهم وقيمهم المستمدة من الدين الإلهي ، والإسلام لا تقر هذا ، ولا تعترف به ، ومن المستحيل أن رابعة العدوية ، أو السيد البدوي كانا يؤمنان بهذه المفاهيم التي حاول بعض كتاب القصة إخضاعها لنظرية غربية وثنية : نظرية الصراع بين الإنسان والقدر . ذلك لأن الإسلام حرر الروح الإنسانية من هذه المفاهيم الوثنية الجاهلية . بل لقد دحض الآسلام نظرية « الخطيئة » التي حاولت الأساطير ان تربطها ببعض الأديان أو بعض الأنبياء . ذلك لأن خطيئة آدم إنما كانت خطيئة ذاتية تتعلق به وحده . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في إفاضة ووضوح . وقرر أن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا صلة مطلقا بين خطيئة آدم وبين الناس . وأن الفكر الإسلامي لا يؤمن بانسحاق الإنسان . بل بكرامته وسيادته تحت حكم الله ، ولا يقر مفهوم الصراع الذي ينتهي بضياع البطل .

وقد واجه كثير من الباحثين هذه النظريات الوافدة التي يلتقى فيها مفهوم البطل بين اليونانية واليهودية والمسيحية الغربية ، وهو فكر مستمد من نظرية الخطيئة الأصلية . وقد أشار إلى هذا المعنى . الدكتور شكري عياد في معرض مناقشة بعض المسرحيات التي اتخذت هذا المفهوم الوافد فقال : « نرى أن هناك أسبابا اساسية في نظرتنا الى الحياة تجعل شخصية البطل التراجيدي ، كما يعرفها

الأدب التمثيلي الغربي بعيدة عن إحساسنا الأصيل بحيث إننا قد نستمتع بمشاهدتنا ، ولكن لا نستطيع أن نخلقها وقرائنها في أدبنا خلقاً .

***

ومفهوم التفكير (عن الذنب) موجود في تراثنا . ولكنا نلاحظ أن فعل التفكير لم يستعمل في القرآن الكريم إلا مستندا إلى الله . (ويكفر عنكم سيئاتكم) .

ونفهم من ذلك أن الله يمحو ذنب الإنسان التائب ، وفي تراثنا كلمة هامة هي كلمة « العصمة » . والفقهاء يقرون عصمة الأنبياء من الذنوب في نفس الوقت الذي يجمعون فيه على أنهم بشر ، وكل إنسان يجب أن يلجأ إلى الله : (ومن يعتصم بالله فقد هُدَىِ إلى صراط مستقيم [1] .

والنتيجة هي اننا في نظرتنا إلى الحياة يمكننا أن نفهم الضعف والجريمة ، ولكننا نفهم أيضاً أن الإنسان يجاهد ضعفه أو ميله إلى الجريمة جهاداً مستمراً . وأن هناك قوة عليا تسنده في ذلك . ونحن نشترك مع البشر جميعاً في إعتقادنا أن العقاب الذي ينزل بالخاطيء هو كفارة او تكفير عن ذنبه ، إلا أننا نعطي قيمة كبيرة لجهاد النفس ، ونرى أن القوة العليا تكون دائماً قريبة منا في هذا الجهاد .

***

وهذا التصور للذنب أو الجريمة من الناحية الروحية تختلف إلى درجة كبيرة عن التصور الغربي الذي لا يزال مرتبطاً بتراث اليونان ، كما نراه في تراجيدياتهم .

فالتراجيديات اليونانية حين تصور لنا سقطة البطل تفترض أن هناك صراعاً بينه وبين القدر ، وبينه وبين نظام الكون الذي لا يفهمه ، أولا يسلم به دون فهم ، إلا حين يرى هلاكه .

ولهذا تكون سقطة البطل في التراجيديات اليونانية شيئاً نابعاً من إنسانيته

---

(١) سورة آل عمران من آية ١٠١ .

نفسها راجعاً إلى إستعماله لعقله وقوته كشأن « أوديب » الـذي حاول بكل ما في الطاقة الإنسانية أن يتجنب الوقوع في المحظور ، ولكن قضاء الآلهة « اليونانية » نفذ في آخر الأمر ، وكان ما لا بد أن يكون . ذلك هو البطل اليوناني . أما البطل المسلم فهو أكثر وعياً بالنسبة إلى دوافعه ، وأعظم إيماناً بالقدر ، ولا أظن أن ذلك راجع إلى أننا نتجاوز عصر الملاحم بعد . ففي كل أطوار حضارتنـا بارتفاعاتهـا وانخفاضاتها لم نتصور الإنسان قط على أنه محكوم عليه بالخطأ ، وإنما تصورنـاه مركزاً لصراع متسمر بين الخير والشر . وهو ميدانه ، والقابض على السيف فيه ، ولم نتصور صراعه مع القوى الخارجية إلا نتيجة لهذا الصراع الداخلي وتحقيقا له[1] .

***

ولا شك أن القصة التراجيدية أو المسرحة وفق المفهوم الغربي تصادم النفس العربية الإسلامية من ناحيتين .

(الأولى) من ناحية الصناعة والتلفيق . فالنفس العربية الإسلامية تؤمن بالواقع ، والواقع يؤكد أن عشرات من الأبطال لم تنته حياتهم بالمأساة . إذ أنهم لم يصادموا الأقدار . بل كانوا مثالاً عالياً للرحمة والعطاء ، وقـد استطاعـوا أن يقدموا لأمتهم إضافات جليلة ، وحققوا أعمالا باهرة .

(الثاني) هو قسر القصة على ان تنتهي بالهزيمة : فشرط المأساة (وهي عمل فني) وليس صورة واقعة من الحياة أن ينهزم فيها الباطل دون الحق ، وأن يهوى الإنسـان الـطيب وينتصر الشرير على حد عبـارة مؤلف كتـاب المصطلحـات الأجنبية .

والواقع أن القصة في مفهوم الأدب العربي ، وفي منطلق الحياة نفسهـا ، ووفق مقاييس الحق والعدل الإلهي لا بد أن تنتهي بإنتصار الحق وسقوط الباطـل والشرير ، وأن هذا المفهوم الذي فرض على المأساة والمسرح الغربي إنمـا يستمـد وجوده من بروتوكولات صهيون التي ترمي إلى خلق جو دائم من التدمير ، وإعلاء قيم الشر والباطل ، وانتصارهما في وجه الحق والخير .

---

(١) عن بحث له مجلة الثقافة ١٩٦١

ولا شك أن خضوع الأدب الغربي الحديث لهذا المفهوم يعد مجافاة حقيقية للواقع وللصدق ، ومعارضة أكيدة للنفس الإنسانية في نظرتها وأصالتها التي تلتمس دائماً الخير والضياء والحق . وأن محاولة دفع المفاهيم الوثنية الإغريقية إلى القصة والمسرح ، وإعلاء طابع الطقوس والموسيقى الجنائزية ، والصيحات المحدودة والاستعراضات الصاخبة . كل هذا مهما بدا في ظاهره مثيراً . فإن النفس الإسلامية العربية تصد عنه ، ولا يجد لديها تقبلاً .

ولا شك أن المزاج النفسي العربي بطبيعة تكوينه في ظلال المسجد ، وهتاف الله أكبر ، والآذان قد شكل لنفسه جرساً خاصاً يستريح له ، ويجد في سماعه طمأنينته المتصلة بالله خالق الكون كله .

هناك فوارق دقيقة بين المصطلحات ، تحاول أن تنفذ منها دعوة التغريب لإفساد المفاهيم الدقيقة في الفكر الإسلامي. من أبرز هذه الفوارق ما بين النبوة والعبقرية . فقد جرت مجادلات لتصوير الأنبياء بالبطولة أو الزعامة أو العبقرية . وهي محاولات تحاول أن تخرج هذه الشخصيات التي تستمد وجها من السماء ، تحاول إخراجها عن حقيقتها وجوهرها .

خطران واجها سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ،ويواجهان سيرة كل نبي مرسل مؤ يد بالوحي ، هذان الخطران هما : التفسير المادي للتاريخ ، والتفسير النفسي للتاريخ ، وكلاهما يستمد مصادره من الفلسفة المادية التي تنكر عالم الغيب كله بما فيه من نبوءة ووحي ورسالات سماوية .

ومن هنا فإن الاعتماد على كلا المنهجين أو أحدهما إنما يخرج سيرة النبي من أعظم مصادرها ، وينكر أبرز مفاهيمها ، وأقوى عوامل الإعجاز فيها . وبذلك لا ينكشف على وجه الحقيقة جانب القوة غير الطبيعية التي ما زالت موضع دهشة بعض الباحثين والمستشرقين ، والتي حققت انتشار الإسلام وتوسعه في أقل من مائة عام . وبدون هذه الجوانب التي تتخطاها الفلسفة المادية ، ومذاهب التفسير المادي ، والتفسير النفسي للتاريخ لا يمكن الكشف عنها او إبرازها .

وخطأ آخر هو : مساواة شخصية النبي عليه الصلاة والسلام المؤ يد بالوحي بشخصيات الصحابة ، وهم ليسو على درجة واحدة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ولن يكونوا . فهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ، وهم

رجال يخطئون ويصيبون . ومن هنا فمن غير المنطق الصحيح إطلاق عبارة العبقرية أو البطولة أو العظمة الإنسانية على النبي وعلى الصحابة بدرجة متساوية . أو أن تدرس حياتهم جميعاً في نطاق واحد . ومن هنا تختلف النبوة عن العبقرية ، وتختلف النبوة عن البطولة ، والعظمة الإنسانية في جانب جوهري ضخم هو جانب « الوحي » ، وفي تقرير الباحثين أن ما بين النبوة والعبقرية واسع ، وعميق . ذلك أن النبوة تقوم على الوحي والإخبار عن الله تعالى . أما العبقرية فهي في تقدير الباحثين نوع من الإلهام والذكاء والبراعة ، وربما وصف عمر بالعبقرية على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقد كان محدثون ، فإن يكن من أمتى أحد فإنه عمر بن الخطاب) . أما الأنبياء فلا يوصفون بذلك .

والمحدثون هم الملهمون في إصابة الحق والصواب في حل المعضلات . ومن الخطأ أن يوصف النبي بالعبقرية أو بالزعامة السياسية ، أو بأنه رسول الحرية ، أو بالبطولة ، فإن هذا كله إنما يعني التماس تفسير مادي دنيوي لأعمال الرسول . وذلك يجردها من طابعها الجامع بين شخصية النبي وقدراته الفائقة كبشر ، وبين تأمين الوحي له ، وتوجيهه كرسول ونبي مرسل من عند الله . (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ [1]) .

ولقد كتب كثير من المستشرقين وكتاب الغرب عن النبي محمد على أنه بشر عظيم ، ومصلح كبير ، وبطل عبقري ، وتابعهم بعض كتابنا في هذا الاتجاه دون أن يستطيعوا الالتفات إلى الفوارق الضخمة بين النبوة والبطولة .

***

ومصدر الخطأ في الكتابات أن أصحابها التمسوا مناهج الغرب في دراسة التراجم والشخصيات والاعلام ، وأنهم أقاموا دراساتهم عن الرسول وفق أسلوب غربي وضعه الباحثون في الغرب لدراسة اعلامهم . وأبرز هذه المناهج هي أسلوب لومبروزوا ، وأسلوب أميل لدوفيج ، وكلاهما يصدران عن الفلسفة المادية ، وينكران النبوات ، ولعل أبرز مفهوم لعظمة نبوة محمد النبي ، والفارق

---

(١) سورة الكهف من آية ١١٠ .

بينهما وبين البطولات والعبقريات . إنما يمثل في حوار أبي سفيان، والعباس بن عبد المطلب حين وقف أبو سيفان ينظر إلى جيش المسلمين ، وهو يشق طريقه إلى مكة فقال :

يا عباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً .

وأجاب العباس في سرعة وفهم وعمق : إنها النبوة يا أبا سيفان .

ولا شك أن الإسلام منهجه الصريح الواضح المستقل في دراسة الإعلام ، وفي فهم البطولات ، وهو فهم يقوم على أساس من أصوله الواضحة الصريحة ، والتفرقة الواضحة بين أوليائه وخصومه .

***

فلا يستطيع الباحث المسلم أن يسلك في منهج واحد شخصيات مختلفة لمجرد أن لها أسماء لامعة دون ان يكون الإسلام هو الفيصل في تقدير هذه الشخصيات وبطولاتها .

وأخطر المناهج في تفسير البطولات الإسلامية والنبوة هو المنهج الفلسفي الذي يستمد أصوله من الفلسفة المادية . ذلك أن للقرآن منهجاً واضح الدعائم والدلائل يمكن أن يطبق على كل ما يتصل به من تاريخ أو بطولات . أما منهج الفلسفة في تفسير الإسلام وبطولاته ، فهو منهج غير مؤهل . ذلك لأنه يعمل في غير ميدانه ، ومقاييس الأمور بأقيسة عاجزة عن أن تصل إلى أبعاد القضايا التي يتصدى لها .

ذلك لأنه منهج يقوم على المعرفة المادية الحسية العقلية التجريبية ، وهي ليست في منهج المعرفة الإسلامي إلا شق واحد . أسلوب متكامل يرتبط فيه العقل والقلب ، والحس والوحي ، وعالم الغيب ، وعالم الشهادة . أما خطأ مدرسة بومبروزو في تقييم البطولات والشخصيات ، فإنها ترد عظمة العظماء إلى ملكاتهم الممتازة وحدها . فالملكات الممتازة في الأفراد هي مفتاح تفسير هذه البطولات .

وهذا المنهج الذي اعتمد عليه بعض كتاب التراجم والعبقريات لا يقل عن التفسير المادي للبطولة فساداً واضطراباً .

وهو عاجز حقاً عن أن يفسر بطولة أبي بكر وعمر وخالد وغيرهم . ذلك أن العقيدة الإسلامية قد حولت هذه الشخصيات ، وأجرت تغييراً كبيراً في مفاهيمهم وتصورهم للأمور وتقديرهم للقيم . وقد استطاعت أن تخلق هذه الشخصيات خلقاً آخر في ضوء التوحيد والحق والعدل والإيمان والأخلاق . وقد أخرجتها عن جلدها القديم في سلكوها وتفكيرها ومزاجها النفسي والاجتماعي .

ويظهر ذلك جلياً في ذلك التحول الخطير الذي طرأ على عمر وخالد وغيرهم . فقد تعارضت مقاييس الإسلام مع مفاهيمهم القديمة تعارضاً تاماً في كثير من الأحيان ، فاختلاف الولد مع أبيه ، والأم مع ابنها . بل قتل الأخ بعد إسلامه أخاه أو أباه الذي كان على الشرك . وطلب المسلم من النبي عندما علم أن الإسلام قد أهدر دم أبيه أن يسمح له بقتل أبيه ، ويظهر ذلك التحول واضحاً في موقف الخنساء التي كانت تثير الدنيا لموت أخيها صخر في الجاهلية ، فإذا بها بعد الإسلام تقدم أربعة هم أعز أبنائها ، وفلذة كبدها إلى الشهادة فرحة باستشهادهم ، راضية نفسها بنصر المسلمين .

***

ومن الحق أن التكوين الموروث ، وطبائع النفس وملكاتها عنصر هام من عناصر الشخصية ، ولكنه لا يستطيع وحده في مفهوم الإسلام وفي بيئته أن يفسر الشخصية ، أو يلقي الضوء الحقيقي على تصرفاتها . وأن الاعتاد على الملكات النفسية وحدها يحجب جانباً هاماً هو دور العقائد والتربية ، وينكر أثرها في توجيه الأشخاص ؛ ولا شك أن التربية الإسلامية التي أقام الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه وأتباعه عليها ذات أثر كبير في التشكل النفسي والعقلي الجديد لهذه النماذج من أصحابه الذين كتبوا صفحة جديدة في مفهوم البطولة يختلف في مضمونها وتفسيرها عن البطولات الأخرى ، والتي تعجز المناهج الغربية في تفسير البطولة عن استيعابها .

أما مذهب (أميل لدوفيج) فهو مذهب بعيد كل البعد عن الأصالة والفطرة ، وهو واحد من هذه المذاهب التي أقامتها الصهيونية العالمية لتحريف

البطولات وتدميرها ، وهو حلقة في تلك الأيدلوجية الطاغية التي عمدت إلى تعرية البطولات وتفريغها من العظمة والكرامة .

ويعلن (أميل لدوفيج) في وضوح أنه يضيف من الخيال ، وأن يتكىء على جوانب الحب والغرام ، وأنه يعول على سحق الوجوه وسمات الأجسام ، وعلى الفراسة ، ويقول : [تستطيع [1] أن تكتب قصة تاريخية عن الجندي ، وتسرد إلى جانب حروبه وفتوحه حادثة من حوادث الغرام والعشق ، وعند ما أبدأ سيرة أحد المشاهير (جيتي أونابليون) مثلاً . فإني لا أعنى بفلسفة الأول ، أو انتصارات الثاني . بل أفحص صورة كل منهما ، وأقرأ خطاباته ، وأعرف حوادث عشقه ، أو أحاديث المرأة التي كان يحبها . فإن في فسيسفاء غرائزه وأهوائه الرفيعة والوضيعة التفسير الصحيح لشخصيته] .

ويقول : حاولت أن أثبت أن الطباع البشرية واحدة . أي أن طباع الرجل العظيم ، وطباع راعي الغنم واحدة متشابهة .

ويقول : أنا أثبت أن العظماء إن هم إلا مثلنا في أكثر الأشياء ، وليسو خلائق أرقى خيراً كما يبدو لبعض الناس .

ومما فهمه محدثة : أنه يولي اهتمامه بأماكن الضعف والحقارة في طباع العظماء وأعمالهم ، وأنه يحاول أن يقرر أن عظماء الرجال ليسو إلا بشراً في كل شيء ، وأن الفروق التي تفصل بينهم وبين غيرهم من الأوساط العاديين هي فروق لا تمس الجوهر .

ولا شك أن مفهوم لودفيج مستمد من مفهومين واضحين : هما : التفسير المادي للتاريخ ، ونظرية فرويد في إعلاء الجنس والغرائز البشرية ، وهو امتداد لهما في محاولة لتدمير كل الاعلام الذين وضعهم التاريخ الاوروبي موضع التقدير والإعزاز ، وأنه معارضة كاملة لمفاهيم ومذاهب تقدير البطولة والعظمة الإنسانية .

وبعد : فإن كلا المذهبين (مذهب لمبروزو ، ومذهب لدوفيج) ، مختلف كل الاختلاف عن المفهوم الإسلامي للتاريخ والبطولة . هذا المفهوم الذي يعلي

---

(١) محمد عشرى الصديق في محادثة خاصة معه (يناير ١٩٣٠) .

شأن الأعمال ، والذي يفرق بين النبوة والعبقرية .

وقد عرض الدكتور محمد أحمد الغمراوي لهذه التفرقة فقال : إن محاولة وصف محمد صلى الله عليه وسلم بأنه عبقري من العباقرة هي محاولة توحي بأنه لا نبي ولا رسول بالمعنى الديني المعروف في الأديان المنزلة ، والناشىء الذي يقرأ بعد عبقرية محمد : عبقرية أبي بكر . وعبقرية عمر مثلاً لا يمكن ان يسلم من إيحاء خفي إلى نفسه أن محمداً وأبا بكر وعمر من قبيل واحد . عبقري من عباقرة ، وإن يكن أكبرهم جميعاً كالذي سمى النبي صلى الله عليه وسلم (بطل الأبطال) فأوهم أنه واحد من صنف ممتاز من الناس ، متجدد على العصور . بدلا من صنف اختتم به صلى الله عليه وسلم ، صنف الأنبياء والمرسلين من عند الله .

« فالنبي والرسول يأتيه الملك من عند الله من وحي ، ومن كتاب. وليس كذلك العبقري ، ولا البطل . فالنبوة والرسالة فوق البطولة والعبقرية بكثير ، وكم في الصحابة رضوان الله عليهم من بطل ومن عبقري ، وكلهم يدين له صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله إلى الناس كافة في ذلك العصر وما بعد وأنه خاتم النبيين » اهـ .

***

أما محاولة تصوير النبي المرسل المؤيد بالوحي بأنه (رسول الحرية) . فإنه يستهدف إنكار الوحي والنبوة والرسالة ، ووضع النبي صلى الله عليه وسلم في صورة بطل ظهر في أمة . فاستطاع أن يقودها ويجدد حياتها ، ويصلح مجتمعها .

وتنطلق هذه النظرية من مفهوم النظرية المادية ، فهي تتجاهل النبوة والوحي ، وتقوم على أساس المنهج الغربي في فهم البطولة . ويحاول أصحاب هذا المنهج تجاهل كل ما أيد الله به رسوله من أمور غير معتادة ، ويجرون مجرى المستشرقين في الادعاء الباطل بأنه صلى الله عليه وسلم تلقى من بشر أو عامة بشر ، وأنه أخذ من الرهبان والاحبار ، أو أنه كان يعد نفسه قبل البعثة لقيادة أمته ، أو أن الوحى كان مناماً . وأن الإسراء كان حلماً من الأحلام .

والواقع أن هذه الشبهات جميعاً إنما تصيدها خصوم الإسلام من الأساطير

والإسرائيليات التي جرت محاولات ضخمة لإضافتها ، والتي قامت المناهج العلمية في تحقيق الحديث والسنة على تحريرها منها .

ولقد تأثر كثير من الكتاب الذين اتصلوا بالفكر الغربي بمفاهيم الماسونية ، فلما عادوا لينظروا في سيرة الرسول لم يستطيعوا أن يحرروا أنفسهم من الطابع « المادي » أو « الوثني » أو من مفهوم الحرية الغربي . وغاب الفهم عنهم الفارق العميق بين النبوة من ناحية ، وبين البطولة أو العبقرية من ناحية اخرى مما دفعهم إلى تفسير البطولات الإسلامية بمذاهب الغرب ، ورد عظمتهم إلى الملكات الموروثة . بينما خلق الإسلام هؤلاء خلقاً جديداً . ذلك أن هناك فوارق عجيبة بين حياة هؤلاء الأعلام ، وتكوينهم النفسي والإجتماعي قبل التقائهم بالنبي ، وبعد أن صاغهم صياغة جديدة وفق مفهوم القرآن ، وعلى هدى التوحيد الخالص ، وفي ضوء الأسوة الحسنة (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة [1]) إن الذي صاغ هذه النفوس هو مفهوم (العقيدة الإسلامية) وليس مفهوم الملكات الموروثة ، أو مفهوم البطولة السابق للإسلام ، وهو مفهوم كان يقوم على الاستعلاء والفخر . ولا شك أن العقيدة قادرة على أن تغير النفوس وتصوغها من جديد . وفي هذا ما يعارض رأي بعض القائلين بأن المجرم إنما هو مجرم نتيجة غرائزه وأعصابه وملكاته . ولذلك فهو لا يعاقب ـ هذا المفهوم الذي يعارضه الإسلام معارضة واضحة ، ويكشف في سيرة هؤلاء الأعلام كيف تحولت شخصياتهم ونفسياتهم بعد الإيمان بالله . وأصبحت خلقاً جديداً .

أما بالنسبة للأساطير ، فقد جرت محاولات جريئة في العصر الحديث لإعادة إدخال الأساطير إلى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بعد أن كانت مهمة المصلحين والعلماء على طول التاريخ تحرير الفكر الإسلامي منها وإقصائها عنه .

وقد حاول بعض الكتاب تجديد هذه الأساطير ، وبعثها وإضافتها إلى السيرة أو وضعها على هامشها ، وذلك بعد أن اندثر هذا اللون من الأدب ، ونقيت السيرة النبوية منها ، كما عمل الكثيرون على الكشف عن هذه الإسرائيليات في تفسير القرآن المختلفة .

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٢١ .

وقد كان الهدف من هذه الإسرائيليات في إقامة « مثيولوجية »[1] إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ، ولتشكيك المستنيرين ، ودفع الريبة الى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه ، وقد كانت هذه غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى ، واستمساك رجال الدين في بعض العصور بهذه الأساطير ، ورميهم من لا يؤمنون بها بالمروق والإلحاد هو الذي يسر رغبة الكثيرين عن هذه العقائد التي يفرضها العقل ، وإن اتهموا في إيمانهم . ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في مختلف العصور ، وارتفعت صيحة الشيخ محمد عبده في العصر الأخير لتطهير العقائد من هذه الأوهام[2] .

والواقع أن الإسلام لم يعرف الأسطورة ، وكذلك الأدب العربي ، ولقد ساق المستشرقون والمبشرون حملة ضخمة على الفكر الإسلامي لخلوه من « الأسطورة » التي تعد في نظرهم فناً عالياً من فنون الأمم الراقية . ولقد كان الفكر الإسلامي والأدب العربي واضحاً صريحاً قادراً على الفهم والتعبير دونما حاجة إلى الظلال والرموز . ولذلك فلم يكن في حاجة إلى الأساطير ، أو إلى الرمزيات ذات الظلال والأضواء .

---

(١) المتيولوجيا : هو علم الأساطير ، أو ما يسمى بالأحداث الخارقة والخرافات وما غير التاريخ الصحيح .

(٢) الدكتور محمد حسين هيكل : راجع البعض بالكامل في كتابنا المعارك الأدبية .

ما هو مفهوم الإسلام للفن ، وما هو الفارق العميق بين هذا المفهوم ، وبين مفهوم الفكر الغربي . إن الإسلام يقر الفن ، ويعلي من قدره ، ويسمو به فوق كل زيف ، ولا يقر الكشف أو الإجابة ، ويربط قيم الفن بالأخلاق .

إن أبرز مفاهيم الإسلام هو التوازن بين الروح والمادة ، وتكاملها من أبرز مفاهيمه تقديم الخلقى على الجمالي ، وتقوم المفاهيم جميعها على أساس التوحيد ، وتدور في دائرة الحق والعدل وايمان بالله ، وتتخذ من الأخلاق طابعاً واضحاً ، وإطاراً شاملاً .

فالفنون لا تخرج عن أنها وحدة من الكل المتناسق ، وهي عنصر بناء يتلاءم مع العناصر الأخرى ، وترمي كلها إلى بناء الإنسان الرباني الإيجابي الذي لا يتحطم بالإسراف في الترف واللذات ، ولا يجمد بالإسراف في الزهادة والرهبانية .

وأخلاقية الفن التزام أصيل صادق ، لا تنفك عنه الفنون الجميلة والآداب ، والفكر الإسلامي لا يفصل بين الفنون وبين الأخلاق . بل يوائم بينها ، ويجعل الأدب والفن أخلاقياً وصادقاً في نفس الوقت . ذلك أن بناء الإنسان الفكري والمتصل بالذوق والحس لا ينفصل عن شخصيته كلها . ومن هنا فلا بد من التكامل بين الروحي والمادي . وبين الجمالي والخلقي .

ولذلك لا يقر الإسلام مفهوم « الكشف » في الفنون والآداب ، ولا التصوير القائم على الاباحة ، ويرتفع عنه ويتسامى .

ذلك أن هذا الاتجاه إلى الكشف والاباحة في الأداء الأدبي والفني يتعارض

مع طبيعة النفس الإنسانية ومزاجها الفطري ، وذاتيتها القائمة أساساً على الايمان بالشرف والعرض ، وإعلاء شأن الخلق والعفة ، ورعاية الأسرة التي تنحرف عن الأصالة، وتضطرب بانحرافها عن هذا المنهج .

***

وقد صور هذا المعنى الدكتور شاكر مصطفى في عبارة موحية حين قال : (القيم في ثقافتنا فوق الجمال وقبل الجمال ، حتى لتكاد الثقافة الإسلامية كلها تكون ثقافة القيم ، الإغريق جعلوا حتى الآلهة لغوا من الفن ، والحضارة الغربية منذ عهد النهضة أطلقت الجسم للعري ، وعبدت الجمال على حساب الخير ، أما نحن فنؤمن بالتوازن بين الروحي والمادي) .

(نحن مع ضباب الغيب ، ومن كثافة المادة على مدى واحد) .

(النرفانا غريبة عنا ، المادة ما ملكت منا الرقاب) .

(أبداً ما حجب ما وراء الوجود عنا الوجود ، ولا محا عالم الغيب عالم الشهادة ، روحيون روحية إيمان ، ماديون ما كانت المادة إنسانية أخلاقية) .

(ثقافتنا متصلة بالماضي العربي متصلة لا مكررة) .

(لدينا معشار للحشمة في السلوك والعاطفة ، ونطلب منه أن يكون ضابطاً لشهواته سمحاً كريماً) .

(والإحساس بالزمن لدينا وتر مشدود بين الأزل والأبد) . اهـ .

***

ومن هنا نجد التباين الواضح في مفهوم الفنون الجميلة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي الذي يعتمد مذاهب الفلسفة اليونانية في فصل الفنون والآداب عن الأخلاق . منذ أعلن ارسطو أن جمال الأدب لا يستند إلى الاخلاقية ، وإنما هو معنى منعزل لا شأن له بأية قيمة خارجية .

وليس كذلك الفكر الإسلامي الذي يقوم على التكامل بين الفنون والآداب والاجتماع والدين والحضارة . وقوام مفهوم الإسلام « أخلاقي توحيدي » يتسامى بالغرائز ، ويرتفع بالنفس الإنسانية إلى الكمال دون أن يبعد عن الواقع . وقد عُدَّ

الفن في نظر الفكر الإسلامي أداة تجميل الحياة ، ووسيلة الإسعاد الروحي والنفسي بتحرر الإنسان من أهوائه وغرائزه ودفعه في نظرة حرة إلى الكون والوجود . وما تزال النظرية العلمية في الفنون قريبة من مفهوم الإسلام ، وهي تعترف بأن حياة الفن قائمة على الضوابط ، وأن محاولة تحرير الفن من كل قيد لا يحقق عنصر الجمال ، وأن الحرية المطلقة ليست هي الجمال ، وأن الضوابط في الفن هي روح النظام . أما الحرية فهي منهج القبح ، وأن الفن له هدف وتصميم ، وأنه يعتمد على ملكة التنظيم ، ويستمد وجوده من الواقع والحقيقة ، ويخدم قيم المجتمعات ، وكل من يخلو من هذه المفاهيم لا يعد فناً .

ومعنى هذا أن النظرية الجديدة في الفن ، والمطروحة بقوة في مجال الفنون والآداب في السنوات الأخيرة هي نظرية تعارض الفطرة والذوق الإنساني بصفة عامة قبل أن تعارض مفهوم الإسلام نفسه . ولقد وجهت إلى الحركة السريالية وغيرها نقدات كثيرة ، ووصفت بأنها ليست فنًّا ، لأنها خرجت عن قواعد الفن ، فهي اخلاط من الصور ، وأشتات من الأحاسيس .

***

وقد شهد (تولستوي) ، بأن إعراض « الفن » عن تصوير العواطف المنبثقة من الإدراك الحسي الديني جعله يتجه إلى طلب المنفعة ، وأشار إلى أن المتع الإنسانية لها حدودها التي اقامتها الطبيعة . وقال : إن فقدان اليقين الديني قد أقفز موضوعات الفن ، وقصر الإستمتاع بها على طبقة محدودة من طبقات المجتمع .

وقد دارت مناقشات واسعة في مجال الفكر الإسلامي ، والأدب العربي الحديث بين النظرية الوافدة التي تقول بتقدير الفن لجماله فحسب ، وبين النظرية الأصلية التي تقول بأن تقدير الفن يقوم على أساس جماله وأخلاقيته معاً . ولا شك أن نظرية إطلاق الفن من كل القيود . هي نتاج من آثار الوثنية الدينية في صورها المتعددة . كذلك هي أثر من آثار الفلسفة الماسونية التي أنشأتها اليهودية العالمية في عصر التنوير الأوروبي . والتي تصدر لها رجال الماسونية الكبار . أمثال : فولتير ، وروسو ، وديدرو . ومن جاء بعدهم ، ثم كشف بروتوكولات صهيون عن الهدف منها في أكثر من موضع . وخاصة قولهم في البروتوكول الرابع .

إن لفظ الحرية تجعل المجتمع في صراع مع جميع القوى ، بل مع قوة الطبيعة . وقوة الله نفسها (جل الله وعلا) .

وإن سيطرة القوى اليهودية والصهيونية العاملية على الفنون ، هو أثر من آثار هذا التوجيه الذي يراد به هدم القيم الإنسانية التي جاءت بها الأديان .

***

ولقد أشار الكثير من الباحثين إلى (أدب المجون واللذة) الذي أصبح يتهدد الثقافات المختلفة ، والذي أصبح يؤلف جزءاً كبيراً من الفنون والآداب المطروحة في سوق الأدب العربي ، والفكر الإسلامي .

وقد حذر الكثيرون من المفكرين بمدى خطورة هذا اللون على الأخلاق ، وإفساده للذوق ، وكيف يراد (إنقاذ ذلك التيار إلى صلب التكوين العقلي والنفسي ، ليترك أثره السيء في صميم الأوضاع السياسية والاجتماعية) .

والمعروف أن مصادر هذا الأدب تتمثل في الفلسفات المادية التي (تبرر انتهاك حرمات العدالة ، والإنصاف ، والفضيلة على أساس الفكرة التي تقول بأن البقاء للأصلح ، والحق للقوة) والتي (تتكرر الروحانية التي هي عنصر أصيل في الثقافات الشرقية) .

وتحاول هذه المذاهب جميعاً (تجريد الأشياء من جميع القيم فاضلة كانت أم غير فاضلة ،وتفتيشها بمقياس الحالية الراهنة [1]) .

ولا شك أن هناك خلافاً واسعاً، وتبايناً أكيداً بين طبيعة هذه المجتمعات، وما تضطرم فيه من أحاسيس وعواطف ، وبين المجتمعات الإسلامية التي تشكلت أساساً ، والدين جزء منها ، والأخلاق رباطها الذي يربط مختلف القيم ، ويمثل جوهرها .

ومن هنا كان لا بد من الدفاع عن المقومات الأصلية للفكر الإسلامي ،

---

(١) من بحث الدكتور عمر حليق : الرسالة سنة ١٩٥١ .

والثقافة العربية ، وتحدي هذه التيارات الدخيلة .

***

وقد صور الدكتور محمد أحمد الغمراوي موقف الفنون من الحياة ، وتطابقها مع الإسلام فقال : « إذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة وجب أن لا تخالف أو تناقض دين الفطرة ، دين الإسلام في شيء ، فإذا خالفته في أصوله ، ودعت صراحة أو ضمنا الى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لمحاربتها ، وعاقت الإنسان أن يعمل بالفضائل التي جاء الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى في النفس والروح ، وإذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا . فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق ، ودابرت الخير ، وأخطأت الفطرة » .

هـل بـين الأجيال صراع أم لقـاء، إن هنـاك محـاولات تفرضهـا التبعية لبروتوكولات صهيون، ولدعـوة التغـريب، ولمحاولـة تدمـير مقومـات المجتمع الإسلامي تحاول أن تفرض مفهوم الصراع بين الأجيال . بينما الواقع يقرر أن ما بين الأجيال لقاء لا صراع .

إن مفهوم الإسلام يرى أن هناك تكاملاً بـين جيل وجيل، قوامـه تكامـل بالتلقي، وعطاء بالتجربة .

ويتـردد القـول بأن ما بـين الأجيال هو صراع ، وخصومـة ، وتضـارب وتعارض. والحق ان ما بين الأجيال ليس كذلك، ولكنه لقاء وأمانة ، وبناء على أساس وفكر متصل ، وارتباط بين القديم والجديد. والماضي والحاضر ، وإخراج للحي من الميت، وعطاء من صاحب التجربة ، وطموح من الجيل الجديد في أن يكسب كل ما سبقه إليه الجيل الماضي ليزيد عليه وينميه

ولقد علت في ظل التحديات التي يمر بها العرب والمسلمون. وهي تحديات الغزو الثقافي، والحرب النفسية وأثر النكسة كلمات غاضبة صاخبة بعيدة عن الحق والعقل والمنطق ، وواقع التاريخ تريد ان تفرض الصراع بين الأجيال، وتحاول أن تصور التطور التاريخي ، والمتصل بـين جيل وجيل، على أنـه صراع بينما تكشف النظرة الصادقة المنصفة المستأنية ان هناك لقاء متصلا، على طريق واحد. رسمته القيم الأساسية لهذه الأمة . هذه القيم التي ما زالت ثابتة قائمة بالحق والعدل وعلى التوحيد والإيمان. تبني الأجيال جيلا بعد جيل، وتنمي علائقه. وروابطه، وتنفي عنه الدخيل والغريب والفاسد، وتؤصل الأصيل والصحيح ، وتردّد دائماً محاولة

الإفناء والاحتواء والتغريب ، وتصحح المفاهيم، وتحرر القيم ، وهي رسالة دائبة لا تتوقف منذ عرف المسلمون والعرب أن لهم عدوًّا قائماً على حدودهم ، يريد أن يبطش بهم ، فهم قد صنعوا فكرهم على أنه فكر مقاوم قادر على الأخذ والعطاء ، له طبيعته المستقلة الذاتية المفتوحة في نفس الوقت، دون أن تجمد أو تذوب.

***

لقد تنبه الشباب الى تلك الحملة الضارة التي تقودها قوى الاستعمار العالمي، لإيقاع الخصومة والصراع بين الأجيال ، والتي تحرض الأجيال الجديدة على أن ترفض التجربة والعبرة والفكر الماثل ، وتدعوها لأن تتقدم في فراغ وظلام بدعوة غريبة ضارة . هي ان للجيل الجديد الحق في اختيار طريقه دون وصاية احد.

ومن الحق أن الأجيال الماثلة لم تقم بواجبها في تقديم تجربتها وخبرتها إلى الأجيال الجديدة . وأن الأجيال الجديدة واجهت اضطراباً كبيراً ونقصا شديدا تحت تأثير عوامل كثيرة دفعت الشباب إلى التماس الخطأ، لأنه لم يجد التوجيه الشديد إلى الخير، ولكن ليس معنى هذا أن ترفض الأجيال الجديدة القاعدة التي تبني عليها وجودها الحي. فذلك حقها الذي تطلبه، وتصر عليه حتى يقوم بناؤها على الأساس.

ذلك أن أي بناء لا بد أن يقوم من الواقع ، وأن ينمو امتداداً لما قام فعلاً ، إذن فلا سبيل لها أن تنفصل عنه، وإنما هي تبدأ منه أساساً تنمو به وتجدده لتضيف لبنة .

وهي في الحق تعرف ان هناك القوائم الثابتة. التي لا تتغير مع الزمن، والقيم الأساسية القادرة على الالتقاء مع كل عصر وجيل. وأن هناك عناصر التغيير والتحول والتطور التي تتجدد . وهذه هي التي سوف يتاح للأجيال الجديدة أن تنميها وتحولها بما يوائم الزمن والبيئة، ومتطلبات العصر.

***

ومن الحق ان يقال: إن الأمر بين الجيل الماثل ، والجيل القادم ليس فيه وصايا، وليس فيه صراع ، وإنما فيه تنوير وتفسير وعطاء وكشف للتجارب التي مر بها هذا الجيل بما يضيء للأجيال القادمة طريقها الصحيح.

وهي عدة المسافر، وزاد المتأهب لحمل الأمانة، وهي مراقبة النبت الصغير حتى ينمو، وحمايته من العطب وتسديد خطاه في مرحلة تقصر فيها العيون عن النظرة البعيدة، والقدرة على الإحاطة بالأبعاد المتعددة للمسائل والقضايا.

وتلك هي عملية التكامل بين الأجيال: أخذ وعطاء، أما القول بأن الأجيال الجديدة تستطيع أن تشق طريقها دون أصالة القائم، وأرضية الموجود، وأساس البناء، فتلك دعوى زائفة يراد بها إفراغ المعاني من مضامينها، وإخراج الوقائع عن أصولها. فليس هناك سبيل إلى الانفصال بين الحاضر والمستقبل، شأنه شأن استحالة الانفصال بين الماضي والحاضر.

***

ولقد تحاول دعوات هدامة إلى الفصل، لأن طبيعة فكر هذه الأمم يقوم على استقلال القيم أو تفرقها، ولكنه في الفكر الإسلامي والثقافة العربية عسير أشد العسر. ذلك لأن هذا الفكر، وتلك الثقافة تشكلت بطبيعتها على قاعدة التكامل لا التجزئة والاتصال لا الانفصال، والنظرة العاقلة البعيدة عن المؤثرات المضللة التي تحول دون الحقيقة.

وكل وحدة فيه تسلم إلى الوحدة الأخرى، وتتأثر بها، وتجمعها جامعة واحدة، قوامها التوحيد، وطابعها الأخلاق، والإيمان بالله، وأخلاقية القيم، هي خلافنا الأساسي مع الفلسفات والمناهج التي تدين بها بعض الأمم التي يتحدث عن صراع الأجيال.

***

هذه الفلسفات المادية هي التي صنعت ذلك الانفصام في شخصية الأمة، وألقت تلك الظلال من القلق والصراع.

أما وقد تشكل فكرنا منذ أربعة عشر قرناً، والإيمان بالله جزء منه، والأخلاقية التزام كامل يطبع مختلف مناهج الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية والقانون. فنحن في حصانة من اقتحام موجات القلق ما دمنا نعتصم بقيمنا. هذه

الموجات التي تمثل أزمة الإنسان المعاصر ، والتي لا تجد طريقها إلى النفس البشرية ، إلا إذا فصلت القلب والعقل والروح والمادة والدنيا والآخرة.

ومن أخطر ما تروج له الدعوات الضارة التي صدرت أساساً من توجيهات بروتوكولات صهيون، والتي تشكل (الأيدلوجية اليهودية المدمرة) الدعوة إلى كراهية الأخ الأكبر.

***

ولا شك أن هذه المحاولة لتجسيم الرابطة بين الأب والأسرة هي نتيجة من نتائج التغير النفسي الذي قدمه (فرويد) من أجل تدمير القيم الإنسانية، وأريد به إذكاء الخصومة في الأسر بين الأب والأبناء. ولقد صاغ الإسلام هذه الرابطة على نحو بناء قوامه مسئولية الآباء ومحبتهم، وإيمانهم بالأجيال الجديدة من ناحية، وقدرة الأجيال الجديدة على التلقي بالصبر ، والثقة في الآباء، وإيمان بأنهم يحمونهم من العثار في مرحلتهم في أشد الحاجة فيها إلى التوجيه. وأن هذه الضوابط التي قد يقسون عليهم في التزامها. هي أهم الركائز التي سوف تقيم شخصياتهم قوية صامدة في وجه الأعاصير والأهواء . بل لقد أثبت علماء النفس المنصفون من غير مدرسة فرويد . أن هذه الحماية والرقابة في التزام هذه القيود لم تترك في النفس البشرية أثراً ما، يدفعها إلى المرض أو التحدي أو الأخطار على النحو الذي يحول به (فرويد) وأعوانه، ولا يقصدون به الحق أو الخير، وإنما يريدون به خلق جو من الفزع يدفع الآباء إلى ترك أسلوب التوحيد والحماية والتفريط في أمانة الرعاية على النحو الذي نسمع به في كثير من المجتمعات اليوم. إن هناك محاولة خطيرة لفرض مفاهيم مضادة للفطرة الإنسانية ، لا بالإقناع والعقل والتجربة ، والاحصاء العلمي، وإنما بالتخويف والإرهاب من خطر وهمي غير موجود كالقول بأن الإبطاء في إطلاق الغرائز يصيب بالأمراض. بينما الأخلاق لم تكن إلا قيداً منظماً أو وقاية ضابطة لا خوف منها. ولقد بلغ العلماء أبعد من ذلك حين قالوا: إن ما نسميه غرائز. إنما هي ميول لدنة يمكن توجيهها أية ناحية وإن (٩٩ في المائة) مما نسميه غرائز. إنما هي اتجاهات اجتماعية قد غرسها فيها المجتمع برجوع انعكاسية مكيفة . فالمجرم يرتكب جريمته بعادات ذهنية وعاطفية واجتماعية . وليس بغريزة

موروثة . وكذلك الأمر بالنسبة لكل تصرف خاطىء كالعادات الضارة . فهذه كلها أمور تتسع النفس الإنسانية للرجوع عنها ، ولو سارت فيها طويلاً دون أن تفقد شيئاً . بل إن هناك من القدرات في النفس الإنسانية ما يمكنها من الانصراف عن عادات أصيلة تحت تأثير الإيمان والتقوى دون أن يحدث ذلك أي ظلم أو رد فعل .

***

والواقع أننا لو التمسنا مفهوم الإسلام في شأن العلاقة بين الأجيال لانهارت تحديات كثيرة. ولكن مصدر الخطر والاضطراب. هو التماس مفاهيم وافدة لمجتمعات أخرى دون تقرير الفوارق البعيدة والمعارضة في تركيب الأمم وأمزجتها وأخلاقها. والفوارق بين الأزمنة والعصور والبيئات.

***

(١٤) الضَّيَاع [١]

تضطرم كتابات التغريبيين بكلمات الضياع والقلق . بينما لا يقر الإسلام هذه المفاهيم في جوهره الصحيح . إن النظرة المادية هي التي أحدثت هذا الاضطراب النفسي الذي حرم النفس الإنسانية من الثقة والإيمان .

أما الفكر الإسلامي فهو يؤمن بثقافة القلب ، ممتزجة بثقافة العقل . ومن هنا لا تقع أزمة الضياع .

ومن المصطلحات التي طرحت على الفكر الإسلامي مفهوم (الضياع) على نحو العبارات التي يرددها بعض الشباب من عبارات ترجع في الأصل إلى مصادر وافدة . ذلك أن الأمة العربية الإسلامية إذا ما التمست مناهجها وقيمها ، فإنها لا تخضع له مثل هذه المذاهب ، والنظرية التي تتعارض مع طابعها وتشكلها الأساسي والجذري ، وفطرتها الأصيلة ، وتراثها الحي الذي أقامه الإسلام على أساس التوحيد .

والإيمان والأخلاق والترابط الواضح بين العقل والقلب ، وهو ترابط مستمد من تركيب الإنسان نفسه ، فهو موافق له ، يحول دون التمزق أو الضياع الذي يكون مصدره في الواقع . ذلك الانفصال بينهما ، وإعلاء أحدهما ، ووضع الآخر بعيداً عن الضوء .

إن العامل الأول الذي يحول دون خضوعنا لمثل هذه المذاهب . هو تكامل نظرتنا إلى الحياة ، وتلك الوسطية التي تتسم بها طبيعتنا وسطية تحول دون

---

(١) مصطلح الضياع : مصطلح وجودي يراد به تصور فقدان الثقة في المجتمع .

الانحراف أو التجمد ، فنحن لا نتحيز لجانب العقل ، وعالم الشهادة وحدهما ، ولكنا نؤمن بالعقل والقلب أسلوباً للمعرفة ، ونقيم عالم الشهادة ، والغيب معاً متكاملين . ونؤمن بالبعث والجزاء . ولذلك فنحن لا نسرف ونغرق في فلسفات الحسيات والماديات والغرائز ، ولا نسرف كذلك ، ولا نغرق في فلسفات الزهد ، وتعذيب النفس والرهبانية .

ومن هنا فإن فكرنا مطبوع دائماً بطابع السماحة والتفاؤل والتطلع إلى رحمة الله ، وهو ما يحول دون التمزق والضياع .

***

بينما يقوم التمزق والضياع في بيئات قصرت مفهومها على النظرة المادية وحدها . وأنكرت الإيمان بالله ، وعزلت المجتمع عن الالتزام الخلقي . ولقد أقام الفكر الإسلامي مستمداً من القرآن الكريم ميزاناً ظل حيّاً على مدى العصور لم يسقط أبداً . ذلك هو ميزان التكامل والوسطية والحركة . وذلك القسطاط الذي كان قادراً دائماً على تعديل مسار الفكر الإسلامي إذا اتجه نحو التجزئة أو الانحراف أو التوقف .

وقد كشف التاريخ في موجاته المتصلة ، وحركاته المتوالية أن مصدر الخطر على المجتمع الإسلامي . إنما يجيء من التخلف أوالانحراف عن مفهوم الإسلام أو الانفصال عنه في نظريته المتكاملة للكون والإنسان والمجتمع . وهي نظرة قوامها التوحيد ، ومنهجها العدل والحق ، وروحها الإيمان ، وطابعها الأخلاق في نطاق من الوسطية الجامعة بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة . وهذا هو مفتاح « أزمة التمزق والضياع » التي فرضتها فلسفات الوجودية والفردية حين طرحت انفصال الدين عن المجتمع والأخلاق عن الحياة . ولقد كانت أصالة فكرنا وعمق جذوره وذاتيته الخاصة . كانت دائماً عامل قوة وإيجابية قادرة على شجب تيارات التمزق والضياع .

إن أخطر ما يلقى إلى الأجيال الجديدة من سموم الأفكار التي لا تصمد لحظة واحدة أمام ضياء الحق ، أو نور العلم ، تلك النظرية التي تقول بأن الأخلاق نسبية مع كل عصر أو بيئة .

وهي نظرية تهدف إلى القول بأن هذا العصر الذي طغت فيه المادية والحضارة التكنولوجية من شأنه أن يفهم « الأخلاق » فهماً متغايراً لمفاهيمها التي جاءت بها رسالات السماء .

والحق أن الأخلاق ترتبط بالإنسان ، ذلك الكائن الحي الذي يقوم تركيبه على الروح والجسم ، والعقل ، والذي لم تتغير هذه المواد في تركيبه منذ استوى على هذه الأرض . فالأخلاق مرتبطة به هو ، وليست مرتبطة بالصورة المادية للمجتمع .

ومن هنا كانت صياغة الأخلاق التي تحمى وجوده ، وتضبط مسيرته ، وتدفع عنه الأخطار وتحفظه بناءاً سلماً قادراً على العمل ، والدفاع عن أرضه ، وصنع الحياة . كانت هذه الصياغة ملائمة تماماً لتركيبه ونوازعه ، وأبرز مفاهيم الأخلاق بالنسبة للإسلام (الالتزام الأخلاقي) . وقد أخطأ بالعبد « دوركايم » حين أشاع نظرية مسموعة تقول : إن الأخلاق خاضعة لظروف الحياة وإن نظام الأسرة ليس نظاماً فطرياً ، هذه النظرية الخطيرة التي ارتبطت بالأيدلوجية اليهودية لتدمير الإنسانية (وجماعها : التفسير المادي للتاريخ ، والتفسير الجنسي للمجتمع والوجودية) .

***

هذه المحاولة لتجريد الأخلاق من فكرة الإلزام . والواجب والضمير الخلقي ، هي أخطر المحاولات التي صنعت فكرة الضياع والقلق والتمزق ، والحق أن الأخلاق لا توجد كقوة فاعلة في المجتمع دون فكرة الإلزام ، إيماناً بأن الإلزام هو العنصر الأساسي ، أو المحور الذي تدور عليه قضية الأخلاق . والواضح أن زوال فكرة الإلزام يقضي على جوهر الحكمة العلمية التي تهدف إليها الأخلاق ، فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسؤولية . وإذا انعدمت المسؤولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه وإقامة أسس العدالة .

ومفهوم الإلزام يقتضي أن تكون الفضيلة قوة كامنة إذا ملأت نفس المرء حفزته إلى العمل النافع . حيث تتحول الفضيلة من قوة معنوية في النفس إلى قوة حسية .

ويكون الخير الأخلاقي بمثابة سلطة ملزمة يتقيد بها الجميع . وقد دعا القرآن الكريم إلى الإلزام الخلقي ، وكشف عن أن النفس البشرية عرفت منذ تكوينها الأول معنى الخير والشر . (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها[1]) .

وقد ألهمت النفس الإنسانية الحسن الخلقي ، فعرفت طريق الفضيلة والرذيلة . (وهديناه النجدين[2]) .

وقد تنحرف الطبيعة الإنسانية نحو الشر . ولكن الإنسان قادر على أن يردها ، ويستعيد إرادته وسيطرته على قيادها . وفي النفس قوة كامنة مهيئة لتقبل التوجيه والنصح ، وهي تحدد للإنسان ما يجب عمله ، وما يجب تحاشيه . هذه السلطة التي تسيطر على قدراتنا . وعلى غرائزنا ، هي أسمى جزء في نفوسنا . وهي « العقل » وسلطة العقل هي السلطة الشرعية الوحيدة .

ولا شك أن أزمة الإنسان الغربي . قد كانت موضع دراسة الفلاسفة ، وعلماء النفس والاجتماع ، وهم بين جاد منصف يريد أن يلتمس لها حلاً حقيقياً في ضوء العلم والتجرد الخالص ، ومنهم من يستهدف وضع حلول من شأنها تدمير النفس الإنانية وتمزيقها .

وقد علت هذه الأصوات الأخيرة بالرغم من زيف حلولها ومذاهبها . لأن قوى الأيدلوجية الصهيونية وغيرها من القوى المناوئة للإسلام . كانت من وراء نشرها ، والإلحاح عليها . بينما اختفت سريعاً كل المحاولات الجادة ، ويرى هؤلاء المنصفون أن الاعتماد على التفكير العقلي المجرد غير قادر على حل مشكلة الإحساس بالغربة أو التمزق والضياع . فإن هناك إمكانيات أخرى في الإنسان لا بدّ من استغلالها ، والإمكانيات تنحصر في قدرة الإنسان على الاستفادة من قوى ثلاث هي : قوة الإرادة ـ وقوة العقل ـ وقوة العاطفة . وأنه لا بدّ من إيجاد الوحدة بين هذه القوى الثلاث بإعتبارها الوسيلة الوحيدة لتحقيق التوازن النفسي ، والتكامل النفسي . وأن هذا الاضطراب القائم تحت أسماء الغربة والتمزق والضياع . إنما نتج أساساً من ضعف العقيدة الدينية التي قلل من أثرها سيطرة

---

(١) سورة الشمس آيتا ـ ٧ ـ ٨ .

(٢) سورة البلد ـ آية ١٠ .

التفكير العقلي الصرف ، فنحن بحاجة ماسة إلى إشباع هذه العاطفة الدينية إشباعاً نجد فيه الملاذ الذي نبحث عنه . وأن غياب العقيدة الدينية ، والإيمان بالله الذي لا يغنى عنه شيء ، كان عاملاً هاماً في هذه الأزمة . ولذلك فإن حاجة الإنسان إلى إشباع عاطفته الدينية أمر لا ينقطع[1] .

***

ويرى كولن ولسن في كتابه الغريب . أن هذه الأزمة هي أزمة الإنسان الحساس العاقل الذي فقد إيمانه بالله ، ولم يجد بعد ما يسد حاجاته العاطفية التي كان الإيمان مركز إشباعها ، وهي أزمة لعب العلم والتفكير العقلي فيها دوراً بالغ الأهمية أدى في نهاية الأمر إلى ضعف العقيدة الدينية ، وعنده أن أحد نتائج هذه الأزمة هي إشهار الإفلاس العقلي والتفكير العقلي ، ودعا كولن ولسن إلى ضرورة تحقيق اتساق أو توازن بين قوى الإنسان الثلاث : الجسم والعقل والعاطفة . وذلك لأن الإنسان وحدة لا تتجزأ ، ويرى كولن ولسن أن على الإنسان أن يتحرر من معتقدات وهمية كثيرة أهمها فكرة (الخطيئة الأولى) التي تسيطر على بعض الناس ، وتقف حائلاً دون رؤية الحقيقة . ويصل كولن ولسن إلى أعماق الأزمة . حين يشير إلى الآثار التي أفسدت العقلية الغربية ، والتي تمثل في آثار بعض الكتاب من أمثال جوته (آلام فرتر) وشبلر وسارتر وكامو وجيمس جويس . وكل هذه الآراء تحاول أن تصور الحياة . وقد انعدمت معانيها وقيمها وغاياتها مما أدخل على حياة الناس السأم والإنهاك والانشقاق على النفس . بل أدى إلى مئات النزوات .

وفي قصة الغريب لألبيركامي ، والغثيان لسارتر ، تبدو صورة مريرة تقوم على الرغبة في إنكار كل قيمة للحياة ، وفي كل منها ذلك الإحساس بالقلق والنفور والتصدع القائم بين الفرد والمجتمع . وفي شعور الانسان فجأة بأنه غريب ، وبأنه يشرب نفسه دون أن يكون ظمآن . ومن هنا يأتيه الإحساس بالغثيان ، ويرى (كولن ولسن) ارتباط هذه الفلسفات بالآثار المسيحية الغربية ،

---

(١) دكتور مصطفى بدوي - مجلة كلية الآداب ١٩٥٨ .

وقد كان بعض أعلام الفكر الديني يرى أن الشعور بالألم أو الشعور بالخطيئة هو السبيل إلى الإيمان ، وإلى الوصول إلى ما يسمى بدوائر الإيمان العليا ، وبمعنى آخر ينبغي للإنسان أن يمر بعذاب الضمير ، فإن عذاب الضمير الناجم عن الشعور بالخطيئة ، هو الذي يحقق ما يسمى بالوجود أمام الله .

ويرى (كولن ولسن) أن هذه هي فلسفة كيركجارد ، أو من يطلق عليهم الوجوديون المؤمنون ، وهي ترتبط بفكرة الخطيئة .

أما نظرية سارتر وكامى فتصورها مسرحية (الله والشيطان) وأبرز معالمها نبذ العقائد الدينية ، ومحاولة القول بخطورتها في تعويق تقدم الإنسان ، وتكبيل حريته . وأسوأ ما تصل إليه هي القول بأن « الموجود » الوحيد في العالم هو الإنسان . مما زلزل إيمان الناس في الغرب في أقدس مقدساتهم ، وأن الفكر الديني الغربي هو الذي أفسد فهم الناس لكثير من الحقائق .

ومن هنا كانت دعوة (كولن ولسن) إلى نبذ فكرة الخطيئة كأساس للتحرر من الغربة والغثيان . ويشير « كولن ولسن » إلى أن أخطر ما أصيب به الفكر الأوروبي هو : تأليه العلم وتقديسه . بل وتسخيره أحياناً في إشعال الحرب . وكان طبيعياً أن يؤدي هذا إلى خلق الشعور بالقلق المقيم الذي استبد بإنسان القرن العشرين حتى أصبح مرضاً شائعاً وطابعاً يميز إنسان هذا العصر . وقد صاحب ذلك إحساس بعبث الحياة، وإنعدام الدافع والمسوغ لبذل الجهد والطموح في عالم قد يباغته الدمار في كل لحظة .

وهكذا تقف بعض الأقلام الواعية لتصور أزمة القلق والضياع والغربة في الفكر الغربي ، وهي أزمة لا تستطيع أن تقتحم آفاق الفكر الإسلامي إلاّ بصعوبة بالغة . ذلك لأن عواملها لا تتوافر هنا إلاّ من باب التقليد المحض ، ومن باب الغزو الثقافي .

فالإسلام بسماحته الفائقة وروحه البنّاءة المليئة بالتفاؤل والإيجابية البعيدة عن كل تعقيدات الاضطراب النفسي تحَولُ تماماً دون وجود أزمة « الغريب » في المجتمع الإسلامي .

وأن أخطر ما تقوم عليه هذه الأزمة ، وهو مفهوم التطور في الأخلاق ، وإلغاء الالتزام الأخلاقي ، وهما من الأمور التي يتمسك بها الفكر الإسلامي ، ويعتبرها أساساً عميق الجذور في بناء المجتمع .

ولعل هذا هو أعمق الفوارق بين الفكر الإسلامي ، وبين النظريات الفلسفية والمادية الزائفة التي تدعو إلى التطور المطلق ، والحرية المطلقة ، والتي تفسر العقل والقيم والتقدم على نحو مختلف عن الأصول التي يقوم عليها الفكر الإسلامي .

***

ولعل أبلغ تصوير لهذا المعنى ما يقوله الدكتور إسماعيل الفاروقي في مقارنته بين فكر العنصرية الصهيوني ، وبين فكر الحنيفية العربي الاسلامي . إن القول بوحدانية القيم أمر تفرد به العرب ومن سواهم . فوحدانية القيم هي نفسها وحدانية الله . وهذه الوحدانية إدراك عربي طرأ على الوعي العربي (نتيجة الرسالات السماوية) مصطحباً جانبه الأخلاقي .

على حين أن غير العرب من الشعوب قد لبثت قروناً حتى بعد أن أخذ بالوجه الديني من تلك الوحدانية قبل أن يدرك جانبها الخلقي ، وأعنى به وحدة المعيار بين مختلف الناس بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم .

« لب هذه الرسالة هي أن الله موجود ، وأنه واحد » .

« أما وجوده فمعناه عند العقل العربي وجود « القيم » وجوداً مستقلاً عن الإنسان ووجوده . أعني أنها ليست من صنع الإنسان كما تقتضي ظروف عيشه » .

« ومعناه كذلك عند العقل العربي أن حياة الإنسان على هذه الأرض لم تكن عبثاً » .

« أما كون الله واحد ، فمعناه عند العقل العربي . أن القيم تحمل معياراً واحداً لا يتأثر بإختلاف الزمان والمكان » .

« فالمعيار واحد بكل إنسان . أي كان . وحيثما كان . فليس لكل مجموعة من الناس معيارها الخلقي ، ومعيارها الذي تقيس به الحق . بل الخير خير بالنسبة لكل البشر . والحق حق بالنسبة للناس أجمعين » .

« فالقـول بوجـود الله وبوحـدانية الله . إذن هو من صميم الاعتـراف بموضوعية القيم وتخليصها من قيود النسبية التي تقر إختـلاف المعـايير بإختـلاف الظروف » .

« فالإنسان أمام الله . هو الإنسان لا اختلاف بين فرد وفـرد . إذا ما قيس الأفراد بمقياس الأخلاق الذي هو مقياس الحق[1] » . ا هـ .

***

وهذا القول بثبات الأخلاق هو حقيقة أعلنتها الأديان المنزلة جميعاً ، وأكدها الإسلام في وضوح . وهي مصل مضاد لكل أخطار المفاهيم المسمومة المنحرفة التي تطرحها أيدلوجية الصهيونية العالمية لإفساد النفس الإنسانية وتدميرها .

ومن هنا يبدو فساد تلك النظرية التي طالما أثارها كتّاب التغريب نقلاً عن (دوركايم ، وسارتر ، وفرويد ») . والتي تربط الأخلاق بالوسـط ، بينما ترتبـط الأخلاق بالإنسان نفسه ، وبتركيبه العقلي والروحي والمادي . وأن أقوى العوامل في تكوين الأخلاق هي « العقائد » التي تستطيع أن تحـول النفس الإنسـانية من النقيض إلى النقيض ، وأن القول بأثر البيئـة أو الوراثـة أمـر يجـيء في الدرجـة التالية ، ولكن العقائد وهي أقوى أثراً في تحويل الطبائع ، وتحرير النفوس من آثار البيئات والورثيات ، وليس الانسان ابن غرائزه ، كما يدعي أصحاب المذاهـب الهدامة ، ولكن ابن عقيدته . ابن الإيمان .

وقد بدل الإسلام الناس وطبائعهم وغيرهم تغيراً جذريا على نحو يستطيع أن يكشفه كل من يقرأ لتاريخ الدعوة الإسلامية ، مما يؤكد زيف هذه النظرة ، ويؤكد قدرة العقيدة الصحيحة ، على تغيير النفوس .

---

(١) كتاب في مقارنات الأديان : الدكتور اسماعيل الفاروقي .

وقد آمن المسلمون بأن الالتزام الأخلاقي هو : طابع كل القيم ، وقسيمها . ومن هنا فإن المسلمين لم ينظروا إلى الأخلاق ، على أنها نشاط عقلي ، أو موضع جدال فكري . ذلك أن الإسلام جعل من الأخلاق منهجاً علمياً لإقرار قيم التوحيد والإيمان والحق .

هناك محاولات خطيرة مطروحة لضرب اللغة العربية ، وبلاغة القرآن وبيانه . مقام هذه المحاولات حركتين : هما حركة الأساطير ، وحركة الفلكلور . ما هو الهدف الحقيقي من الدعوة إلى الفلكلور في فكرنا الإسلامي وأدبنا العربي .

وكانت الدعوة إلى إحياء التراث الشعبي (الفلكلور) في السنوات الأخيرة تستمد وجودها من بعض أهداف ترمي إلى تغليب العامية ، والأزجال ، والأساطير والقصص الشعبية ، والأغاني والأمثال العامية على الأدب البليغ ، وإذابة الذوق العربي العام في ألوان ضعيفة تقلل من قدر البيان العربي الذي يتصل أساساً بالعمل على إيجاد مستوى كاف لفهم القرآن الكريم ، والاقتراب من منهجه . وقد كانت الدعوة إلى الفلكلور محاولة لا بأس بها ، لو أنها خلصت من هذا الفرض الخفي ، ولو أنها بقيت في حدود حجمها الطبيعي بالنسبة للأدب الرفيع ، والفنون الممتازة ، إما أن تجري المحاولات لإعلائها ودفعها حتى تكتسح مجال الأدب البليغ ، والأساليب العالية . فإن ذلك هو الانحراف الذي يخشى أثره .

ومن هنا ارتفعت أصوات كثيرة تحذر من جناية الأدب الشعبي على الأدب العام من خلال مفاهيم منحرفة ، وهي التي تقول بأن الفلكلور يمثل روح الشعب ، وأنه وسيلة إلى التفاهم مع الطبقات الشعبية . وربما ردّ بعضهم هذا اللون إلى المذهب الواقعي .

ومن الحق أن ذلك كله من المغالطات التي يراد بها النزول بأسلوب الكتابة ، ومستوى الفكر ، ومنهج العقلية إلى المستويات البسيطة الساذجة التي لا تستطيع

أن تمثل ذوق الأمة ، ولا مزاجها . هذه الأمة التي كانت أكبر مظاهر عظمتها ، ومعجزة دينها هي البيان .

***

والواقع أن هناك لوناً شعبياً في الأدب . له حدوده ، وله طابعه . ولكنه لا يستطيع أن يسيطر على الأدب العام ، الأدب العريق البليغ الذي يستمد وجوده من الوجود الإسلامي العربي الأصيل .

بل إن هذه الألوان من شأنها أن تهدم أعظم عناصر الأدب والفن ، وهو الجمال والأصالة . لقد كانت الدعوة إلى الفلكلور ، واحدة من دعوات متعددة . منها : الدعوة إلى الميثولوجيا أو الأساطير ، وهما قد يختلفان مظهراً ، ولكنهما يتفقان غاية .

وقد شابت الدعوة إلى الفلكلور في السنوات الأخيرة أهداف وغايات انحرفت بها عن هدفها العلمي ، فقد اتخذت وسيلة لإذاعة العاميات ، وجمع الأزجال ، والمواويل . والأمثلة العامية على نحو يراد به خلق تراث عام للعامية ، يمكن من خلاله الادعاء بالقول بأن العامية لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية ، وهذا ما جرت محاولة القول به . وجمعه منذ أكثر من سبعين عاماً . وقد بدأ هذه المحاولة القاضي ولمور ، والمهندس وياكولس وغيرهما[1] .

***

لقد بدأت حركة الفلكلور ، كما بدأت حركة الأساطير على أيدي المبشرين والمستشرقين ، ودعاة التغريب ، الذين حملوا لواء الدعوة إلى العامية ، واللغة المحلية ، وألفوا فيها رسائل عديدة ، وجرى في تيارهم بعض الكتاب ، وهي محاولة يجب أن نتبين أبعادها وخلفياتها التي تهدف إلى إقصاء اللغة الفصحى والبلاغة والبيان العربي عن الأسلوب العام ، وخلق أسلوب عامي ساذج .

---

(١) راجع كتابنا : اللغة العربية بين حماتها وخصومها .

والهدف الأصيل هو : إقصاء لغة القرآن عن مكان الصدارة ، وتعزيز العاميات في كل مصر ، وبلد . مما يؤدي إلى تفكيك وحدة الأمة العربية ، وإبعادها عن جوهر فكرها ، بإنزالها عن مستوى بلاغة القرآن وآداية ، كما عمدت دعوتي الفلكلور والأساطير إلى استحياء الماضي الوثني القديم البائد ، من وراء عصر الإسـلام ، فهي قد ارتبطت بالفينقية في لبنان ، والفرعـونية في مصر ، والرومـانية في شمال أفريقيا . وكانت تحاول بذلك إحياء قيم ماتت وانتهت ، وتقاليد ومظاهر وأعياد جرفتها القيم الإسلامية ، وانتهت وجودها ، ولم تعد مرة أخرى إليها ، بعد أن جاءها الإسلام بالتوحيد الخالص .

(١٦)

مُصطلح الضّمير

هناك مصطلحات كثيرة ما تزال تتردد ، تستهدف إخراج الفكر الإسلامي من مقوماته وذاتيته وجوهره الأصيل . من هذه المصطلحات كلمة الزفانا ، وكلمة المهندس الأعظم ، وكلمات كثيرة أبرزها كلمة الضمير ، التي تتردد كثيراً دون أن نكتشف حقيقتها ، ومصطلح الضمير من التعبيرات التي استحدثتها كتب الأخلاق الغربية ، وهو مصطلح أريد به إحلال مفهوم أخلاقي ، منفصل عن مفهوم الأديان المنزلة ، فحيث يدعو الإسلام إلى بناء الإنسان بالتقوى ، ويجعل منه قوة فعالة تحول بين الإنسان ، وبين الشر . فقد دعا كتاب الغرب إلى ما يسمى بالضمير ، والضمير بهذا المفهوم لا يتشكل إلاّ من خلال مفاهيم البيئة والثقافة ، والعقيدة ، فإذا تشكل على معنى التحرر من قيم الأخلاق ، أو اعتبارها نسبية لا ترتبط بالإنسان ، ولا بالمثل الثابتة . فإنما يجري الضمير معها هذا المجرى . وحينئذ لا يستطيع ذلك أن يحقق شيئاً على النحو الذي يشكله مفهوم الضمير المرتبط بالأخلاق والعقيدة ، لذلك فإن الرأي أن الضمير ينبني تحت مفهوم ترابط الدين والخلق .

مصطلح الضمير .

وفي هذا المعنى يقول الدكتور عبد الحليم محمود : « لا نجد في معاجم اللغة ذلك المعنى الأخلاقي الذي نفهمه من هذه الكلمة في الوقت الحاضر ، وقد استعمله الغرب كثيراً ، وأشاد به حينما أراد أن يضع للأخلاق أساساً ، ومقياساً منفصلاً عن الدين ، حين أراد الغرب أن يتخلص من سيطرة الكنيسة ، وأن يخرج

عن سلطانها . وكان الدين إذ ذاك أساساً ومقياساً للأخلاق ، فإذا أريد التخلص من الدين جرى البحث عن أساس ، ومقياس للأخلاق .

حاولوا أن يستعيضوا عن الدين بوحي الضمير ، وأن يتخذوا من وحي الضمير الأساس الذي لا يخطيء .

إن الناس في كل العصور يستثيرون ضمائرهم ، ولكنها لا تسمعهم جميعاً لحناً واحداً . وعند ما نوازن بين أحوال الضمير في العصر الواحد في أقطار مختلفة ، فإننا نجد أيضاً فروقاً لا تحصى .

ويختلف الضمير بإختلاف الأزمنة ، أو اختلاف المباديء ، أو اختلاف البيئة ، أو اختلاف الثقافات في البيئة الواحدة .

ومن الشبه التي جعلت الناس يؤمنون بمنزلة كبرى للضمير أنه قد شاع بين بعض الطوائف أن الضمير قوة فطرية معصومة بطبيعتها .

والضمير قوة فطرية ، إلاّ أنها تتلون بحسب ما تتغذى به من ثقافة وبيئة ووراثة . وهي تختلف في الفرد الواحد بحسب اختلاف سننه ، وتنقله من بيئة إلى أخرى . وبحسب الكتب التي تمده بالثقافة العقلية ، أو التهذيب الروحي ، وبحسب أخلاق الأصدقاء الذين يلازمهم الإنسان في حياته .

ليس الضمير قوة فطرية معصومة بطبعها ، بل هو متأرجح متقلب لا يستقر له قرار .

إن « الأخلاق » هي المقياس الذي يلجأ إليه « الدين » ويستمد منه الهداية والإرشاد . فإنه هو وحده المعصوم ، والإسلام قد أتى في الجانب الأخلاقي بكل ما تتطلبه النفوس المرهقة ، والأفئدة المتعطشة للاستقامة والإنابة .

أما صلة الدين بالضمير فهي صلة هيمنة ، وتوجيه ، وإرشاد ، وسيطرة . صلة هيمنة تستمر مدى الحياة . فإذا زالت اختل الضمير .

الفهرست